سامي البدري

إيقاع غريزة الفراشات

رواية

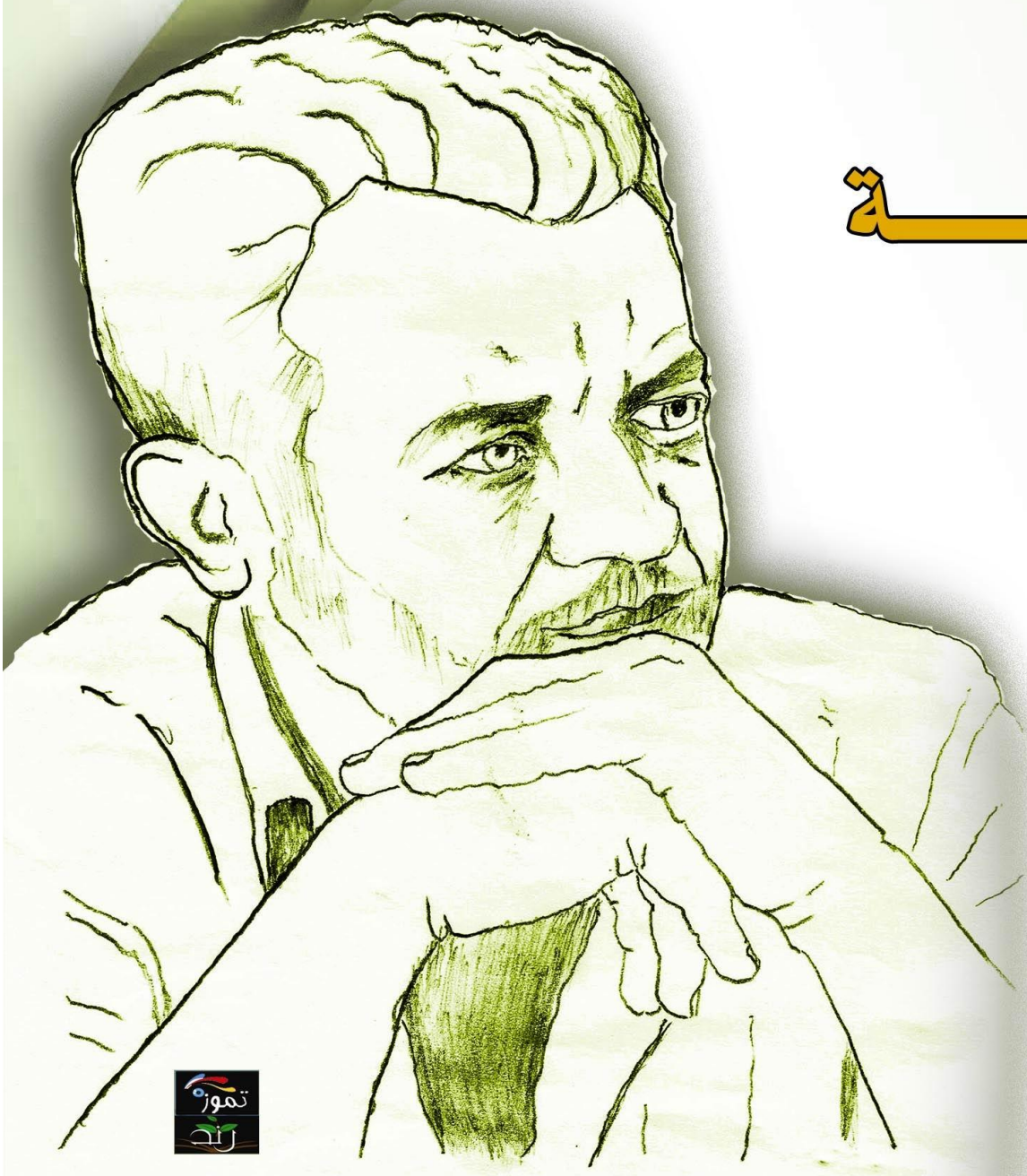

جميع الحقوق محفوضة للمؤلف

الكتاب: إيقاع غريزة الفراشات

تأليف: سامي البدري

الطبعة الأولى ٢٠١١

لوحة الغلاف للفنان وليد عبدالرزاق

تصميم الغلاف جعفر سعد

طباعة . نشر . توزيع

دمشق/ جوال ٠٠٩٦٣٩٤٤٦٢٨٥٧٠

Email: akramaleshi@gmail.com

إيقاع

غريزة الفراشات

سامي البدري

إيقاع غريزة الفراشات

رواية

سـامـي البـدري

إيقاع غـريزة الفـراشات

رواية

إلى...

أحمد عبيد المطروشي...

إنسانا وصديقا وشاعرا..

شغف الثانية بكل تفاصيلها ومعانيها الصامتة

وإلى سولافة... التي يستحيل تعجيها البكر إلى كلام أبيض

*** في تلك اللحظة فقط تذكرت أنها تتم اليوم المائة من عمرها وانها قد دفنت جميع أفراد عائلتها: زوجها وأولادها الثلاثة وبناتها الثلاث وأحفادها العشرين وأولاد احفادها الثلاثة والعشرين، وانها قد أمضت نصف عمرها في تقلبات الأحوال والأشياء وفساد الساسة ومجانية حروبهم التي مازالت تبحث عن متسع عمر كامل من الذاكرة.

ما أثار دهشتها هو أن تكون للموت سطوة كسطوة الإندفاع لأول لقاء جنسي في حياة الانسان: إختراق صدأ الجسد بضراوة ديك أطرش.

كانت قد إستيقظت مع صياح أول ديك، بعينين متوقدتين وذاكرة بلا فراغات وإهتدت إلى نافذة الصالة المطلة على حديقة قصرها دون التعثر بهواجس الظلمة وأوهام الوحدة. فتحت درفات النافذة الست لتفاجئها اللحظة بإنفراجاتها المتواثبة: رؤية بياض أزهار أشجار النارنج وهي تسفح براءتها تحت ضوء القمر بسخاء إله بلا عقد، كما رددت مع نفسها.. وبعد لحظة تأمل أضافت: ((كإنما بعث الأنبياء ليفسدوا علينا متعة الإنهمار في الموت بحنين المفطومين إلى الأثداء التي أرضعتهم)).

في تلك اللحظة، وهي تملأ أنفها ورئتيها من عبير زهر النارنج، وراسها يستمرئ أصداء ضجة فاغمة وينتظر مفاتيح شفرة سرابها، تذكرت جميع ملامح وتواريخ ولادة وموت وزيجات أفراد عائلتها، من زوجها الذي مات مخذولا من نكوص دورة تاريخه الشخصي إلى لحظة موت آخر

حفيدة لأبنها الثالث وهي تلملم قصاصات ذاكرتها لتكملها في أوقات إستراحة غابة الموت.

شكرت جهة لم تسمها أنها لن تحزن أحد برحيلها.. وشكرت جسدها على عدم خذلانه لها في ذلك الفجر، الذي باتت تنتظره من مساء دفنها لسولافة (حفيدة إبنها الثالث) ورددت مع نفسها: ((أخيرا سأجرب بلبلة هذا الكائن الطقسي الذي أمضيت عمري في محاولة إقناعه بأن تكون دواماته أكثر إشراقا وتسوية من سلوك الملوك والنساء دون فائدة)).

كان شريط حياتها يمر أمام عينيها سريعا ويانعا دون إغفال محطة واحدة، من يوم كسرها لأول تقاليد العراقة الأرستقراطية لهيبة والدها الباشا، مكي الحافظ، وأمها سؤدد خانم، برفضها التحدث مع ضيوف العائلة باللغة التركية، إلى تحطيمها لأهم تلك التقاليد بزواجها من رجل من العامة: مسطح التاريخ ومؤهلاته لا تزيد على مؤهلات ذكر الحمير: عضو جنسي قد يزيد طوله على طول مدافع الانكليز القديمة.

أطلقت تنهيدة وقالت ((ربما كان الباشا وسؤدد خانم على حق، فماذا جنيت بزواجي من ذلك اليعسوب غير أني أطلقت حزمة أخرى من اليعاسيب في سماء بلا ملكات))؟

إنتبهت لإلتماع الفجر الكاذب في الطرف الثاني من نهر دجلة فقالت ((لا أدري إن كان عليَ أن أعترف أني طاردت

فجرا كاذبا... لكني أقر أن عماتي الأربع وخالاتي الثلاث وشقيقتيّ قد كن أكثر أناقة مني في موتهن وهن يرفلن بوجع العنوسة الصامت.. ولكن هل تكفي الأناقة وحدها لموت ذهبي))؟

رغم كل شطط سعاد خانم الطبقي وكسرها للكثير من القيم الأرستقراطية إلا أنها لم تخرج من كامل فروة السمور الطبقية.. فهي تزوجت في أحد قصور العائلة وكانت هدية أسبوعها من العائلة الخادمة الأقرب إلى نفسها من خدم العائلة؛ كما حافظت على قضاء سهرة ليلة الجمعة في بيت العائلة التي كان يحضرها علية القوم، من الباشا رئيس الوزراء نوري السعيد إلى أصغر الملاك والإقطاعيين الذين صنعهم هذا الباشا خدمة لمرضه المزمن في حب الوزارة.. كما أنها واظبت على التفاخر أمام زوجها أن يكفيها فخرا أن رئيس الوزراء، الذي دوخ الانكليز والبلد بتقلبات طقسه السياسي، قد سمى إبنته - التي شهدت موتها وهي بكامل وقارها العنوسي في أحد دور المسنين في منتصف تسعينيات القرن العشرين - تيمنا بإسمها هي من دون باقي نساء العالمين والأرستقراطيين.

يوم دخلت على العائلة وهي تسحب، إبن الفلاح، الملازم عبد الكريم رستم، لتطلب من والدها أن يزوجها إياه، كان الباشا نوري السعيد مدعوا للغداء على مائدة العائلة وهو يعاني وجع مفارقة الوزارة.. أغمي على سؤدد خانم وأخرست المفاجأة وزير العدلية مكي الحافظ فنظر إلى

الباشا مستعينا به ليخرجه من تلك الورطة بدهائه السياسي.. تنحنح الباشا محرجا ووضع السدارة على رأسه، ليمنح نفسه هيبة الوزارة التي فقدها من اسبوع، ووجه كلامه للملازم الشاب ((أنسيت نفسك لتنظر إلى بنات أسيادك ياولد؟ أنت مجرد فزاعة صنعتها أنا بيدي لإخافة شيوخ العشائر ممن نسوا أنفسهم وصدقوا أنهم باشوات)). قهقهت الخانم الصغيرة ساخرة بكل وقاحة وقالت موجهة كلامها للباشا: ((من يدري يا باشا، ربما أمثال هذه الفزاعة هم من سيطوحون بسدارة الباشوية عن رأسك لتعيده ألى الطين)) وكانت أول نبوءاتها الإشراقية في عالم السياسة.

عصر ذلك اليوم، وبعد أن إستعادت سؤدد خانم وقارها الأرستقراطي، إستدعت سعاد إلى غرفة نومها لتلقي عليها محاضرة حول أصل العائلة ومكانتها الإجتماعية ومعنى أن تتزوج بنت باشا رسمي، بفرمان سلطاني، ووزير عدلية من إبن فلاح... قاطعتها سعاد بأدبها الأرستقراطي لتقول: ((صدقيني ياربة الصون والعفاف إني أعرف كل هذا، ولكن كل ما في الأمر هو إني غير عماتي وخالاتي وشقيقاتي، لن يكفيني إصبع خادمة بلهاء تداعب لي جمرة شبقي وهي تجز لي شعر عانتي لأتخلص من غصات جسدي.. أنا بحاجة لوتد من خشب الصندل يشبحني على ظهر السرير كشاة مسلوخة دون ذبح))!

لم يكن عبدالكريم رستم أكثر من شاب مفتون بوسامته وعسكريا متورما ترتديه البزة العسكرية من رأسه إلى قعر

ضحالته الطبقية، ومزهوا بذرقيَ الحمام على كتفيه، كما كانت تصف نجمتي الرتبة العسكرية سعاد خانم . إكتشفت هذا فور إقتحامه لحجب أنوثتها وتركه لها مشبوحة من ياقة حسرتها دون أمل.

نهضت من فورها إلى خزينها الأرستقراطي لتستخرج أقسى أدواته مصممة على إعادة تربية هذا القروي قبل تثقيفه؛ وفي أقل من شهر، إن لم يعاكسها قدر طائش.

كان بحاجة لبعض المعارف وللكثير من فعل التحضر، ولخطط محكمة لنفض العفونة عن أهداب عينيه، وهذا ما لن يتحقق إلا بنزع رتبته العسكرية وإجباره على دخول كلية الحقوق ومصاحبة علية القوم.. لم يكن الأمر سهلا لا على سعاد ولا على الضابط الطائش، لأنه كان قد زرع وجع الأمومة في أحشائها ولم يمض... لأنه لم يكن يعرف إلى أين يمضي وبحاجة إلى قياد امرأة... وكان على سعاد أن تحتمل عبء نفض الغبار عن كامل شخصه، وليس عن تاريخه الشخصي وحسب.

كان الدرس الأول أن يعتقل في شرخ حسرته، أو أن يقضي فرضية عسكرية على طريقة صدام حسين، كما رددت في تلك اللحظة وهي أمام النافذة، والحل الأول كان هو الأنسب لحالته: أن تقتله حسرة النظر إلى عريها لمدة مئة ليلة وليلة، وهي تستثير جسدها وإنفلاتاته أمام عينيه وبتصميم حجر. حدث هذا، قالت وهي تضبط تدفق ذاكرتها على وقع أنفاسها، قبل أن يحل زمن السكوت والجلوس في البيوت -

بسبب دخول أمثال زوجها سلك الجيش واتخاذهم له وسيلة للوصول إلى السلطة – بزمن طويل. ورغم ركوع عبد الكريم رستم واعلانه لتوبته في الليلة الثانية فقط ، إلا أنها أصرت على إتمام العقوبة حتى آخر يوم من أجل أن ترفع رصيد مؤهلاته من عضو جنسي إلى أمير مرسوم بعناية على ورق لعبها. لم تكن مهمة تحويل عبد الكريم رستم، من ديك مزابل (مهمته الصياح بأعلى صوته في وجه الفراغ وتلقيح بيض دجاجته)، إلى أمير بالمهمة السهلة، لا لعجز بقدرات سعاد خانم ولا لخطأ بقراءتها لمطلع نجمه، بل لأنه كان مصابا بعمى الجراء المحدق: أن يفسد جميع خطط أقداره. فقد حرن في المرحلة الأخيرة لكلية الحقوق ولم يتم دراستها بحجة أنها ستسقط شعر رأسه، وفقا لنبوءة شقيقته العانس قوام، مما أجبرها على التوسط لدى الباشا نوري السعيد لمنحه الشهادة بتقدير امتياز، تقديرا لجهده في الإشراف على بحوث الطلبة المتخرجين ذلك العام. كما أنه رفض العودة إلى مقاعد الدرس في الكلية العسكرية لنيل شهادة أركان الحرب لأن شقيقته رفيدة رأت بثاقب وعيها الكشفي، ان عودته إلى مقاعد الدرس بعد أن صار أبا سيقتن سرعة بديهته في إصدار أوامر دك التحصينات الدفاعية في الحروب البحرية ، ما أجبر وزير الدفاع على منحه الشهادة تقديرا لإستبساله في حرب كانت ستقع لولا تدخل العناية الإلهية في آخر لحظة. كما أن كل اغراءات وترهيبات سعاد لم تفلح في إقناعه للحصول على شهادة

الماجستير في الحقوق، بدعوى أن ذلك سيصيبه بركود التخمين لبواطن الأمور

، كما رأت شقيقته وزيرة، الأمر الذي اضطر وزير المعارف لمنحه الشهادة تقديرا لجهده العلمي.

ولتضع حدا لإزدواجية هذا القدر المكابر، طلبت سعاد خانم من متصرف مدينة البصرة أن يتدبر زيجات سريعة لشقيقات زوجها، ومن ملقحي نخيل بساتينه حصرا.. كما انها طلبت من رئيس الديوان الملكي ، رستم حيدر، أن يصدر أمره إلى أمين السجل المدني العام لتغيير أسمائهن، لما تشكله من تطاول على هيبة أسماء الأميرات وبنات السادة الوزراء.

لم يطل الوقت بعبد الكريم رستم ليتحول إلى خبير في رسم وإبتداع خرائط الأنواء الطقسية لحاجات جسد سعاد.. كانت تتفاخر بين شقيقتيها بأنها قادته إلى إكتشاف متع الغوص في حرائق صرح خطاياها بإيصالها إلى ذرى مبيتة من اللذة عن طريق حروب مناوشات متبادلة.. تلك الحروب التي أرخت لأغلب هزائمها – تحت ضغط شبقها المنفلت - في ساحة ذلك الضابط الوسيم، ووحدها التي كانت تجبرها على غض الطرف عن نكوصاته الطائشة إلى منبته القروي بحديثه في الأوساط الراقية عن وصفات اجتماعية منزوعة السلاح لعلاج الأزمات السياسية والاقتصادية، وهي لم تكن تزيد بحكمتها – بتوصيف شقيقها حافظ – على علاج فساد الساسة بالحجامة.

مثلما أوقف حملها المبكر الكثير من خطط جسدها في إكتشاف موازين زحفه الإيروسية، فإنه أفسد بولادة ولدها البكر، وهو مازال في شهر حمله السابع، بعض عطفات فتوحه الإشراقية. فقد جاءت تلك الأحداث، المليئة بأوجاع تفتقر للحس الرواقي، على حساب نوبات شبقها التي كانت تعصف بها كحروب ملكية لا تقبل بغير منطق الترجيح الاعتباري.. لذا فإنها سرعان ما قبلت بعرض أمها وشقيقتيها بأخذ أمر تربية الطفل على عاتقهن لتتفرغ هي لتربية أبوه أولا، ومن أجل أن ينشأ هو وفق معايير المسطرة الأرستقراطية ثانيا؛ الأمر الذي وفر لها الوقت لعودة الإنفلات في دوامات جسدها والارتكاس في طقوس وثنيته.

حراكات سياسية صرف هي التي قادتها لإكتشاف جزر أخرى للذة، عبر كيمياء الشهوة المضمرة للجسد المماثل وتحت ضغط مدافع الحروب القومية التي قادت زوجها إلى ساحات نزاع غير مفهومة، بالنسبة لها، لأنها تعدت ساحة السرير، بنشاطها البيزنطي، لتقودها إلى مساحات جسدية ظلت مؤجلة إلى ساعة لقائها بشغف خانم في احدى نزهاتها المسائية في شارع الأميرات، قلب حي المنصور الأرستقراطي في بغداد. كانت إبنة وحيدة لوزير مالية لم تسمع بإسمه من قبل، لأنه لم يكن صديقا لوالدها، وتنزل ضيفة على أميرات البلاط الملكي بسبب سفر والديها في رحلة علاج إلى لندن. سحرتها عيناها الخضراوان

الضاجتان بشهوات جسدية مغلقة، ما أربك إيقاع حركة ساقيّ سعاد ودفع كعب حذائها الأيمن للانحراف عن ايقاع نقره إلى مطب هارموني عالي التردد أدى إلى كسر عنق الكعب وإلتواء كاحلها . ركضت شغف لاحتضانها وحمايتها من السقوط بكامل شغفها الحسي وأراحتها على كتفها لحين وصول سيارة البلاط لتعيدها إلى قصرها، مخلفة ورائها همس الأميرات بأوجاع عنوستهن. عندما مددت شغف سعاد خانم على سريرها وجذبت طرف فستانها لترى امتدادات موضع الألم، أدهشتها مرمرية ساقها المبرومة ودقة رسم انحناءاتها.. وبعد دقائق من الدلك الرقيق بزيت الزيتون، تحججت بحماية الفستان من أثر الزيت لتكشف عن مساحات أعمق من الشغف الجدلي لساقيّ سعاد.. ولدقة عزف أنامل شغف على شفق جسدها، تحججت سعاد خانم بتصاعد موجات الألم إلى مغاور أكثر عمقا.. وعندما انهارت شغف وخرت لتطبع قبلة على نصاعة الفخذ ولتلعق حرقة بضاضته بلسانها، تسلل كف سعاد ليخلل أنامله الملكية في جفل شعرها وهي تهمس((أرجوك، لا تقولي إنك تجزين ذلك الشعر وتحرمي صليبك من فداحة إغوائه))، فأجابتها وهي تفتح حوار لسانها مع تفاصيلها الندية عبر مظلة كستنائية مشرئبة ((وهل تريني جاحدة بجسدي إلى هذا الحد))؟ فردت سعاد بوله يندية الدمع ((بل أنت أكثر فروسية من أن تطعني براءة الأشياء))... وكانت حربهما الوطنية الأولى المناهضة للتمييز ضد طفولة الجسد وبداهة متطلباته. وبعد نهاية الحملة الثانية لفتح مباهج قصر

الحمراء، المنكل به تاريخيا، سألتها سعاد بوله صوفي ((أين أمضيت حقب شغفك الماضية))؟ فأجابتها وهي تؤدي طقوس شكرها لمراح صليبها ((معتقلة في إحدى زرائب العفة الاجتماعية)). ولكن هذا لم يجرها للخلط بين ألوان الشغف أو الإذعان التام لتقلبات صروفها الميتافيزيقية؛ بل أحكمت لها سلسلة ن التدخلات التوقيرية، كان من بينها مواصلة الإشراف على تربية وليدها الفاقع الترهل بأن إختارت له إسما يناسب حلمها الملكي (غازي، تيمنا باسم جلالة ملك البلاد)، وبأن اقتسمت رعايته الماورائية مع العناية الالهية بالتساوي.. كما إنها إستغلت الهدنات التي فصلت بين حروبها الشغفية لتستنير برأي شغف فيما يشكل عليها من أساليب حماية غازي من إرث أبيه الذي لا تحكمه نواظم قطع وتصريف حديثة. ومن جهتها تبرعت شغف بتلقين غازي فن الإصغاء لصوت واحد، إستنادا إلى نظرية التوريط المضاد لتوريطات البداهة.. ولكن كل تلك الاحتياطات ذهبت سدى أمام حالة التوزع الديالكتيكي لبنية النوازع التي ولد بها غازي.. ففي الثانية عشر من عمره، وفي ظهيرة يوم قائظ، طلب خادمة والدته لتشرح له سر التقلبات الطقسية التي كانت تعصف بعالم ما تحت سرواله الداخلي وتسبب له إنتفاضات مفصلية مضنية لا يهتدي إلى طرق إسكاتها؛ وعندما لم يجدها في المطبخ فتح باب غرفتها ليجدها في نفس حالة التوق التي تسبب له الآلام اللذيذة التي عجز عن تصنيفها: مصلوبة بعريها البدائي أمام المرآة ويداها مشغولتان بمعالجة حالة نهوض طارئة

في منابع جنونها الخالد.. وإذا كان الخجل قد منعه من التعامل مع حالة خالته في مصادفة إنزياحاته الأولى، فإن سلطة السيادة الأرستقراطية على الخادمة أتاحت له حرية التخبط في مطبات خلفت بقع دم غير مفهومة وإرتخاءات تشويقية تحتاج لشروح انسكلوبيدية لا تمل كدروس المدرسة التي كان يلقيها رجال دين بثياب إستعمارية المظهر... وسجلت كأول حالة إغتصاب في دورة تاريخه الإشتغالي. تبعت تلك الظهيرة حالات تسلل غير مفهومة – بالنسبة لسعاد خانم – إلى غرفة الخادمة وأدت، بعد بضعة أشهر إلى انتفاخ بطن الخادمة، الأمر الذي فكر معه عبد الكريم رستم في حسم الأمر بطلقة من مسدسه العسكري، والتي رفض إطلاقها طوال الشهور التي إستغرقتها حرب الجنرالات القومية، تلك الحرب التي دفعت خسارتها سعاد خانم للشك بأن يكون أمثال زوجها قد خاضوها بمسدساتهم العضوية بدل مسدساتهم الحربية. الإطلاقة التي أخطأت هدفها تلك، هي التي إفتتحت تاريخ حروب العائلة الخاسرة، كما علقت حينها سعاد خانم، وهي التي ستنهي بعد قليل ذلك التاريخ، كما رددت وهي تنتظر لحظة إكتمال دورته في جسدها في وقفتها تلك أمام النافذة.. ذلك التاريخ الذي صنفته تحت يافطة الفصل الخامس للسنة، لتشابك خطوطه بسرابية أقدار تائهة وضبابية أحلام فادحة وتقلبات مصائر ضالة. والآن تتذكر، وهي تحت ضغط تلك المحطات الفاقعة من تاريخ العائلة، أن هذا ما كانت قد أكدته (المس جين) – قريبة المس بيل، سكرتيرة المندوب البريطاني – في

قراءتها التنبؤية لمستقبل سعاد الإستوائي المناخ. قصدت المس جين بغداد للبحث عن وصية المس بيل التي تظن أنها دفنت مع وجعها في قبرها المقاوم لصدأ التأريخ في المقبرة البريطانية التي تتوسط الشطر الشرقي من بغداد. زارت المس جين قصر الباشا وهي تجر أعباء نبوءات لها صليل دم غائر في فجاجة التصاريف. طريقتها في الكشف تنطوي على بعض العادات التي لم تألفها قصور الباشوات.. فجعبة نبوءاتها لا تتفتق عن تياراتها البحرية إلا بعد أن تخلع حذائها وتدور على مريديها بنصف إغماضة لتضع سبابتها اليمنى على أنف كل من يطلب منها التسلل إلى مستودع أسراره المشفرة.. تنبأت لمكي باشا بالعودة إلى وزارته في حكومة نوري سعيد الخامسة وبإنزلاق فقري لظهر سؤدد خانم ، وبموت أنيق لشقيقة سعاد الوسطى وهي في ربيع عنوستها..، وعندما قربت سبابتها من أنف سعاد أطلقت ضحكة غامزة وقالت ((أوه! أنت تمورين شغفا يا قطتي الجميلة.. اطمئني، فأنت ستدفنين أغلب أشواطه قبل أن تعبر لك المحيط إطلاقة في نفس اللحظة التي تتمين فيها عامك المئة على الطرف الشرقي لمزبلة الفجائع اليومية)).. وفي لحظة إستدارتها للخروج دخل الصبي غازي فعادت المس جين إلى سعاد لتقول ((أرسلي هذا الصبي إلى مدرسة هارو ليتعلم هناك كلمة يختم بها غزوته الأخيرة))، فسألتها سعاد متلعثمة ((هو ليس ملكا إذن))؟ فردت المس جين بصبر نبي ((هو مجرد صياد أسماء يا سيدتي الجميلة)) فرددت سعاد لنفسها ((كيف لم أر هذا))؟

فردت المس جين بنفس الصبر ((لأن ليس فيه من اللغة شيء... هو مجرد كتلة من الفعل)). مسرح غزوة غازي الثانية كان الإستعراض العسكري الذي أقيم ذلك العام في ذكرى إعتلاء الملك للعرش.. وجريا على عادة ضباط الجيش في اصطحاب أبناءهم الذكور في مثل تلك المناسبات، إصطحب عبدالكريم رستم بكره لإحتفال ذلك العام..، وفي اللحظة التي وقف فيها جلالة الملك ليحيي فصيل الخيالة في حرسه الملكي، سحب غازي مسدس والده من قرابه وعالج قبضته في كفه الصغيرة، ليحكم الإمساك به، دوت إطلاقة طائشة من فوهته لتفرض الذهول والصمت على الأبهة الملكية لذلك الإحتفال، وأيضا على رؤوس الوزراء وكبار قادة الجيش والحرس الملكي التي مرت بها وهي تبحث عن جبين جندي من صنف المدفعية، ضاق القدر بتصفية فاتورة حساباته بالطرق السلمية. لم ينز جبين الشاب، الإنشطاري التفكير، غير كلمات مبهمة الحواف، ورغم لغط وحراك الحرس الملكي، إلا أنها أصرت على إنسيابها الإشكالي إلى أن هدت وزير الدفاع إلى المكان المقدر لنصب الجندي المجهول، والذي هدد - تأخر عملية الكشف عنه - البلاد بحرب وطنية كاملة التفاصيل. بعد اسبوع من ذلك التأريخ، وهو اليوم الذي استقبلت فيه سعاد خانم مولودها الثاني (وكان بنتا أسمتها شغف، تيمنا بإسم حبيبتها)، شحن عبدالكريم رستم بكره إلى لندن ، ليس تحقيقا لنبوءة المس جين، بل على أمل أن توجه مدرسة هارو بوصلة غزواته بإتجاه تاريخ وذاكرة لم يألف

شفرتهما بعد.

ولدت شغف بجمال من ذلك النوع الذي يزلزل بداهة الأشياء ويتركها معلقة في فراغات منسية.. ولم تكن هذه ميزتها الوحيدة، بل كانت تنطوي على حس صقيعي بحركة الأشياء من حولها وتقلبات وجوه الساسة وجهات تلقيهم لإجتراحات الأحداث المغتصبة من حتمية التاريخ؛ ولهذا إتهمها جدها الوزير، مكي الحافظ، بالشيوعية رغم انها لم تكن قد بلغت العاشرة بعد، ولم تسمع لا بماركس ولا لينين ولا حتى بكتاب رأس المال.

تلك الشغف كانت مرسومة الدواخل بطريقة لتكون جميع آرائها وإفاضاتها مقلوبة على رأسها، وبطريقة الإزاحة العامودية للأشياء.. وقد عانت كثيرا في كيفية إقناع من حولها – وأولهم جدها الباشا مكي الحافظ – في أن الإنقلاب الذي يرونه في منطقها مرده خلل متأصل في قانون الأشياء لا في طريقة تلقيها للأشياء.. ولكنها لم تيأس من إقناعهم، وداومت على البحث عن الطريقة المثلى لإقناعهم إلى أن وجدت ضالتها في أحد دروس التأريخ التي تشرح كيفية وصول الملك فيصل بن الحسين إلى عرش العراق. يومها عادت من المدرسة وهي تقبض على صولجان الحقيقة كعصا تبختر لتقول لجدها الباشا ((هل من منطق الأشياء أن تنفق العناية الإلهية خمسة أعوام كاملة من وقتها الثمين في البحث عن عرش يليق بمؤخرة فيصل بن الحسين، لا لشيء سوى لأنه ولد بمؤخرة ملكية))؟ وأستغلت الوقت

الذي أخرست فيه الدهشة جدها وجدتها وأمها لتشرح لهم رؤيتها للأمر بقولها ((بماذا تفسرون إذن خروج الرجل من بلاده، بهدي القوة التي رأت أن لا عرش له في نجد، لتقوده إلى سوريا، التي إتضح لها بعد عامين من المماحكات البيزنطية أن عرشها لم يكن على مقاس جلالته، فتقوده في رحلة ترفيهية بين دول أوربا وبحارها، إلى أن تكتشف أن عرش العراق هو المفصل على مقاساته المخلدة تحت أضلاع التأريخ.. أي منطق هذا بربكم؟ كأن العناية الإلهية لا شغل لها في هذا العالم أهم من تدبر شؤون شخص ولد ملكا ويجب أن يموت ملكا! هل يستطيع أحد أن يخبرني وفق أي منطق صُرف هذا الأمر))؟ عندها أفاق الباشا من دهشته ليصرخ ((إبعدوا هذه الشيوعية عن مملكتي قبل أن تطوح بكرسي الوزارة من تحتي)).. وبعد أن إستعاد هدوءه سألته سعاد عن سبب إتهامه لها بالشيوعية فأجابها بحقد لاهوتي ((لأنها تخلط أوراق اللعبة بطريقة تُعجز تصاريف العناية الإلهية)). هذه الإرتجاجة وبالتعاون مع مجموعة من الإرتكاسات التي دبرها شيطان، يجهل حدود صلاحياته الجغرافية، هي التي أعادت عبد الكريم رستم عن غيه السياسي، وخاصة بعد إتضاح معالم الخارطة التدويرية لإنقلاب رشيد عالي الكيلاني، الذي كانت سعاد خانم قد تنبأت به وهي تفيق من غيبوبة إرتخائها بين ذراعيّ شغف على شوق لروائح ومضاربات وتد عبدالكريم الصندلي، وحنين مضني لإختراقاته الباسلة..، غطت فترة إنطفائهما مرحلتي إنجابها لصبي أسمته مكي، تخليدا لإسم أبيها،

وبنت أسمتها سؤدد، تخليدا لإسم أمها ؛ ولم تكن علاقتهما خلال تلك الفترة لتزيد على علاقة زوج بزوجته بثوب ميكانيكي، دون جمر وبلا حرائق، الأمر الذي دفع بعبدالكريم رستم للالتحاق بليل شقيقها رأفت الذي لم يقده إلا إلى ألوان الدرجة الثانية، بالقياس إلى جلال سعاد خانم الطبقي. بعد نهاية الجولة الثانية لحروب تلك الليلة، تنبهت سعاد لرائحة عطور ومساحيق تجميل مبتذلة تفوح من بين طبقات نتانة عبدالكريم الطبقية، إلا أن عبد الكريم رفض الإعتراف بخيبة ترديه فأحراق نصف دمه العسكري في مزبلة قصية عن أنف الذاكرة والأحلام ((من أجل تهذيب طبقية ذائقته))..
أذهله نفاذ بصيرتها، فأعترف لها بخطيئته كصبي ضال، ولكنه أصر على تحميل غيابها الذاتي مسؤولية ماعاناه وأجبره على إتباع وسوسات شقيقها رأفت إلى باحة تلك الحمى.. ولكنها، ولأسباب تتعلق بحالتها الشخصية هي، حنطت جثة تلك المرارة في صيف ذاكرتها بقولها ((أنا أعرف مدى أناقة ذائقة رأفت)). وبعد مسافة ربع قرن، ملبدة بإنقلابات العسكر، جاءته بنسخة من كتاب فنانات بغداد وطلبت منه أن يحدد على خارطته صفحة نضاله الميكانيكي فأكتفى بالإشارة إلى صورة راقصة بركانية الأنوثة وقال ((هذه عشيقة رأفت))، وعندما سألته بتحد بيروقراطي ((وأنت))؟ أجاب بإستسلام جندي أقعده الجبن ((أنا في حظيرتك أنت فقط)). أرخت سعاد خانم لمرحلة طيش عبدالكريم ببداية حملها بطفلها الرابع، حافظ، لا بيوم فيضان بغداد الذي رافق فيضانها الإيروسي تجاه شاب،

فرغ لتوه من دراسة هندسة مكافحة فيضانات الأنهار عالية الإنفلات؛ إلا أن شقيقها رأفت قدمه للعائلة بصفته عينا من أعيان الموصل وأحد كتاب أعمدة الصحف المتخصصة في فضح عملاء بريطانيا.. أما سعاد خانم فقد إستقبلته وقبلته بصفته عينا متخصصة في إكتشاف فيضانات ما بعد ذهاب الأطفال إلى أسرتهم وإحكام إغلاق باب غرفة النوم. وبما إنه كان من المستحيل عليها إستقباله في بيتها، بسبب وجود شغف الثانية، بما تتوفر عليه من حس أنثوي كاشف لمثل هذه الأسفار، فقد أضطرت لمرافقته إلى قصره ثلاث مرات، تلبية لرغبة عصفت بها تحت ضغط وسامته التي لا ترد وسحر نظرته التي إنتهكت أسرارها أعلى وأسفل الحجاب الحاجز. في المرة الأولى أخذها دهش وسامته وإتساق تفاصيل جسده، رغم ثقل حركته وغروره وإستباحة جملة من الإفتراضات الفكتورية لكيمياء حسه المدني والإيروسي. وفي المرة الثانية إكتشفت إنه بلا أحزان تصقل وداعته، الأمر الذي يجعله يومئ لقوافل إيابه قبل أن يجتاز معابر تحرره. أما في المرة الثالثة فأخبرته إنه بحاجة لماركس جديد يخلصه من رثاثة إحتباساته المزمنة. عند هذه العتبة فرضت حصارا مؤدلجا حول جدار غواياتها، ولكنها بدل أن تدعمه بالنواقيس الإكليروسية، حصنته بحراكات فلسفية، بسبب رفضها الإقليدي لتسليعية قانون الثواب والعقاب التي يعتمدها رجال الكهنوت لدعم سلطاتهم على رعاياهم. هذا التوزع الدراماتيكي في بنية نوازعها أورثته لإبنتها سؤدد، وقد قاومت عظام مومياءه كل

محاولات الدفن، بما فيها تلك التي جاءت بقرارات قدرية في حقب الرفاه الاجتماعي، وسياسية في الحقب التي إستولى فيها العسكر على خيوط لعبة المصائر البشرية..، تلك الحقب التي طوحت بأحفادها وأبناء أحفادها في مهاوي لم تجد لها تفسيرا لا في كتاب الأمير ولا في نبوءات نوستر أداموس ولا حتى في كتاب شمس المعارف الكبرى، الأمر الذي دفعها للاعتقاد أن العناية الإلهية قد رفعت يدها عن حراك المقادير، ظنا منها بوصول البشرية إلى مرحلة النضج، بعد أن أدهشتها سلسلة الإختراعات الثورية، التي سجلها تاريخ الانسان، من المطبعة الحجرية إلى الهاتف الجوال. حدث ذلك وهي تبحث عن مصير حفيدها رستم في سجل تقاطعات الحرب الإيرانية العراقية.. ففي صبيحة يوم ماطر من شتاء عام ١٩٨٥ سيق ذلك الشاب لإداء خدمته الإلزامية وليضيع ذكره في سجلات وزارة الدفاع ، بعد عشرة أيام فقط، في ضبابية من الأقوال والظنون الشخصية والرسمية والقدرية، إلى صيف عام ٢٠٠٣ عندما عاد إلى قصر جدته متوكئا على هلام ذاكرة خرمت بياضاتها ظلمة ١٩ عاما من الحبس الإنفرادي. الغريب أن ذلك الهلام لم يهده إلا إلى سلسلة من الجدالات التفسيرية لإختلاجات تأريخ العائلة والتي أصدرها، بعد عامين من التدوين المحموم، في كتاب من ثلاثة مجلدات تحت عنوان (تاريخ إكليروسي لشجرة الحروف الناكصة)؛ وبسبب من نشوب حريق ثقافي ماضوي في ذاكرة ذلك العام، أضطر للإحتفاظ بجميع نسخ الكتاب في احدى غرف بيت جدته المهملة دون

أسف. يومها كانت سعاد خانم قد تجاوزت عامها التسعين بعتبتين وأكتشفت أنها بحاجة لوقفة تأمل لحساب المتبقي من أقدارها المؤجلة... وقد وجدت الطريق إلى ذلك في إشراقات تلك المذكرات القليلة. لم يكن الكتاب مصنفا بإتجاه تجنيسي محدد، بل كان خليطا جدليا يبحث عن وجه لفيزياء نكوصات العائلة التوفيقية مع الذات. ومع نهاية كل فصل من فصول الكتاب كانت تحدد حجم التاريخ الذي أسقطته ثقوب الزحام من رصيدها الشخصي..، وفي كل مرة كانت تردد العبارة ذاتها ((كان عليّ أن أرسم ملامح هذه الوجهة وتضاريسها بعناية أكبر)). ومع نهاية آخر فصل في الكتاب، في أول ليل فجرها هذا، وجدت أن ما غافل أصابعها من ذلك التأريخ يفوق بمناوراته عدد إشتغالاته الحفرية في جسد أيامها. والآن، في هذه اللحظة بالذات، بدا لها الأمر كحرب يقينية يقودها حلم منسي..، وهذا ما ذكرها بسولافة، حفيدة إبنها الثالث وآخر من دفنت من أفراد عائلتها، والتي أوصتها بدفنها في أحد أطراف المقبرة الملكية إن توقفت حرب الإحتلال الجديد، لا لشيء سوى لخلو جهامة تلك الحقبة من الدماء. يومها قهقهت سعاد خانم ساخرة وهي تقول ((وهل تنتهي حرب احتلال للعراق إلا بحرب احتلال جديد))؟ سولافة تلك أنفقت أغلب أوقات فراغها في فك طلاسم مذكرات رستم الذي لم يتعد تاريخه الشخصي محيط مستودعات الأسر وصناديق حبسه الانفرادي ومذكرات موت جدها حافظ الأول ؛ وكانت كلما فكت رموز طبقة منها قرأتها على جدتها سعاد، التي كانت

تكرر التعليق ذاته في كل مرة ((ذلك الولد طارد قدرا إستعصت تباريحه على النضج)). ومثلما تساءلت في وقفتها تلك عن الجهة التي حملتها عبء هذا العمر كله، تساءلت عن سر إنقسامها على نفسها وإلتواء نوازعها في مهاو لا تفتر.. كانت على قناعة تامة بأن لم يكن لها خيار من توزعها في صدوع تلك المهاوي وبأنها كانت شأنا شخصيا خالصا وليس لأحد أن يسأل عنه أو أن يصنفه، حتى لو كان إله ما وراء الشمس، ببساطة لأنه إن عد إنحرافا فهو إنحراف طبيعي، كإنحراف محور دوران الأرض: يقع في حيثيات نظام التشغيل الأساسي للكون. هكذا بررت لتشظياتها في محراب الرغائب وهي تدلف إلى سطوة الموت بإندفاع هو أقرب للإختبار منه للإستسلام. شيء واحد فقط الذي أقلقها من مخلفات تلك الرغائب في لحظتها تلك: صور عريها وفتنتها بجسدها، التي تبادلت إقتناصاتها مع عشيقتها شغف، كل لمباهج الأخرى، إذ كن يمارسن طقوس وثنية العودة بالجسد إلى مراحات طفولته التي سبقت عصاب الأكليروس ضده.. فكرت للحظة في النكوص لتمزيقها ثم عدلت عن الفكرة وهي تقول: ((بل لتبق حيث هي كإقتراح آخر.. لماذا أهرب في لحظتي هذه كغيري؟ هل يعقل أن أهرب وأنا في رحيلي كأي جبان ممن رأيتهم يتهاون بوضاعة أمام مجهولية جهة الموت؟ لن يكون رحيلي إنهزاميا.. ولن أضع رأسي حيث وضع الآخرون.. سأموت بكامل عنادي كما عشت: قدم هنا والثانية هناك حيث ينقطع نظري)). فجأة تذكرت أن تأخذ

كتاب مذكرا موت ولدها حافظ لحفيدتها سولافة التي نسته وهي في عجلة لملمة قصاصات ذاكرتها ساعة رحيلها.. إلا أنها عدلت عن الفكرة، فإن كان أمام سولافة متسع فلا بد أن يكون أمامها نفس المتسع، فماذا ستأخذ هي معها لذلك المتسع.. ((فأنا الأخرى لم أنفض يدي من الأمر لحد الآن)). دارت حول نفسها متفحصة ذاكرتها دون أمل فقررت إنها ليست بحاجة لغير موتها الذهبي وبكامل أناقته.. فذهبت إلى خزانة ملابسها لترتدي فستانا ومعطفا وبيريه تعود إلى خمسينيات القرن الماضي، إشترتها في آخر زيارة لها للندن ليومها هذا، من نفس المتجر الذي تشتري منه ألإليزابث، ملكة بريطانيا، لوازم أناقتها الملكية. وبعد أن زررت المعطف وضبطت وضع البيريه على رأسها، إتكأت على عكازها الأبنوسي لتتأكد من أن قوام موتها في تمامه فتشققت المرآة لتحيل صورتها إلى نثار من الخيوط الرمادية ولتذكرها أنه لن يكون في تمام قوامه لأنه لن يكون في بيتها وعلى سريرها، كديدن الملوك، بل إنها ستمشي إليه مئة متر كاملة وإنها ربما ستسقط في بقعة موحلة، بسبب إهمال الجهاز البلدي، وعندها سيتساوى موتها بموت الباشا نوري السعيد وموت زوجها عبد الكريم رستم .. ولكن لم يكن أمامها خيار - وكأبيها الباشا - من الموت على حافة العزلة، وكما تنبأت المس جين: دون ضجة إنفعالات. الفارق الوحيد بين الموتين هو أن موت والدها الوزير جاء مكللا برفض ترفع لا يليق إلا بأولاد الذوات، عندما عرض عليه صدام حسين (القروي البائس،

كما كان يدعوه) تبوء منصب وزير العدل، زهدا منه بمنصب يمن به من لا يفرق بين شعر الماعز وفرو الثعلب.. وبعد عودته من تلك المقابلة سقط منكفئا على طين حديقة القصر مكللا بنصر إستنكافه الأرستقراطي. سجلت المعارضة الحادث كجريمة إغتيال سياسي، في حين إعتبرها مجلس العائلة محاولة لتصفية آخر مرتكزات المجد الإجتماعي للأرستقراطية العراقية. يومها لم تكن سعاد، حفيدتها وأم حفيدة إبنها الثالث حافظ، قد بلغت مرحلة نضج حسها الكشفي في تتبع مواقع النجوم، إلا أنها إستطاعت تلمس منزلق قدر مفتعل في تلافيف لوح عناده الشخصي. في ذلك المنعطف من فيض ذاكرتها، وللمرة الأولى لمرحلة زحام المصادفات اللاثورية في حياة العائلة، تمنت طواف سعاد الطيفي، الذي يقلب صور الحالات، على أمل أن تحرف لها حالة موتها لصورة توائم تراكمية تاريخها على الأقل. سعاد تلك ولدت وتبددت على حافة العزلة هي الأخرى.. حدث ذلك بعد ولادة شغف الثالثة بعقدين كاملين، إلا أن الإثنتان كانتا تعرفان بعضهما إلى حد إنهما كانتا تصرّفان شأنيهما بذاكرة واحدة، وكانت كل منهما تعتمد على الثانية في ترميم غيابات صاحبتها عن وقائع الحوادث ودورة الأشياء، ومنذ ما قبل ولادة سعاد واصطدامها بحقائق الواقع وانكفائها ذلك الانكفاء الذي عزلها عما حولها بنفس ثوري بغيض. سعاد التي ملت حضورهما الدائم في هامش دورة الأسرة وتعثرها المستمر بهوامشهما الخاصة، تمنت في لحظاتها تلك ظهورهما، وكأنها تبحث

عمن يولها إلى جهة تجهل طريقها. لم تظهر أي منهما؛ فأستسلمت لفكرة أن الموت، كالذهاب إلى الحمام، زمن يصنع خصوصيته بعدم إحتمال الرفقة، رغم ما يكتنفه من هدر. مع أول خيوط الشمس إتضحت لها ملامح الضجة: لم تكن أكثر من مواجهة بين فريقين، ممن خلفهم ذلك القروي البائس صدام حسين.. حز في نفسها أن يخذلها القدر بهذه الطريقة غير اللائقة بأن يحرمها من وقار موتها. عندما سمعت سقوط شظايا مرآة طاولة زينتها، تأكدت من دخول كيانها مدى قبضة الموت، وعندها فقدت إحساسها بما يحيطها وطفت على عالم الموجودات، وتحولت نزعة الحياة فيها إلى موجة تطلع إستباقي لما انتهى تعلقه بحبال الذاكرة. في تلك الدوامة تذكرت أنها كانت قد وضعت حدا لتاريخ عائلتها بكسرها لأهم أسرار العائلة الأرستقراطية برفضها لتعلم أسرار المحافظة على تاريخ ثروة العائلة وأسباب مجدها الذي توارثته منذ ما يزيد على أربعمئة عام كاملة.

وكغيمة شفيفة إنسلت إلى ندائها متخففة من كل أعباء ذاكرتها، بإستثناء حساب المئة متر التي قادتها إلى لحظة إختراق ذلك الكائن الطقسي لكيانها وتطويحه بكل ما عداه من مستحقات الذاكرة.

*** على مسافة عناد، ولأسباب تتعلق بإختلاف جيناته الطبقية، قضى غازي عامه الأول في مدرسة هارو يراوح على عتبة الدخول، رغم إنهماكه في تجربة جميع مفردات حياته الجديدة، من الصلوات الكنسية إلى تغريبات النسغ البريطاني. كانت صديقته ليز أول من إنتبه لطريقته الملتوية في إفتضاض بكارة حياته الجديدة، لا بسبب إعتزاله لمجايليه من الطلبة العراقيين (وكان في مقدمتهم ولي عهد عرش العراق، فيصل الثاني، إضافة إلى أبناء الوزراء وكبار الأعيان)، بل بسبب إحتقان دورة مشاعره وتصلبها عند منعطف واحد. سحرها جماله الذي ورثه عن أمه، وفداحة نظرته التي كانت تخترق مفاصلها وتعلقها في فضاءات تجهل سمائها. وبالمقابل أدهشته بضاضة جسد ليز ولدانته.. وعندما دعته لقضاء عطلة نهاية اسبوعه السادس في المدرسة، في مزرعة والدها، أدهشه أن تكون أمامه أكثر هشاشة من خادمة أمه.. فبعد أن ذهب أفراد عائلتها كل إلى غرفة نومه، تسللت هي إلى غرفته بقميص نوم أحمر ووقفت أمامه بكامل دهش جسدها لتقول ((مزق هذا القميص كما تمزقني نظرة عينيك الداكنتي الصفرة..

إخترقني بنصفك البدائي أيها البدوي الساحر)). كانت صفة بدوي أقسى إهانة تلقاها في حياته فوجه لها صفعة طرحتها على السرير وعلقت قميص نومها حول رقبتها.. كانت تجربتها الأولى، ولم تكن قد واجهت ألم عري مباشر، ولهذا فإنها صهلت بآهة طويلة عندما واجهها شيئه المنفلت من عقال أغلاله وبكت وهي تحتضن جهامة إختراقه. بعد صيف كامل من التعرق المضني، قام عنها ليتركها مجهولة الهوية بين ثنيات السرير وأول أوراق تاريخ جسدها. وبعد أن استعادت وعيها بالأشياء من حولها قالت له ((كنت على حق بغضبك من وصفي لك بالبداوة، فأنت لم تبلغ مرحلة البداوة بعد، لأنك لم تهتدي إلى شفتيك حتى! كم سيلزمني من الحرائق لأعلمك فن الفروسية؟ يا بني أنت تركب المرأة كحصان سباق لا كمهرة تبختر)). وفي نهاية جولة التعب اللذيذ من حرب تقاسم السلطات على جزر الجسد، إنقلبت على بطنها وقالت له بلهجة راجية ((دثرني بجسدك دون أن تنسى إني يجب أن أكون أميرتك... وأيضا دون أن تتنازل عن حقك في الإمارة)). تمدد فوقها دون أن يفهم مقاصد رجائها فأحسته كلوح جليد لم يهتد إلى إستثمار طقسه الدافئ، فسألته بحنو ((كيف تجد ظهري))؟ فقال ((إنه كلوح مرمر ساخن)) فسألته ((إلا يستحق هذا الدفء قبلة حنو))؟ فغمغم بضجر ((نعم)) فقالت ((عليك إذن أن تتعلم كيف تربت على عنق مهرتك لتشعرها أن ظهرها لأكثر من ركوب السباقات، لأن ليس جميع السباقات تنتهي بالفوز)). ليز علمته الكثير من أخلاق الفروسية وهو لم يتقبل إلا فنون

طراد الأنثى... ولم تكف هي عن طرادات سرابات القروية التي ورثها عن والده، التي لم تفقه سر عدم تمكنه من ترويضها.. وكان هذا أول ما إكتشفته فيه المس جين، بعد عودتها من بغداد وهي محملة بوصايا سعاد خانم للاهتمام بإعادة ترتيب عناصر كيمياء روحه وما ورثه من ثقافة دم عبدالكريم رستم القروي. ضيفته في منزلها الريفي طوال عطلة عامه الدراسي الأول ، وقبل أن تفطمه ليز من ثدي خببها. جين التي تجاوزت عقد أربعينياتها ببضعة عتبات، كانت عقلا (تشرشليا) بإمتياز.. ورغم انها لم تجد في الصبي إبن الخامسة عشر غير حصان تشبية بكامل فتوة فحولته إلا أنها، هي الأخرى، كانت مهرة تحاول اللحاق بأشواطها المتسربة. المس جين كانت تستغل ساعات رياضة المشي، في مناقشة وتحليل أفكارها ورؤاها حول بنية التاريخ الذي كانت ترسم خرائطه سياسات ونستون تشرشل في الشرق الأوسط، والتي كانت تراها ضرورية لتخليص العرب من جهلهم ووضعهم على عتبة المدنية؛ إلا أنها لم تكن توعز ذلك التخلف لأسباب تاريخية وثقافية، كما يرى أغلب الأوربيين، إنما كانت ترجعه لخلل في خامة الإنسان العربي، وليأس مزمن يتلبسه من إشراق آلهته التي قمعته على طول تاريخه الحياتي والحضاري بإوحادية نظرتها إليه كبدوي عصي على تمثل ما يلقى إليه من وحيها. وعلى هذا الأساس لخصت له رؤيتها التي تقوم على نصح العرب بإتخاذ الإلحاد عقيدة لهم، من أجل إنتاج خامة جديدة لهم تتقبل بداهات الأشياء وطعنات الخصوم،

بحكمة وصبر نبي، بدل وقوفهم في منتصف الطريق إلى إله لا يقروه على نصف رؤاه. فسألها هو ((وبماذا سيفيدنا الإلحاد ما دمنا نرفض الإيمان كمبدأ))؟ فردت بحكمة المتروي ((أن تكونوا صادقين مع أنفسكم.، وبرأيي هذا ما يعوزكم وهو أول طريق الإيمان... وإن كان بخروف من صفيح)). الذي كان يشغل غازي، في تلك الرياضات القسرية، هو دفء الزغب الذهبي الذي يغطي ذراعيها، لا برودة أفكارها التي تعيده إلى أتربة الواقع؛ وخاصة عندما يكونان في جلسات الإستراحة وتترك أحد ذراعيها يرتخي بين كفيه وهو يمسد دفء زغبه النابت. في جلسة تعطل فيها صولجان حكمتها، فلت منه حصان ترويه أمام بهاء شعر أبطها الناصع فلعقه بلسانه حتى حرر من حصار شبقها كل قطعان تأوهاتها الشاكية. تلك الليلة، وبعد إطفائها للحرائق الساحلية للقرن الأفريقي، عدلت المس جين مسار رؤى غازي بإتجاه أكثر إنسجاما مع نوبات جسدها وإضطرادات إجتهاداته الإيغالية. فعندما هم بإطفاء الحرائق الجبلية لقرنها الأفريقي بدأت بإهانته ونعتته بالعجز لعدم قدرته على إقتحام حصون أنوثتها وكسر شوكة تبجحاتها.. ولكنه بدل أن يفهم كلامها على إنه دعوة للغزو وإذلال أوهام الدفاعات، عده إهانة لرجولته فلبس بدلته الانكليزية الثقيلة وخرج إلى هواء الفجر الصقيعي وهو يسحب حقيبته المثقلة بعار الإهانة، بدل أن يسحبها من شعرها إلى مائدة السرير بصفتها محضيته المستباحة الأسرار والقياد لفحلها. في الصباح التالي كتبت المس جين لسعاد خانم تطمئنها

على وضعه، رغم تقدمه البطيء في الإنسجام مع أقداره الجديدة.. فكتبت لها سعاد ترجوها أن تساعده في ترويض تلك الأقدار لأنها كانت مشغولة في إستيعاب طيش أقدارها هي. فمع غياب زوجها، بسبب عمله الجديد كحاكم لمحكمة البصرة، وسفر عشيقتها شغف إلى لندن لتوديع روح والدتها إلى سماء البريطانيين، المتجمدة الرحمة، (بسبب عجز أطبائهم عن رد بوصلتها عن تيهها في مسارب الوهم)، بدأت تستشعر، بحسها الأنثوي الذي لا يخطئ، أن إنقلابا فيثاغوريا يهدد قاعدة بيانات رقعة أحلامها.. تصدت سعاد لذلك الإنقلاب بوسائل مبتكرة أخذت تأتيها كإلهام الشعر، وحرصت على تطبيقها بهدي اللحظة.. وبعد قطعها لمراحل مفعمة بصنوف الشهوات، تبينت أن ذلك الإلهام كان يأتيها مع قراءة كل رسالة جديدة تصلها من غربة وأشواق شغف. ولكن، وبسبب نمو إبنتها شغف السريع والمربك، فإن الروح الإقتحامية لذلك الإلهام تعطلت في بعض المراحل. والحقيقة فإن نمو شغف لم يكن سريعا فقط، بل كان مربكا للكثير من القواعد والمألوفات.. فهي ولدت بطريقة الإنسلال الخامد دون أن تسبب لأمها آلام وضع أو نوبات طلق.. كما إنها لم تكن تبكي للإعلان عن حاجاتها، كباقي الأطفال، الأمر الذي عرضها لنسيان الكثير من رضعاتها من قبل أمها والخادمات على حد سواء. وبعد بلوغها الرابعة من عمرها بدأت الإهتمام بكامل شؤونها، من دخول الحمام إلى توليف حركة مواقع نجومها. وكما ورثت عن أمها جمالها، ورثت عنها طاقتها المتمردة في

عملية البناء الذاتي لشخصها، تلك الطاقة التي تقوم على طريقة الإختبار للأشياء، لا لإكتشاف صلاحها من عدمه، وانما للوقوف على درجة تأثيره في تحقيق الحالة المثلى لمعادلة التأريخ؛ وهذا ما قادها إلى رفض النتائج الجاهزة التي توصلت إليها تجارب غيرها؛ وهو أيضا ما أظهرها كفتاة غير متحضرة تعيش على هامش تجاربها الخاصة؛ وهو أيضا ما قادها لخوض حروب مع أقدار لم تكن تحمل مبرراتها، كما كانت تقول لشقيقتها سؤدد. إكتشفت سعاد خانم ذلك بعد دخول شغف المدرسة وتلقيها لأول دروس التاريخ فيها، ما قادها للإعتقاد بمسؤولية التأريخ عن إنحراف طرق تفكير إبنتها، الأمر الذي دفعها للطلب من ساطع الحصري (مدير المعارف العام) حذف مادة التاريخ من مناهج التعليم في كافة مراحله. إستمع الحصري لشكواها بصبر يحسد عليه، وهي تدفع الحجة تلو الحجة لتدلل له على مسؤولية التأريخ عن ذلك الإنحراف. ولكنه، وبمنطقه التعليمي المنغلق، حاول دفع تلك التهمة عن مادة التأريخ التي لا تهدف الدولة من ورائها لأكثر من أن يطلع النشء الجديد على تاريخه، وأضاف بلهجة متحدية ((وأعتقد أن صاحبة الصون تتفق معي على أن في تاريخنا المشرف من انجازات وانتصارات ما يستحق الحفظ عن ظهر قلب وليس قراءته وحسب)) إلا أنها قاطعته، وهي تشفق عليه من سذاجته، لتقول ((يا أفندينا أنا أتكلم عن مفاعيل العملية التاريخية التي أنتجت التاريخ، لا عن أهداف تعليمه أو صفحاته المشرقة.. يا أفندينا إنه يدفع النشء

الذي تتحدث عنه إلى الكفر بسبب عدم إنسجام انجازاته مع منطق الأحداث)). وهنا أوردت له منطق التحليل الجدلي الذي إعتمدته شغف في بيان رأيها في مفاعيل عملية إعتلاء الملك فيصل الأول لعرش العراق، وما تمثله تلك الدورة الغريبة بكل المقاييس، من تهديد لقناعات النشء بمفهوم العدالة المطلقة للعناية الإلهية وتوزيعها العادل لنظام الحصص القدرية دون تمييز للمواقع الطبقية.. فسألها شامتا ((وكم يبلغ عمر صاحبة الصون والعفاف كريمتكم يا خانم))؟ فقالت بتحد ((إنها في السادسة فقط))! فرد بكل دهشة ((في السادسة فقط وشيوعية! أيعقل هذا))؟ ثم تنبه لهفوته فإستدرك شارحا ((يا خانم دروس التاريخ ليست هي المسؤولة عن إنحراف طريقة تفكير إبنتكم المصون، إنما هو خلل في نظام تلقيها للمعلومة التاريخية وآليات تفسيرها لها، وهذا ما دفعني للشك في أن يكون شيوعيا من قد ألقى لها بتلك الفكرة بقصد إفساد طرق تفكيرها وآليات تلقيها وتعاملها مع التاريخ)). هنا نهضت سعاد خانم لتضع حدا لفيض منطق الحصري المفصل وفق كاتلوك التلقين المدرسي والوعظي لتقول بلهجة مشككة تماما((ولكن منطقها في التشكيك كان سليما تماما، فبماذا كان يمتاز جلالته على طالب النقيب، والأخير كان يملك نفس الدرجة من الرغبة في عرش العراق، وهو كان عراقيا وجلالته تعرق من أجل الفوز بالعرش فقط))! وقبل أن تتحول الشيوعية إلى تهمة شعبية في حياة شغف الإبنة، جمعت لها شغف أمها مئة كتاب عن الشيوعية من أجل أن تحل

إشكالية تلك السبة في حياتها وتحدد موقفها منها.. إلا أن شغف الثانية لم تحتمل قراءة سوى خمس كتب منها لتقول رأيها في الشيوعية وفي ماركس أيضا ((هذا الرجل يملك حسا رقيقا ومتعافيا، إلا أنه لا يعي أن حسه هذا يعمل ضد الفطرة الطبقية للآلة البشرية)). ويومها سألتها سعاد بحنو الأمومة ((هل هذا رأيك النهائي))؟ فأجابت وهي تنفض يديها من غبار الفكرة ((نعم، وفقط لأني يائسة ، حد الإندحار، من إصلاح ذلك الجزء من تلك الآلة)). فسألتها جدتها سؤدد بفرح صبياني ((هل يعني هذا إنك غير شيوعية))؟ فأجابت بهدوء وصبر عالم ((بل أنا أكثر شيوعية من كل دعاة الشيوعية))! كان الذي لفت نظر سعاد خانم في شغف وهي في بداية دورات لسانها هو تعاملها مع والدها كأنه حلقة زائدة في حياتها. فهي لم تكن ترى في وجوده أكثر من تراكم توثيقي لم تكن بحاجة له. وعندما سألتها سعاد عن سبب ذلك أجابت ((لأنه كالساسة: ضد نفسه.. وهو أسطع الأمثلة على خطل رؤية ماركس في إعادة رسم الخارطة الطبقية للجنس البشري)). ولكن، ومع هذا، فإن تهمة الشيوعية ظلت لاصقة بها حتى أنتحر العامل الانكليزي دفعا لتهمة العمل لصالح مخابرات بلاده وتغريره بأحد أفراد عائلتها خدمة لتحقيق ذلك الغرض، في منتصف خمسينيات القرن الماضي، وأنقطعت هي لشرود ملائكي صامت، حتى اختارت موتها، في ليلة حلول القرن الجديد، بسبب تكرار الأيام من حولها، وهي ترفل بسحرها الملكي وأسرارها الربانية. أمضت شغف الثانية سنوات صباها

ومراهقتها وهي تعيش تقلبات ازاحية، أجبرت كل من حولها على اتهامها بالجنون، وليس الشيوعية وحسب.. ففي حين أمضت تلك المرحلة من حياتها في إرتداء ملابس هي أقرب إلى ملابس الراهبات في بساطتها وحشمتها، إلا أنها كانت أول من ظهرت في شارع الأميرات بالمني جوب، ما تسبب في إحداث سلسلة قهرية من الحوادث المرورية التي عطلت الحياة في حي المنصور بكامله وسببت لعدة حوادث اشتباك بين أولاد الوزراء والأعيان الذين كانوا يتنزهون في ذلك الشارع مساء ذلك اليوم.. ولولا تدخل وزير النقل والمواصلات ومدير الشرطة العام (لم تكن الدولة العراقية حينها قد وصلت إلى حد امتهان الشعب، بتشكيل جهازي المخابرات والأمن العام بعد)، كاد عراك اثنين من أبناء رؤساء الوزراء السابقين، على أولوية حق المرور في شارع الأميرات في تلك اللحظة، أن يتحول إلى أزمة سياسية، لولا بساطة الزعيم عبد الكريم قاسم في طريقة أخذه للحياة، فأمر وزير الداخلية بتأسيس قسم شرطة الآداب التي وضعت حدا لمشابهات تلك الإختناقات المرورية ذات الأبعاد الروحية. يومها أعادتها شغف الأولى إلى القصر هاربة بها عبر متاهة منتظمة من الشوارع والأزقة الفرعية التي لا تؤدي إلا لبعضها، لا لحمايتها من أعين المتلصصين، إنما لتستأثر هي بجمال ذلك العري ولتقترب من شفرة رموزه واشاراته، إلا أن شغف كانت محصنة باعلائها الروحي ضد شغف الآخرين. بعد عودتهما إلى البيت ورواية شغف الأولى تفاصيل الأزمة لسعاد خانم،

دارت سعاد بشغف الثانية عبر مسارات أكثر تيها لتقترح عليها لبس البنطال، لا حشمة أو كبديل لتنورة الميني جوب، إنما لكونه أحدث صرخات المودة الباريسية.. قبلت شغف الفكرة، لا تصديقا بكذبة أمها البيضاء، بل إشفاقا على عبدالكريم قاسم من بلاهة وزرائه..، فقد قدرت أن أزمة مماثلة لأزمة شارع الأميرات، كانت كفيلة بالتطويح بحكومة ذلك الزعيم الساذج، ما قد يجر البلاد لمذبحة مماثلة لمذبحة العائلة المالكة.، وكذلك أرادت، بذلك التدبير إتقاء الضجة التي حرمتها من الإستمتاع بنزهاتها المسائية.. إلا أن الحادث نبهها، وخاصة شبق شغف الأولى، إلى فداحة جمالها فأخذت تفكر به بإتجاه جدلي كعبء نظرية هندسية لا تقبل الدحض أو التجاوز. حدث ذلك في الأيام التي بدأ فيها شقيقها غازي إستعادة حنينه الآيديولوجي لعائلته وأدمن مراسلتها عبر برد البحار ليستشيرها في تقلبات تلقيه لشؤونه الخارجية، كما أنها الفترة ذاتها التي بدأت شقيقتها سؤدد بالحبو نحو مراهقتها، ما أشعرها بالمسؤولية الأمومية تجاههما، بسبب إستغراق سعاد خانم في حواراتها الجسدية المقاومة لصدأ الاعتبارات الاجتماعية. فقد وقع غازي تحت نوبة من الشعور بإغتصابات قهرية لزمنه المعلق على جدار شهوات مستعصية ما أشكل عليه في كيفية التعامل مع إفاضاته وتحقيق الإستقرار لبداهات جسده. لم تنصحه بشيء لأنها لم تكن تعرف وصفة قد تنفع في تغيير تركيبة فطرته الملتبسة. ولهذا فإنها إنتظرت الوقت المواتي لحركة نجومه

لتصدر له أمر تلك النجوم ((من اليوم التالي لوصول رسالتي أغرق نفسك في جسد ليز حتى درجة الملل)).
وقتت شغف موعدها ذاك بحساب شهر وأربعة أيام لوصول باخرة رسالتها إلى الجزر البريطانية، إلا أن عاصفة طارئة أجبرت الباخرة على إستراحة قسرية، لثلاثة أيام بلياليها، في ميناء الأسكندرية ، فتأخر موعد وصولها اسبوعا كاملا فجاءت نصيحة شغف بمفعول عكسي (بسبب تغير مدار نجمه خلال ذلك الإسبوع المستقطع من عمر زمنه الإشكالي) بحيث إنه صار كلما زاد غرقا في جسد ليز زاد رغبة فيها؛ فعاد ليسأل شغف في أمر الخروج من مأزق تلك الرغبة التي لا تفتر، فنصحته بالزواج منها ليعتاد كل منهما الآخر إلى أن يبلغا درجة الملل كل من صاحبه.. وبعد زواجهما تذكر أن ليز وحدها من سيبلغ درجة الملل تلك، لأنها لم تكن على خلاف مع إفاضاتها الشخصية، فجاءه رد شغف زاجرا هذه المرة ((ملل المرأة كفيل بدفع الرجل للتفكير بالأنتحار وليس للملل وحسب)).. وهذا ما حصل لغازي بعد بلوغ ليز ذروة إشباعها منه، ولكن بعد أن أحالته إلى شبح إنتظار يحصي عدد خياناتها اليومية. أنفقت شغف عام تعلق غازي ذاك في تعديل مسارات إرتهانات مراهقة سؤدد التي كانت بأمس الحاجة لتلك التعديلات من أجل أن تصالح ضميرها المدرسي، الذي بنت حقب تزمته معلمات مرحلتي دراستها الأولى والثانية؛ ولم يكن ذلك إلا من أجل أن لا تشعر بالذنب وهي تقابل إبن وزير الإقتصاد في إحدى عطفات شارع الأميرات المهملة، والذي بدل ما كان يسمعها

قصائد غزل، كما كانت تتوق، كان يكتفي بالتحديق في عينيها بوله مجنون ويستسلم لصمت محزن لا يناسب توجهاتها العرقية التي ورثتها عن أمها المنفلة من ربقة الخوف من المجهول الأخلاقي والغيبي معا.. ولم يطل بها الحال حتى واتتها الشجاعة للفت نظره لذلك، فعدل مسار إحتراقه في إحدى إمسيات تموز الخانقة ليقرأ لها قصيدة من ثمانية مقاطع، وفي المقطع السابع أخذ عرق ولهه بالتصبب بغزارة زادت على فعل حرارة تموز بعشر درجات، ودون وعي منه، إمتدت كفه التي غسلها تعرقه ليمسك بكفها فلسعتها حرارته ولم تعد تعرف ما تفعل بنفسها غير أن تهرب إلى ظل شغف البارد، وهي تعاني من عقابيل حمى ضميرية فاجعة. هدأتها شغف بأن شرحت لها أن ليس من نصر يؤهل صاحبه للعبور من تحت قوس النصر من دون بعض الهزائم الصغيرة، فردت سؤدد متلعثمة ((ولكن بعض تلك الهزائم قد تسجل نصرا عكسيا، في بعض أماسي تموز الخانقة)). فأومأت شغف برأسها موافقة بقناعة تامة هذه المرة. لم تشهد سعاد خانم إلا الجولة الأخيرة من ذلك الصراع، بسبب إنشغالها بثقل حملها الخامس، وهموم حفيدتها غير الشرعية (شغف الثالثة) التي زرعها غازي في أحشاء خادمتها ذات الأصول اليونانية، قبل سفره إلى مدرسة هارو. كانت تطارد أحد أشباح تلك الحفيدة، والتي دأبت شغف الثالثة على إطلاقها في جو القصر من أجل كسر ركوده المضني، عندما مرت بباب غرفة شغف الثانية وسمعتها تشرح لسؤدد وجهة النظر تلك فتركت الشبح

يسدر في غيه إلى أقصى حدود إحتمال خادمات القصر لممحاكاته، لتفتح باب الغرفة ولتقول لشغف ((الآن فقط فهمت لم يتهمك الجميع بالشيوعية، ببساطة لأنك تعطلين ملكة فطرتك الصالحة التي أورثتك إياها عراقة دم العائلة))، ثم عادت لتكمل مطاردة الشبح الذي ذاب في أحد الظلال المنسية لذاكرة القصر العتيقة. يوم جاءت الخادمة المنسية بشغف الثالثة إلى بيت جدتها، لم تكن أتمت عامها الرابع بعد.. كل ما رجته الخادمة هو أن تقي إبنتها مصير الخادمة الذي كان ينتظرها بعيدا عن قصر جدتها.. أنكرتها سعاد خانم وطردت الخادمة، إلا أن شغف الثانية لفتت نظر والدتها إلى حجم الشبه بينها وبين الطفلة ((أنظري إنها لا تشبهك فقط، بل هي أكثر شبها مني بك وأكثر إصرارا على الإنتساب لدمك مني)).. فكرت سعاد للحظة قبل أن تعلن موافقتها ((حسنا، ولكن تذكري إنها ستبقى بنت خادمة))..
أمرت خادمتها أن تأخذها للحمام لتجلو جذور ذلك
الإنتساب، وأخذت هي على عاتقها أمر إعادة ترتيب أوراقه في حظيرة العائلة الأرستقراطية. لم تبد الطفلة أي تمرد أو عدم تقبل لما كان يلقى عليها، إلا أنها كانت تخضع لسيطرة خارجية على بعض إختياراتها وتآلفاتها؛ كما انها ورثت حكما على بعض من ضل طريقه من جن النبي سليمان، كما رجح أحد مشايخ الحضرة الكيلانية، دون أن تهتدي للطريقة المثلى في إستخدامهم، مما كان يشيع حالة من الفوضى والفزع في جو القصر، بسبب سوء توقيت إطلاقهم من أقبية إعتقالهم. جدها عبدالكريم رستم، ولأسباب عسكرية

صرف، كان من بين القلة التي لم تشكك في نسبها وعمل على ضمها للعائلة، على أمل إستخدام طاقتها تلك في إعادة تجربة رشيد عالي الكيلاني، لإحداث إنقلاب عسكري في خارطة نوري السعيد السياسية، تلبية لحاجات النصف العسكري فيه، والذي لم تفلح جهود سعاد خانم الأرستقراطية ولا المناصب القضائية في تهذيبه (حيث انه كان يعاني في تلك الفترة من حمى ضياع مفارقته لكرسي الوزارة في وزارة نوري باشا العاشرة).. ولكن سرعان ما خيبت شغف الثالثة أمله ذاك لأنها لم تكن بها رغبة إلا للعب، وهي في ذلك العمر، بتلك الموهبة.، وأيضا لأنها ولدت مطيعة في توجهاتها السياسية. أوعز جدها الأمر لحداثة سنها، لذا قرر الصبر عليها لحين أن تبلغ مرحلة الشباب، فربما إقتنعت بعمالة نوري السعيد والوصي عبدالإله للبريطانيين وغيرت ولائها السياسي؛ ولكنها أصرت على دحر طموحاته السياسية إذ قالت له، بعد أن فهمت أغراضه ((لن أهدر جهد أصدقائي المساكين في إعادة رسم وجوه ورق اللعب في المناسبة وعدمها))، فتركها حانقا على غباء الخادمات المتأصل في دمها.
الإستخدام السيء الوحيد لها في إطلاق أشباحها تركز على إفساد زيجات عماتها وأعمامها، ولأسباب فلسفية صرف، إذ إنها رأت أن لا فائدة ترتجى من إعادة إستنساخ أولئك الأشخاص، وخاصة بعد خذلان حركة نجومهم لمصائرهم التي تركتهم يتخبطون بأوحال هزائم العسكر دون أمل.. لذا فإنها إستخدمت طاقة أصدقائها لصرف عماتها إلى نوع من

التبتل الحكائي، لأن توالد تلك العائلة كان مرهونا بقدر نسائها لا رجالها؛ وحجمت فعل طاقات أعمامها الإيروسية بصالات النوادي الليلية التي أنتجت بعد عقد ونصف من الزمن كتاب فنانات بغداد، على يد أحد الصحفيين المتخصصين بحمى الرصد الإيروسي. وشغف هذه هي المسؤولة عن تعديل المسار الإيروسي لعمتها سؤدد بإتجاه الزواج الخالد بدل التمرغ على ضفاف الانسحاقات العابرة في زوايا شارع الاميرات، عندما سألتها النصح في خياراتها الإخلاقية بطريقتها المبطنة ((برأيك أيهما الأكثر قربا لموت ذهبي، موت الأميرة جليلة أم موت الأميرة عزة))؟ والأميرتان من بنات الملك فيصل الأول، إنتحرت الأولى بسبب حرمانها الجنسي، وهربت الثانية مع خادمها الإيطالي بسبب عنف تيارات فيوضها، وتفضيلها الموت تحت سماء بلا نجوم ملكية، على الموت تحت عفة بكارة لم تختارها، فأجابتها بتصميم راهب من القرون الوسطى ((بل الموت بصبر كامل الإستدارة)). فهمت سؤدد ضبابية تلك الإجابة على انها نصيحة بالتبتل التام، لأنها ظنت أن الإجابة مصدرها روح شقيقتها المتبتلة التي تتلبس شغف الصغيرة، لا إبنة أخيها حاوية الأشباح، لإكتمال دائرة الشبه بين الشغفين، وبلوغ شغف الثالثة مرحلة اليأس التام من تكرار وجوه تلك العائلة التي تسير لإكمال دورة زمنها ببلاهة خنافس الروث.. وهذا ما كرسته لقناعة رسائل البحار الباردة، عندما بدأت بإيصال إخوتها من تفجرات غازي غير الشرعية مع ليز والمس جين وغيرهن من أميرات حي

سوهو المعزولات، وكذلك أبناء عمها مكي من الوجوه اللامعة لصفحات كتاب فنانات بغداد. ذلك الإستلهام الطافي على لغط أشباحه، ورغم فجائعيته، هو من وضع شغف الثانية على سكة لعبة مصائر أولاد شقيقها، فقررت الإنصراف لرعاية بعض مراحلها، وخاصة تلك التي بدأت تفد بأسماء إستعمارية، تخلف مرارة التسلط والبرود البريطاني في الأذن؛ فعمدت إلى إستبدال أسماء أولئك الأولاد بأسماء عربية، ولم ينج من حرب التطهير تلك إلا اسم ليز، لا لإيحاءاته الدينية، إنما لأنها كانت ليزا قلبا وقالبا، كما قالت العمة، وإن أي اسم آخر كان سيمسخ تركيبتها الروحية الخالية من التراكمات. وقد جاء حماس شغف ذاك على هوى سعاد خانم، وشجعت سؤدد على الإنخراط فيه، لتتفرغ هي لنوبة جنون جديدة مع شغفها التي عادت مكللة بفتنة سواد فستان وداعها لأمها، وأيضا لأنها تخلصت من أعباء حملها الخامس، الذي ولد بسحنة طائشة ووجه إنقلابي، كوجوه قادة العهد الجمهوري؛ وللتخفيف من حدة تلك الأنواء فيه، سمته حافظا، تيمنا بإسم جدها الباشا حافظ، الذي كان أحد مستشاري الأمير فيصل، ورافقه في رحلة إهتدائه إلى عرشه المراوغ، بنصائح بلا ضغائن.. وهي الفترة عينها التي ضم فيها الباشا نوري السعيد، عبدالكريم رستم إلى حزبه، تمهيدا لدخوله البرلمان، إكراما لعيني سعاد خانم، التي رأت انه قد حان الوقت لتساوي قريناتها من بنات الباشوات في أن تكون حرم صاحب معالي في واجهة الدولة. الصوت الوحيد

الذي عارض خطط سعاد تلك كان صوت شغف الثانية، لأنها رأت أن وجود وزير ثان في العائلة سيوسع دائرة مطاردة السراب في حياة أبنائها وسيعجل بحركة أقدارهم. وأمام تصميم سعاد خانم على إتمام مسيرة خطاها حتى كرسي الوزارة، عمدت العمة شغف إلى إقناع إبنة أخيها شغف الثالثة بإطلاق رعيل من أشباحها المضللة، وإستنفدت هذه طاقات ضخمة دون أن تزحزح جدتها عن رغبتها تلك ولسببين لم يفطن إليهما الجميع، أولهما أن الأشباح لم تكن تفهم لغة السياسة، وثانيهما لأن عبدالكريم رستم كان في فترة الحماية التي وفرتها له علاقة حبه الأولى، والتي حالت مسافات تمثله لها في حمايته من إستقراءات أشباح شغف الثالثة وسعاد وإكتشافها لتفاصيل تلك الحماية على حد سواء. لأول وهلة، بدا له شعوره تجاه تلك المحامية، بسبب فراغات سجلاته العاطفية، كحالة رهاب قدري تبعده مسافة ميل بحري عن قاعدة رصانته القضائية، بصفته الحاكم الأول لمحكمة متصرفية البصرة. باغتته بإطلالتها وهو يرزح تحت هيبة منصبه الجديد، فعطلت حسه القانوني وأحالته إلى قضية محجوزة للنطق بالحكم دون قرار قضائي. عن مجد يليق بفداحة جمالها لا عن عدالة قضية، كانت تبحث، تلك المحامية، في أروقة القضاء؛ إلى أن هداها حسها الأنثوي، لا القانوني، إلى عبدالكريم رستم الذي مازال في طور التشكيل، رغم أن حسها عينه هداها إلى وقوف امرأة خلف مجده الخاص: من أناقة بدلته الرسمية إلى سدارة الوجاهة الحكومية. دارت به في زنازين

فتنتها دون أمر إعتقال قضائي ودون شهود إدانة، وفي كل مرة كانت تصل به إلى لحظة النطق بالحكم، تفتقت أنوثتها عن شاهد دفاع جديد، وبهذا تركته معلقا على منصة الإعدام بلا محامي دفاع أو تنفيذ للحكم ودون رحمة. أخذت سماءه العائلية بالتلبد، حتى انه لم يفكر بالسفر للإطمئنان على سعاد ومولوده الخامس، الذي ولد بمصير راهب عاصي بدل مصير الوزارة الذي توقعت سعاد، ما دفعها للتوقف وإلقاء نظرة في كيمياء تقاطعات زوجها الجديدة. إستعانت أول الأمر بحدس إبنتها شغف ثم بأشباح حفيدتها فإتفقت الإثنتان على تلبد أجوائه بغيمة نسائية عاصفة؛ إلا أنهما إختلفتا في تصنيف أسباب ذلك التلبد.. ففي حين أرجعتها شغف الثانية لأسباب تمثلية لحراك تطور ذائقته الايروسية، ربطتها شغف الثالثة بتقلبات مواقع نجمه الناتج عن فيضان نهر دجلة المدمر ذاك العام، بينما أصرت هي على إعادتها لأسباب وراثية تتعلق بوضاعة أصوله الإجتماعية... وكان رأيها الفصل. بعد ساعة واحدة من ذلك الإجتماع، حرر الباشا وزير العدلية برقية عزله من منصبه لتطوح به – سعاد خانم لا البرقية – وبأوهام حذاقته ولتعيده إلى أرض واقعه مجللا بعار هزيمة حربه التمردية الثانية على جلال مجدها الأنثوي. وبعد عودته إلى القصر تركته يتلظى على نار وضاعته لمدة شهر كامل، قبل أن تمن عليه بالجلوس على كرسي الإعتراف ليعلن عن ندمه وتوبته النصوح. حقيقة الأمر انها إكتوت بنار إشتهائه وحرقها الشوق لمداعباته منذ الإسبوع الأول لرجوعه،

ولكنها إحتملت التقلب على سريرها لإسبوعين كاملين، وإستعانت بأصابعها لإطفاء حرائقها الباطنية لإسبوع كامل، حفاظا على بريق كبريائها الأرستقراطي. وبعد إسبوعين مضنيين، قضاهما جناب الحاكم الأول في فض نزاعات أحفاده ومطاردة أشباح شغف الثالثة، حدثت إحدى معجزات نوري السعيد التي تعيد للقدر السياسي قدرة إعادة ترتيب مصائر الساسة على عجل، إذ فرض عليه مصير البلاد إجراء إنتخابات برلمانية وتشكيل وزارة خلال ثلاثة أيام فقط ، ما إضطره إلى سد فراغات البرلمان والحكومة، ليس بعبدالكريم رستم وحسب،وإنما بصغار محدثي النعمة الذين صنعهم بيديه. كانت إحدى قفزات القدر التي تترك أمثال عبدالكريم رستم مشدوهين ومعلقين في فراغ فرح المفاجئات كالأطفال الصغار.. فما معنى أن يتحول القدر من عدو إلى صديق، يحوك لك معجزات تحقيق رغباتك، بطريقة تعجز حتى أفلام السينما عن نسج خيوط مصادفاتها، لا لشيء غير إنك تزوجت بامرأة من علية القوم؟ ومازاد دهشته أن زلازالا قدريا، حاكته جهة لم يحزر ملامح إنتمائها، أطاح بحكومة نوري السعيد تلك بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام فقط، لينقله إلى الجبهة المعارضة لجبهة سعاد خانم، وإلى كرسي الوزارة في حكومة صالح جبر وإلى منصب وزير العدلية بالذات. ولتبلغ دهشته أقصى حدودها في حفل إداء يمين الوزارة في البلاط الملكي، إنه وجد رئيس الوزراء المطاح به ، نوري السعيد يقف إلى جانب الوصي على العرش وهو بكامل وقاره الوزاري. وبعد

عودته من البلاط وتخففه من ثقل بزة الوزارة البيضاء وسخونة سدارة الفخامة الرمادية، سألته سعاد خانم ((كيف وجدت أمر الوزارة يا صاحب المعالي))؟ فرد كالمحموم ((الأمر من البساطة بحيث إنه يحتاج إلى إنقلاب عسكري يمنحه بعض الثقل والوقار الرسميين)). أول الأوامر الوزارية التي وقعها قضى بتعيين حبيبته البصرية بمنصب مدير عام لشؤون التنفيذ في ديوان الوزارة. وبعد خروج الأمر من مكتبه إتصل به الباشا نوري السعيد ليسأله ((هل يتوقع معاليكم إستقامة شؤون العدل في البلاد بقراركم هذا))؟ فرد متلعثما ((أظن هذا يا باشا))... وسقط في نوبة حمى آسنة قادته لسؤال سعاد خانم عن أحوال الباشا عندما يكون خارج الوزارة فقالت ((يصرف عناية أكبر في تصريف شؤونها... كي لا يدخل أمثالك البلاد في ما لا تحمد عقباه)). في حفل التهنئة الذي أقامته سعاد خانم في تلك الليلة، إستطاعت ليز، بحسها الإنكليزي الذي ورثته عن أمها، أن تخرج عمتيها، شغف وسؤدد، من قوقعة الوجع الغيبي الذي يتلبسهما وأن تغريهما بساعة حياة بلا منغصات مصيرية. راقصتهما كأميرة ويلزية تطفو بصفاء حسها على حرفية الأشياء والكلمات وإرتجالات المقادير، لتعلمهما، في غيبة من غيبات إسقاط الزمن، فن البساطة وأبجدية لغة الجسد. ليلتها صحت الشقيقتان قبل الفجر لتتحدثا عن أحلام شيوعية ناعمة، يغيب عن تفاصيلها الحسية وجه السماء، ليس في القصر وحده وإنما في كامل فضاء بغداد. في ظهيرة ذلك اليوم، كانت قد وصلت دفعة

ثانية من أبناء غازي غير الشرعيين بصحبة شاب انكليزي، أصيب بمرض الحنين لأجواء الشرق من خلال عمله في قسم الوثائق التابع لوزارة الخارجية البريطانية. تكونت الدفعة من أربعة أولاد ذكور أكبرهم في السادسة، ما إضطر سعاد خانم لتوظيف خادمتين جديدتين للاهتمام بشؤونهم والاشراف على ترتيب أوضاعهم القدرية والاخلاقية بما يناسب وضع العائلة ونسبهم الجديد، كأولاد امهات لا يدخلن البيوت إلا من أجل دخول الحمام.. إلا أنها واجهت مشكلة مع الشاب الانكليزي، إذ رفض ترك القصر أو الذهاب إلى أي جهة بحجة أن أحفادها الذين جاء بهم بحاجة لرعاية خاصة لتهذيب جذورهم الانكليزية بما يناسب وضع نسبهم الارستقراطي الجديد ، فوظفته كفلاح لرعاية زهور حديقة القصر لحين أن يثبت قدراته التربوية التي ادعى لنفسه. لم يكن في الشاب ما يلفت النظر، لذا فإنها عاملته كخادم، وسرعان ما قبل هو الوضع وقاسم فلاح الحديقة غرفته القصية عن المكان والذاكرة، لا لشيء غير أن لا يفارق المكان الذي يكتوي بحضور شغف، التي لمحها وهي تسبح في قميص نومها الزهري كإله من شغف ومرايا. ولعمق صمته الفلسفي، سرعان ما نست سعاد خانم وجوده، بل لم تسأله حتى عن اسمه، ولذا فإنها تفاجأت بوجوده وهو يعيد بناء ثقافة حديقة القصر، ذات صباح فسألته عن هويته، فأجاب بإقتضاب ملكي ((أنا العامل الإنكليزي ياسيدتي))، وعاد إلى عمله بصمته الذي بلا ظلال. وعصر ذلك اليوم إصطدمت شغف بصمته وهي في طريقها إلى نزهتها

المسائية في شارع الأميرات؛ كان قريبا ومطبقا كصمت الزهور التي يعيد بناء حواراتها مع ذاكرة الحدائق. سألته عن هويته فأجاب بأدبه الجم ((العامل الإنكليزي يا سيدتي))، وعاد لصمته الباهر الذي يغوص في صلب المكان، وليس في بداهة الزهور فقط ، فسألته لترتقي للمزيد من زحف صمته ((وهل أنت بستاني))؟ فأجاب وهو يقتحم تفاصيلها بنظرته المتسلطة ((تعلمت القليل من لغة الزهور من جدتي))، فسألته بقسوة أنوثتها ((فقط))؟ فأجاب بتفس الغيبوبة التي تجسدت في نظرة عينيها في تلك اللحظة ((والقليل أيضا عن أنوثتها)).. وعند ذلك المنعطف أطلت سؤدد من شرفة القصر فإضطرت شغف للمضي إلى نزهتها، وهي تجر أعباء قرمزية غادرة. لم تنم تلك الليلة.. وظلت سؤدد تسمع وجع دورانات تهالكها، كصليل ليلة باردة، لا إحساسا منها بوجع شقيقتها وإنما لأنها كانت تعاني من أكال نفس الوجع. والحقيقة إن صمت العامل الإنكليزي قد ضرب شباك غرفة نومها من لحظة إجتيازه لبوابة القصر، ولكنها، ولأسباب تتعلق بنكوصها السريع لقوقعة فهمها الذاتي، الأحادي النظرة، سرعان ما كانت ترتد إلى قفص أناها الذهبي لتمنع أذنها من الإصغاء لهزيم ذلك الصمت الشاهق الإلحاح.. ولكنها أيضا، لم تكن على إستعداد للتنازل عن حقدها الشخصي، كخط حماية عالي الخصوصية. وعند ناصية هذا الخط قررت أن تضع حدا لوجعها ووجع شغف، بإعادة هذا العامل إلى منجمم بحثه عن صوته الضائع على الساحل البعيد لبحر المانش. في

ظهيرة اليوم التالي وجدته يصغي لإحدى الزهور بكامل رهبة صمته فتوقفت لتصغي لإصغائه إلى أن بددت رهبة ذلك الصمت كامل وقارها الأرستقراطي وأتى على حواشي هزيم أنوثتها، فسرحت أناملها لتداعب خصلات شعره الذهبية قبل أن تشدها بعنف لهاثها وتخرج غمغمة أنفاسها المتقطعة ((أنا هنا أيها الغبي))... وسقطت عليه بكامل حقدها الأنثوي.. دارت على جثته أكثر من دورتين، بحثا عن ألمه اللذيذ ولكنها لم تجد في نسيج شفتيه ولا في طيات بنطاله، المحكم التزنير، غير أناقة صمته الحديدي وصيف فروسيته المهذبة. وأمام جبروت ذلك الصمت لم تملك غير أن تفر إلى سعاد خانم، وبرعيل مضاف من حقدها المستكين، لتفجرت دوي أول محاولة إغتصاب في تاريخ شرف العائلة. وبعد ساعة صخرية من عمر الذاكرة، سلمت سيارة ديوان وزارة العدلية العامل الانكليزي للسفارة البريطانية بتمام عدة صمته.. ولكنه بدل أن يشحن على أول باخرة عائدة بالمواد الأولية إلى مصانع ليستر، ظهر في صبيحة اليوم التالي في أروقة كلية الحقوق كاستاذ للقانون الدولي في قسم الدراسات العليا، الذي كانت شغف أحد طلابه. كل ما فعلته شغف في يوم طرد العامل الانكليزي هو أنها أغرقت جسدها في حمام بارد لتغطي على جريان دموع صدمتها حتى ذابت مرارتها في ماء الحوض دون أن تتمكن من قمع صريرها، ففاض بها الحوض وسالت في كل إتجاه لتغمر جميع غرف الطابق العلوي، بإستثناء غرفة سؤدد، لإحتقانها بدموع سؤدد ذاتها. كانت ليز وشغف

الثالثة تلاوعان جدتهما في صالة الطابق الأرضي، عندما سمعت خرير ذلك الوجع يغمر جو الصالة فسألت حفيدتيها عن مصدره، فردت شغف الثالثة ((إنه صوت إرتجاعات العمة شغف)).. ولم يتوقف إندلاع ذلك الخرير إلا أمام صمت العامل الانكليزي، الذي رشح أغلب سوائل جسده وهو ينتظر أمام بوابة القصر، بعد أن حرره أمر رسمي من السفير البريطاني شخصيا، من ربقة إغتصابات لحظته تلك، ليعيده إلى وضعه القانوني كمستشار للسفارة وكاستاذ للقانون الدولي في جامعة بغداد. وعند دخوله، في صباح اليوم التالي، إلى المدرج، لم تمهل المفاجئة شغف لأكثر من الهروب من الصف الأول للإنزواء في آخر مقاعد المدرج، تعبيرا عن غضبها. أما سؤدد فلجأت لصمت جنائزي محكم الحواف؛ وغيرت مواعيد وجبات طعامها ونقلتها إلى المطبخ، ليس من أجل أن تتحاشى نظرات شغف وإنما من أجل أن تحكم قبضتها على مساحة جرحها. ليز وحدها التي إستشفت سبب ذلك الإنغلاق، ولكنها في كل مرة حاولت فيها الإقتراب من صرحه ردت عليها سؤدد بيومين من الإعتكاف في غرفتها من دون طعام أو شراب.. وعندما شمل ذلك الإنغلاق محاولات إقتراب سعاد خانم ذاتها، أمرت سعاد خانم جميع أفراد العائلة بممارسة إنغلاق مقابل ضدها وإهمالها إلى أن يتآكل جدار حصارها بفعل حصار الوحدة. وبالفعل، وبعد حصار شهرين متتاليين ، إنهارت بعض إستحكامات سؤدد، بعودتها لتناول بعض وجبات الغداء مع العائلة، ولكن بصمت تام.. ثم بتناول وجبة عشاء ليلة

الجمعة على مائدة جدتها.. ولكن ، ولعمق هوة الكبرياء التي ورثتها عن جدتها سؤدد خانم، لم يكن ليرضي غرورها أقل من أن تكون سعاد خانم أول من يكسر ذلك الإغلاق ، ولهذا إستمرت في عزلتها الجنائزية لمدة عام كامل.، وكان من الممكن أن تستمر لأعوام طويلة لولا عودة شقيقها غازي المفاجئة، في نهاية ذلك العام وقلبه، بحضوره الفوضوي، لجميع عادات القصر، بإستثناء عالم شغف الثانية طبعا، لأنه كان عالما قائما بذاته ويتمتع بحصانة فطرية باسلة. عاد غازي بإبنين غير شرعيين إضافيين ونظام فوضوي محكم، قلب تقاليد وعادات وأتكيت العائلة رأسا على عقب ودمر جميع إستحكامات عاداتها الدفاعية ليذيبها في نظام جديد يقوم على نظام اللانظام؛ وكانت إستحكامات سؤدد أول سدود الإنهيار أمام ذلك الفيضان الزلزالي، والذي طالت اكتساحاته مساحات من أغطية ودثارات سعاد خانم الطبقية ذاتها. أمضى غازي الاسبوع الأول من حربه التطهيرية بفتوحات اكتساحية لحواشي العائلة. فبعد نوم ثلاثة أيام متواصلة دخلت عليه الخادمة، ذات الاصول اليونانية، بفنجان الشاي الأسود لتجده يفترش السرير بعري الآلهة اليونانية وسطوة تفاصيلها النابتة كفنارات بحار اسطورية.. وقبل أن تتم شهقة رعبها من ثقل حضور رجولته الفاقعة، خطفها من منامتها، كرضيع يسلخ من قماطه، ليغطي بمتن انوثتها الفاغرة عري احد هوامش فضاءاته الحربية. وبينما كان يعبر بها قناة السويس سألها عن سر عدم إرتدائها لسروال

داخلي، قد يجنبها بعض الانهيارات التي تؤدي إلى السقوط الحر في لجة ضياع الأسئلة، قالت له بصوت متهدج وهي تسفح سيل مرارتها على عري صدره ((يبدو أنك سلختته مع ما سلخت من تراكمات عفة القصور عن كاهلي)). بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كان الوزير عبدالكريم رستم، يتناول غداءه وسط لغط أحفاده، دخل غازي غرفة الطعام وهو ينشر الخادمة اليونانية على كتفه كخرقة مبللة، ليعلن للعائلة ((لقد بنيت في هذه الخادمة حفيدا جديدا للعائلة.. وربما تزوجتها إن توفر لي متسعا لها))! سقطت الملعقة من يد السيد الوزير، وعادت حبة الزيتون إلى مكانها في الصحن، بعد أن غص بها فم سعاد خانم.. وبعد أن أفاقت من تلك الصدمة، مسحت فمها بطرف منديل المائدة لتسأله وهي ترتجف من الغضب ((لماذا؟ هل شحت النساء))؟ فأجاب وهو يضع الخادمة على أحد مقاعد المائدة ((بل بسبب حالة الخبص التي أورثتني إياه كثرتهن))، فصرخت بزوجها المبتسم شماتة ((هل ستتركه يلوث مجد العائلة بمعاشرة خدمنا يا سعادة الوزير.. لا، وربما يتزوجها))؟ فرد الوزير بنفس ابتسامته الصفراء ((ليست هي الحالة الأولى في تاريخ العائلة، إن لم تخنك الذاكرة يا ربة الصون والعفاف))! وأمام حشد الأبناء والأحفاد اضطرت لبلع اهانة وشماتة عبدالكريم رستم؛ إلا أنه، وقبل أن تسترد هدوئها، عاجلها بلطمة ثانية ((يبدو انه قانون آخر من قوانين التوازن الطبقي يا عزيزتي، أن يتزوج ابن النجار من ابنة الوزير وأن يبني أبناء الوزراء ربيع مجدهم الطبقي في

وحل الخادمات! وأذكرك أن هذا الكلام لي وليس لشغف... أم تراك ستتهميني بالشيوعية أنا الآخر وأنا أكثر ليبرالية من نوري السعيد ذاته))؟ وهنا ردت بتشفي المنتصر ((بل هي لوثة نوري السعيد وخطأه الوحيد: ايصال السوقة أمثالك إلى أركان الوزارة والجيش ممن لا يصلحون لغير زراعة البصل))! لم يحسم ذلك الجدل الأعور إلا حفيدتهما شغف إذ قالت وهي تصرف أحد أشباحها ((على الأقل سيكون لي في المستقبل اخوة من أم أراها))! لفتت كلمة شغف تلك انتباه غازي فسأل أمه عمن تكون فقالت ((انها ابنتك التي بنيتها في خادمتي الروسية قيل رحيلك)) فقال وهو يقبل جبين ابنته ((لنشكر الخدم إذن لإدخالهم الحكمة أخيرا لبيت الفاقة هذا)). وأحصى غازي أولاده فدهش إذ وجدهم عشرة، وأنهم يجمعون أعراق القارات الخمس في دمائهم، وأن ألوانهم تتدرج من لون القطيفة السوداء إلى شقرة الويسكي الاسكتلندي الذي كان يسكبه ولده جون مع رطانته الانكليزية. وجون هذا هو أحد الصبيين اللذين رافقاه في رحلة عودته. ذكرته به رسالة تاهت بين مكاتب البريد لمدة أربعة عشر عاما كاملة..، ولهذا فإنه لم يلتقيه إلا بعد أن أتم عامه الرابع عشر.. وبسبب شقرته الفاقعة وجهله التام باللغة العربية، فقد أنكره في البداية، لولا أن أمه كانت قد حملته بذكرى لا تنسى: أن يذكر أباه بقصة فقدانها الوعي لحظة وصوله بها غرفة أسرار الهرم الأكبر! وجده تائها بين لغط اخوته، رغم أنه كان أكثرهم شبها بثقل العائلة الايديولوجي؛ فطلب من شقيقته سؤدد أن تلقنه اللغة

العربية من دون المساس بإرثه الفلسفي والسياسي، لأن أمه كانت أول متمردي ما بعد الحرب الكونية الثانية على سلبية وريثة التاج البريطاني وبرودة رؤياها الفلسفية، كما كانت تصفها. ولم تفهم سؤدد مقاصد ذلك الطلب إلى أن غفى الولد الاسكتلندي السكب في سريرها، في احدى ليالي تعليمه الطويلة، وهو يرتدي (دشداشة) عربية لأول مرة في حياته.. وبينما كانت تعدل أغطية السرير لتدفئه، وجدت (الدشداشة) تتكور وتنسحب إلى صدره لتكشف عن نصفه الأسفل الذي بهرها بوحشية رجولته وقوة وقعها على الجانب المظلم من انوثتها الحبيسة. وتحت إلحاح رغبتها التي استيقظت فجأة، مدت يدها لتتحسس مسارب يقظتها المهلكة. أفاق على غصات تأوهاتها التي فلتت منها كالصهيل فربت على رأسها وقال بأول الحروف التي لقنته إياها ((لا تهتمي يا عمتي؛ لك عليّ واجبات كثيرة))! ومن ليلتها انغمست معه في جنون غادر علمه ثلاثة أرباع لغة أبيه دون الحاجة لمقعد الدرس أو لتسجيل ملاحظة على ورقة غير صفحة تدفق عمته الملهمة. استمر الحال بينهما إلى صباح يوم انقلاب العسكر، في الرابع عشر من تموز/يوليو عام ١٩٥٨ ، عندها قالت له وهي تستشعر ثقل ذلك الانقلاب في دمها الذي آن له أن يعود إلى دورة حيائه ((من اليوم سيتحول واجبك الأخلاقي بإتجاه آخر أيها الولد الطيب.. وعليك، قبل أن تعود إلى سرير غرفتك، أن تنسى لون ملاءات سريري المتعب)). يومها لم تكن خبرته الحياتية تتجاوز حدود جدران تلك الغرفة ما أصابه باحباط

دفعه للبحث عن مصادر أخرى لفهم تأثير الانقلابات العسكرية على انقلاب عمته المفاجئ واللامبرر.

*** في صبيحة ذلك اليوم فقط (صبيحة الرابع عشر من تموز)، وبعد أن عاد من لملمة ما نثرت إطلاقات ستار سبع العبوسي من أشلاء العائلة المالكة، إهتدت شغف الثانية لإسم يخلص جون من رطانته الإنكليزية: جميل، وعلقت وهي تضحك..
((وهو أيضا سيحافظ لك على شيء من إرث جون الثقافي لأنه يبدأ بنغمة نفس حرف إسمك الأول)). كما إقترحت أن يكون إسم شهرته ـ جميل رستم ـ لأنه إسم وزاري بإمتياز، رغم أن عهد وقعه كان في طريقه إلى الزوال. ولكن وقعه لم يفارق مخيلة السفارة البريطانية.. فبعد أن قدر موظفو تلك السفارة سماكة غبار الإنقلاب الدراماتيكي الذي أطاح بالنظام الملكي، عاد العامل الانكليزي إلى قصر سعاد خانم ببدلة عمله الرمادية، ولكن ليختلي بجميل رستم هذه المرة لا لينصت لصمت حوض زهور شرفة شغف الثانية. كان وزيرا العائلة قد إختفيا على عجل، وإنزوت سعاد خانم وشغفها في إحدى زوايا ذاكرة، أصر رجال العهد الجديد على تسييسها بصبيانية محبطة، كما قالت سعاد خانم. وفي الوقت الذي أصر فيه غازي على البحث عن نفسه في صالات النوادي الليلية، إنهمكت شغف الثانية في جعل إختلافات أبنائه أكثر شفافية، وخاصة بعد أن رفعت الخادمة ماري عددهم إلى رقم النحس ـ ثلاثة عشر ـ فأخذو بالتأرجح في مستنقعات من الغدر القدري العصي على التفسير.. ولأنه إلتهم منهم أربعة أولاد وأربع بنات في لحظة واحدة ، دون أسباب مقنعة، صنفتها شغف الثالثة، بحسها الماورائي، على إنه غدر غيب حاقد.

مات الثمانية بطريقة التداعي الحر..
فبينما كان الجميع يجلسون إلى مائدة إفطار أول جمعة تبعت مذبحة العائلة المالكة، صرخت شغف الثالثة أن ثمة تيار يسقط في هوة الفراغ الكوني فسقط وجه أخوها الأفريقي الملامح في صحن البيض الذي أمامه، ثم توالى سقوط الوجوه بآلية التتابع الحر حتى تضرج بزناخة البيض وطرد التأريخ كل ما كان لتلك الوجوه من مقدرات الحياة. كل هذا حدث بضجته والعامل الانكليزي وجميل رستم عاكفان على مناقشة ما جاء من أجله العامل الرمادي التفكير (بحسب وصف سعاد خانم) في غرفة نوم جميل، دون أن يسمع لهما صوت. طرح العامل الانكليزي عدة أفكار للمناقشة، وعلى إنها أفكاره الخاصة ولا رأي لسفارة بلاده فيها، فسأله جميل بتحد ثوري..
- من رشحني لهذه المناقشة إذن؟ قرأت وجهي في ورق اللعب أم عرفت طريقي بالإلهام الرباني؟ تهدج صوت العامل عبر غلالته الرمادية..
- المهم أني وصلت أليس كذلك؟ فرد جميل بنفس التحدي..
- بل أن تبقى حيث أنت، على أقل تقدير.
بعد خروج العامل الانكليزي سألته سعاد خانم بحيادية قس مخضرم عن سبب زيارة ذلك الرمادي له، فرد بكلمة واحدة..
- سياسي. وبطريقة إجابته عينها سألته..
- لست فيصلا جديدا طبعا ولن تكون، أليس كذلك؟ فأومأ برأسه موافقا..
- ولن تكون نوري سعيد آخر؟ فأومأ موافقا مرة أخرى..
- وأعتقد أنك توافقني أن كفى لعبة تاريخنا لورنس واحد؟ وأيضا أومأ موافقا هذه المرة فقالت..
-هناك الكثير لتزجية الوقت غير الحروب الخاسرة.. فأومأ

برأسه للمرة الرابعة وإستطردت هي شارحة..
-العمالة التي نتهم بها للانكليز هي من أجل الوصول إلى السلطة لا من أجل محاربتها، وعلى هذا الرمادي فهم هذا.. نحن أكثر وفاء لبلادنا من أسياد هذا الأبله ومن أرسلوه... وعليك إفهامه هذا يا ولد. فرد بصبر جميل، لم تصدق أن يكون لإبن غير شرعي..
- ولكن يا جدتي هذا الرمادي لم يأت لأي من هذا.. هذا العامل الأبله عاشق فقط.
- عماذا تحدثتم إذن يا ولد؟
- عن طريقة تعبيره الخائبة عن أوجاع عشقه فقط.
- والجانب السياسي الذي تحدثت عنه؟
- ذاك كان أحلام رجال السفارة لا حلمه الشخصي.
تأخر دفن أولاد غازي الثمانية ثمانية أيام كاملة. خلاف التأخير نشأ من كون الثمانية من أمهات لا تربطهن صلة بالعائلة، في عائلة تعتبر الصلة بالأم هي الأساس للانتساب أولا، ولأن الأولاد الثمانية، وكما أوضحت السيدة سؤدد خانم، لم يكونوا على دين معلن، ما يحرمهم من حق الدفن في مقبرة العائلة المحاذية لنهر دجلة في جانب الكرخ من بغداد، المقبرة الرسمية للعائلة - في غرف محصنة - منذ ما قبل دفن الشيخ معروف الكرخي ذاته ثانيا..، والأهم من كل هذا هو كونهم أولاد غير شرعيين ثالثا. إقترح الوزير عبدالكريم رستم، وبصفته جد الأولاد، أن يدفنوا في المقبرة البريطانية، وعلى دين أمهاتهم البريطانيات، إلا أن الفكرة رفضت تماما، وخاصة من قبل سعاد خانم لسريان دم العائلة في عروقهم، وإن كانوا غير شرعيين.. وأخيرا جاء الحل الذي يرضي جميع الأطراف إذ إقترح الباشا مكي الحافظ، والد جدتهم وعميد عائلة آل الحافظ، تخصيص إحدى

أراضيه الزراعية المهملة لتكون مدفنا مستقلا للفروع والأغصان غير المعترف بها من شجرة العائلة. جاء هذا الحل الوسط في اليوم الرابع لكارثة الموت تلك، وبعد أن بدأت بعض الخطوط الزرقاء بغزو الجثث المصفوفة على طاولتين متقابلتين في غرفة الضيوف.. إلا أن سعاد خانم وقد حانت ساعة الدفن، رفضت أن يكفن أحفادها بالطريقة التقليدية المنفرة، بعد أن حرموا من جميع إمتيازات تقاليد دفن العائلة، لذا فإنها طلبت من خياط وخياطة العائلة أن ينجزوا للجثث الثمانية أربع بدلات من السموكن الأسود وأربع فساتين من الجورجيت الأبيض، ليخرج أحفادها بموت يناسب أناقة العائلة ومركزها الاجتماعي. كلفت عملية التأخير تلك ثمان جالونات من أفخر العطور الفرنسية، لتغطية روائح عفونة الجثث الآخذة بالتفسخ، وإلى ترك نوافذ القصر مشرعة لمدة ثمانية أيام بوجه الريح الغربية لطرد ثقل الموت من زواياه المعتمة. وفي الوقت الذي كان من المفروض فيه أن تحمل الجثث في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثامن إلى المقبرة، تسلل الضجر إلى نفس غازي، وأصر على تقديم موعد الدفن إلى الساعة السابعة، على أمل الفراغ من عبء ذلك الموت المثقل بجدل الأروقة البرجوازية وجبروتها الايديولوجي..، إلا أن مرور موكب رئيس وزراء العهد الجمهوري، عبدالكريم قاسم، وهو في طريقه إلى إحدى جولاته التفقدية، علق تلك الجثث في فضاء حديقة القصر ساعة كاملة لإكمال دورة الرقم ثمانية في حياة أصحاب تلك الجثث. وفي المقبرة التي بني مدفنها على عجل، أصرت شغف الثانية على أن يدفن أولاد شقيقها بتوابيتهم للحفاظ على أناقة الموت فيهم..، وعندما إحتج رجل الدين الذي كان يتولى عملية ترتيب شؤون موتى

العائلة على طريقة الدفن،أشارت له شغف ـ بصبر نافد ـ بأن يلزم الصمت وهي تقول
ـ نحن أدرى بشؤون موتانا. إنتهت مراسيم العزاء ليجد غازي نفسه أمام رغبة الإنتقام من عبدالكريم قاسم الذي أخر، بمرور موكبه، عملية دفن أولاده، إلا أن سعاد خانم لامته على تلك الرغبة التي لا تليق بإرث العائلة الاخلاقي بقولها..
ـ فمن يكون إبن النجار هذا، الذي هد أركان دولة كاملة وهدم ثقافة شعب بأكملها من أجل أن يصل إلى كرسي السلطة، لتنزل إلى مستواه وتمنحه شرف تحديك أنت؟
هذا الكلام أعاد غازي إلى أرض الواقع ووجه إهتمامه إلى تعويض خسارته في أبنائه، الذين لم يجد سببا يبرر موتهم غير إندحار أقدارهم، في أوجه أخرى، أكثر واقعية وقربا من حاجاته الشخصية. وحدها ليز من عانت ألم فقد إخوتها، الذين لم يمهلهم العمر لتحفظ ملامحهم، فغرقت في نوبة حزن، لم تخرجها منها إلا أختها شغف الثالثة بتسخيرها لطاقمها من الأشباح في تحضير أرواح الاخوة الثمانية في ليالي الجمع المقمرة من كل شهر، حتى ملت مزاحهم وتعب الأخوة والأخوات من ضيق بدلات وفساتين أكفانهم، فأخذوا بالحضور ألى تلك الجلسات وهم عرات، لأن المكفنين إستسخفوا فكرة أن يلبسوا أمواتا ملابس داخلية، لم يقرها شرع، وكأن الأموات، والكلام لليز، لا عورات لهم.. ومن تلك الليلة صالحت ليز نفسها على فكرة أن الموت جزء من دورة الحياة لا طارئ عليها، وبهذا طوت صفحة حزنها تلك وإنطلقت لشبابها الذي تفتح على عتبات عهد البلاد الجمهوري، الذي رأت في جهده تشويها متعمدا لكل ما هو جميل وأصيل في حياة العائلة.، ولهذا إهتمت بها سعاد خانم

وقربتها منها، من دون باقي أحفادها غير الشرعيين، لولا إنها كانت أول من أدخل عادة الأولاد غير الشرعيين من النساء ذوات الأصول الاستعمارية إلى تاريخ العائلة، ذلك الفعل الذي وجدت فيه سعاد خانم الدليل القاطع على صحة رؤيتها الطبقية في أن أولاد السوقة والخدم لن ترتفع أنوفهم على روائح المطابخ ونتانة أزقة الحواري الضيقة. ولكن، وكعادة سعاد خانم في لملمة دماء العائلة، ولو من أجل أن تدفن بالوقار الذي تستحق، فإنها قررت ضم إبن ليز إلى أطفال القصر، عند ولادته، بعد أن أجبرت أبوه ، وكان أستاذا جامعيا حديث التخرج، على الزواج من ليز بالطريقة القانونية، إلا أن ليز رفضت الفكرة بنفس الطريقة التي أنفت بها أن تكون زوجة لجبان مثله، لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه أمام جبروت سعاد خانم، فطلبت من الحاكم الذي سجل العقد أن يطلقها منه في نفس اللحظة، فرفض الحاكم طلبها بحجتين، الأولى بعدم جواز الطلاق بتلك الطريقة، شرعا وقانونا، والثانية لرفض الزوج للطلاق.. ولكن سرعان ما تراجع الحاكم عن موقفه أمام هيبة سعاد خانم عندما قالت له..

- الشرع أنا من يتحمل إثم معصيته لا أنت! أما القانون الذي أرسينا نحن قواعده، فإنتم الذين تجرأتم على حرمته، ليصير إبن نجار التوابيت رئيسا للوزراء وكاتب ضبط المحكمة حاكما شرعيا!

الزوج الذي أجبر على الطلاق ظل متمسكا بإبنه، رغم نبوءة ليز بأنه سيولد ميتا، ولم يوقفه عن تلك المطالبة بحضانته إلا إخبار سعاد خانم له بأن ثروة ومجد العائلة لا تقسم إلى حصص، بل يورثان للانقى دما والأكفأ في أدارتهما والمحافظة عليهما كممول لديمومة العائلة وحفظ كرامتها

من العوز والمهن الرثة التي لا تليق بها... وهذا الوريث لا يكون ذكرا إلا في حالات غياب النساء اللائي يورثن الرجولة في رحم العائلة.. وهي الكلمة عينها التي رددتها عليها أمها، خلال تلك الفترة، إذ أحست بدنو أجلها، فإستدعتها لتلقنها أسرار مجد العائلة وطرق المحافظة على ثروتها، التي هي سر أسرار ذلك المجد. حقيقة الأمر أن سعاد خانم تمسكت بإبن ليز من أجل كسر الرقم المفرد لعدد أحفادها، والذي كان ثلاثة وعشرين، إذ حولت التجارب العدد الذي يحوي الرقم ثلاثة إلى كابوس، لا يذكرها إلا بيوم الثمانية الذي راح ضحية غدره الفلسفي ثمانية من أنصع أحفادها غير الشرعيين، والمطعمين بثمانية من أنقى العروق الأوربية. في أثناء فترة تلقين سؤدد خانم أسرار مجد العائلة لسعاد، أحست بعدم جدية سعاد لتحمل مسؤولية تلك الأسرار والعمل بها فسألتها عن السبب فأجابت سعاد بنظرة طائشة في الأفق، وكأنها تتلقى إلهاما ماورائيا..

- لأني أحسني سأجمع باقي أوراق هذا المجد إلى نهايته.

إصفر وجه الأم وتداعت وأخذت بالانهيار السريع إلى بركة منسية والكلمات تتطاير من بين أسنانها نتفا، أسفا على ذلك المجد التي كانت ترى فيه الأمل في إعادة الأمور إلى نصابها من إنقلاب إبن النجار إلى هزيمة صدام حسين. وقبل أن تستسلم إلى غيبوبة هذياناتها المحمومة، إستدعت سعاد لتسلمها مفاتيح ذلك المجد، ولكن دون أسف هذه المرة، بعد أن أيقنت أن لا عودة عن ذلك الإنهيار المتعجل.، لتستسلم لقدر حسراتها وموتها البطيء بين أطقم مجدها الياقوتي وذكرياتها الملكية. لم يحضر جنازة سؤدد خانم غير أفراد العائلة، بسبب تبخر أغلب عوائل العراقة الارستقراطية، بين فعلي الهجرة أو الموت القسريين، بعد أن حل زمن السكوت

والجلوس في البيوت، بهيبة قراره الرسمي الذي وقعه صدام حسين دون قراءة مضمونه. جهاز المخابرات، وبقرار موقع من رئيسه، منع المسكينة سعاد نوري السعيد من المشاركة في جنازة سؤدد خانم، رغم ما كانت تعانيه من خذلان القدر لمصيرها، وهي ترزح تحت ثقل عنوستها في أحد دور رعاية المسنين المنسية. دفنت سؤدد خانم في مدفن العائلة في مقبرة العائلة التاريخية في جانب الكرخ، ووفق طقوس وعادات العائلة التي تزين مواكب الجنازات ومراسم الدفن وتربة القبر بباقات الآس والشموع التي تظل موقودة لمدة سبعة أيام بلياليها لتهدي روح المتوفي إلى سرمديتها دون تعثر. جنازة سؤدد كانت أول الجنازات التي تشارك سعاد في تشييعها وهي في سن النضج، ومن هنا جاء رد فعلها العاصف على رجل الدين العتيق الذي يتولى قيادة طقوس عملية الدفن، عندما بدأ بتلقين سؤدد خانم إذ زجرته بعنف..

ـ أيها العجوز، دعها وشأنها بحق الرب، فهي لم تلتفت لتلقيناتك وهي حية، فلم ستلتفت إليها الآن؟ لحظتها سألتها شغف الثانية..

ـ لم كنت عنيفة هكذا مع ذلك العجوز؟

ـ لم أشعر يوما بحاجة لمثل هذا.

ـ ماذا تعنين بالضبط؟ فأجابت وهي تلقي بأكبر ليرة ذهبية من ميراث مجد العائلة مع قبضة تراب إلى داخل القبر، جريا على إحدى عادات العائلة..

ـ لم أحس بفراغ بهذا الإتجاه يوما، على الإطلاق. بعد نهاية حفل تأبين سؤدد خانم في يوم رحيلها السابع، دخلت سعاد خانم إلى غرفة الإرث الرمزي لثروة ومجد العائلة، والتي لا يدخلها أحد غير الوريث، لتجد أن ذلك الإرث يتكون من ألفين وتسعة عشر ليرة ذهبية، وثلاثة عشر طقما من

الياقوت الأحمر، إلى جانب خزائن المال وسندات ملكية القصور والعقارات والإقطاعيات. هزت رأسها بإستغراب..
- لا غرابة، فبمثل هذه الأوهام الصغيرة تبنى الحكايات الكبيرة.. هل ثمة ما هو أجمل من الوهم اللذيذ؟
ولأنها كانت متأكدة أن أمها كانت آخر حاضنات ذلك الإرث - الذي لم يصدأ مجده لعدم إستخدامه لا لأثر قيمته - فإنها رأت أن تناقش أمره مع إبنتيها، فتساءلت شغف بشفافيتها المعهودة..
- أحقاً هذا كل شيء؟ ظننت إنه سيكون كتابا للسحر الأسود أو نحوه. ثم غرقت في ضحكتها الساخرة. أما سؤدد فأكتفت بإبداء دهشتها من فداحة الفعل..
- أي عقل جبار الذي صنع كل هذا الوهم؟ وعادت لتغلق باب غرفتها، ولتترك سعاد خانم بأستغرابها من قسوة حصار البنت لنفسها، ذلك الحصار الذي لم يكن خيارا بقدر ما كان عقوبة للنفس على غيرتها التي مبعثها الشعور بالدونية تجاه كمال أناقة شغف وجاذبية كل تفاصيلها من رنة صوتها الملائكي إلى نقرة كعب حذائها العالي... وأيضا، وهو الأهم، إستئثارها بالعامل الأنكليزي دون بذل أكثر من حضورها الآسر، وكأنها ولدت لتخدمها عناية ما ودون أن تكلف نفسها طلب تلك الخدمة حتى.
وحدها ليز التي كانت تعرف حجم تلك الغيرة وما يرافقها من ألم الحقد الذي كان يكفي لقتل نصف سكان الكرة الجنوبي، كما كانت تقول.. لذا فإنها، وفي ساعة غياب عن الواقع، قررت مناقشة أمر إخراج سؤدد من زمن حروبها الصامتة، مع جدتها، ومن المنعطف الأقرب إلى قلب النار..
- هل كنت أتممت العشرين عندما تزوجتي؟ فجاء الجواب هادئا..

- ليس تماما. فقالت ليز بنفس الهدوء..
- العمة سؤدد أتمتها قبل اسبوعين.. وبعد لحظة تفكير سألت الجدة بأنفها الثعلبي..
- وهل شغف التي لم تتمها ليز؟ فردت ليز بحكمتها الامومية..
- شغف ولدت بعمرها كاملا يا جدتي.
في اليوم التالي، وبعد عودة سعاد خانم من أحد قبولاتها، إختلت بسؤدد لتعرض عليها خطبة إبن سفير البلاد السابق في جزر القمر، فردت سؤدد بحنكة الحقد المتأصلة..
- ولم لا يكون إبن السفير هذا من نصيب شغف التي تكبرني بأربع سنوات كاملة؟ فعلقت ليز بيأس أصيل..
- لن تدعها تمتاز عليها بشيء حتى لو كان موتا رحيما ذلك الشيء.. وقبل أن تخلد ليز إلى وسادة يأسها، إقترحت عليها الجدة أن تستطلع رأي شغف بالفكرة فرفضت ليز..
- إنها شغف يا جدتي.. كلا أرجوك. فأومأت الجدة برأسها موافقة، وقررت ترك الأمر عند تلك المحاولة، لا ليأسها منه وحسب وإنما لأن ابنتيها ليستا أول عوانس العائلة، كما إنها لم يكن عندها فائض وقت تضيعه على عنادهما الميؤس منه تماما، لأن ولدها الثالث، حافظ، ولد وهو بحاجة لعناية خاصة، بسبب عدم إنسجامه مع دورة زمنه.. كما إنه كان متلكئا في تعامله مع شؤونه، من آلية دخوله الحمام إلى طريقة تعامله مع أقداره، ما غير إتجاهات الكثير من تصاريفها العاجلة وحولها إلى ترتيبات خدمية، كما كانت ترى.. ولذا، وفي السادسة عشر من عمره، يئست من أمره فسألت ليز بشأنه فلم تجد الأخيرة أنجع من تجربة جنس خاطفة، تقلب موازينه وتعيد ترتيب آليات تقبلاته. وبعد تأجيل طويل منحتها الجدة موافقتها على أن تتم الوقيعة

بعيدا عن القصر ودون علم أحد من أفراد العائلة. ولم تحتاج ليز لجهد كبير لأقناع إحدى خادمات القصر، غير المقيمات، في سحبه إلى زاوية وجعها الخاص، كخدمة يفرضها الوفاء الأخلاقي للعائلة، كما عللت طلبها ليز، دون أن تدرك رغبة الخادمة في إنجاب طفل من أحد رجال العائلة، حتى وإن لم تعترف به سعاد خانم. ولكن حافظ لم يكن متعاونا حتى في هذا الجانب بسبب إضطراب قانون تقبلاته، رغم إلحاح حاجته عليه. لذا فإن الخادمة إضطرت لسحبه من ياقة تلك الحاجة بآلية الصدم المتتابع. فبينما كانت تقدم له فطور أحد أيام عزلته الخاملة في غرفة نومه، فتحت الجزء الأعلى من قميصها لتترك عري نهديها يلفحه بزلزاله المشل لحركة اللسان عبر غلالة شفيفة من الدانتيل الأزرق.. غص الشاب بجرعة الشاي وسعل حتى سقطت نظارته الطبية في صحن فطوره، فرفعت طرف تنورتها إلى ما فوق إغفاءة روميو وجوليت، على قلب سروالها الداخلي، لتمسح النظارة قبل أن تعيد وضعها على عينيه وهي تدفع نهديها في وجهه لتلفحه برائحة الأنوثة، قبل أن تنزل تنورتها وترمقه بنظرة دعوتها وتعود للمطبخ. أمضى حافظ ساعات ذلك اليوم يدور حول نفسه محموما، وطلب العشرات من فناجين الشاي والقهوة، التي لم تكن به رغبة لشربها، كما طلب صنوفا من أطعمة لم يتذوقها من قبل، بإنتظار أن يحل المساء وتحين ساعة إنصراف الخادمة إلى بيتها. في ظلمة المساء قادته عبر عطفات لا يقطع صمتها غير مواء القطط ونباح الكلاب الضالة لتحدثه عن حفريات الوحدة في لياليها وعن إغتصابات الانتظار لجسد زمنها المعلق إلى أهداب الرجاء دون أمل. كان اسمها صدى وتنحدر من اصول روسية هي الأخرى، وورثت عمل الخدمة في البيوت من خالتها التي

هربت بها إلى العراق من تركيا، حيث أمضت جدتها عشرين عاما كسبية لأحد قواد الجيش العثماني، والذي أسرها وهي في الرابعة من عمرها، في إحدى معارك حروب الدولة التي لم تنتهي إلا بنهاية سلطانها. لم ترو له قصتها تلك إعجابا منها بتاريخها الشخصي أو لاثارة شفقته، بل من أجل أن تدخله إلى سريرها بلا توتر يختصر مراحل إلم جسديهما.. إلا أنه وبمجرد مواجهته لإندلاع عريها الفاتن، ندت منه صرخة خانقة..

- هل كنت تعرفين أن هذا ما كان يحرمني النوم طوال السنوات الثلاث الماضية؟ فأومأت برأسها موافقة، فشدها من شعرها ليسحبها إلى السرير..

- يا لوحشيتك إذن.. وسقط فوقها كجمل هده الحقد وهو ينتظر وجه غريمه. وقبل وصولهما إلى جزيرة قبرص بمسافة ذراع واحد غمغم..

- الأمر ببساطة الإسترخاء في مغطس الحمام لا أكثر.. ماذا كان سيكلفك لو كنت أخذت بيدي من ساعتها؟ فغمغمت بأجفان ناعسة..

- لا شيء أكثر من أنه كان سيجنبني ما تنغص به علي لحظة إختياري هذه.

بعد عودتهما من جزيرة قبرص إلى أرض الواقع تحرر من خذلانه، وكأنه إمتلك ناصية الحقيقة فتساءل ..

- هل علي أن أموت الآن؟ فردت هي بشيء من السخرية..

- ربما، وربما عليك الانتظار قليلا كما يفعل الجميع.

تلك الليلة أثمرت بنتا أخرى في سلسلة الأبناء غير الشرعيين في حياة العائلة..، وأيضا قرار تصفية حافظ رستم وجميل رستم وفي ظروف عصية على التصنيف، ذكرت البلاد والطبقة السياسية القديمة بحادث مقتل الملك غازي

لتشابه طريقة التصفية بحادث إصطدام سيارة أجرة بعامود كهرباء ينجو السائق منه بإعجوبة ليختفي في ظروف غامضة. سعاد خانم علقت على حادث مقتل ابنها وحفيدها الغامض بحكمتها السياسية الفطرية..

- هذان الغبيان لم يفهما أننا لا نسعى إلى السلطة إنما هي التي تسعى إلينا، لأننا نحن الذين صنعناها لا هي التي تصنعنا، كما تفعل مع رعاع الجمهورية... ولكنه عرق هذا السوقي عبدالكريم رستم الذي لن أملك منه فكاكا حتى لو إسبدلت دمه ودماء أولادها بدماء ملوك العالم كلهم. شغف الثانية وحدها التي ربطت بين حادث موت أخيها وابن أخيها وصمت العامل الإنكليزي. ولذا فإنها، وبمقابلة سريعة معه في أروقة كلية الحقوق وضعت حدا لوجوده في العراق وفي سفارة بلاده وفي الوجود ذاته، إذ أخبرته بلهجة عصبية ليست من طبعها..

- لم يعد الصمت الانكليزي يلائم أي مزاج على الأرض.. نصيحتي أن تأخذ رفات المس بيل معك ، لأن صمت قبرها يزعجنا تماما.

في صباح اليوم التالي وجد أحد موظفي السفارة البريطانية جثة العامل الانكليزي مغرقة في صمت أكثر رهانا من صمته الذي عرف به في حياته، مع قصاصة توصي بدفنه في المقبرة البريطانية في قلب بغداد ليكون قريبا من حبيبته في موته على الأقل... وبصمت كامل. ما فات ذلك العامل هو أن طلبه هذا كان كفيلا بجعل موته أشهر من موت المس بيل وأن يثير لغطا أعمق من لغط قبرها الذي تداوم السفارة البريطانية على حراسته والعناية بحوض زهوره إلى يومنا هذا بصمت تام.. وبالفعل فإن خبر إنتحاره كان أول ما سمعت شغف الثانية وهي تدخل أروقة كلية الحقوق، في صبيحة

ذلك اليوم فإستدارت كالمنومة عائدة ألى غرفتها تلجمها خيانة حدسها وغياب حواسها عن مصادر الألم..، فأغلقت باب غرفتها على نفسها وأسلمت نفسها لصمت تكفيري فاق صمت ذلك العامل برماديته. لم تشعر سعاد خانم بصمت شغف ذاك، كباقي أفراد العائلة، لا لإنشغالها بموت إبنها وحفيدها، وإنما لعمق ذاك الصمت وسيطرته الكاملة على مساحة وجود شغف.. رفضت جثة جميل رستم أن تدفن في مقبرة أبناء العائلة غير الشرعيين، التي كان والد سعاد خانم، مكي الحافظ قد إرتجلها لدفن أبناء حفيده غازي غير الشرعيين، بعيدا عن جثة العم حافظ.. فقد ظل جرح الجثة يغرق حفرة القبر بدمائه رغم تغيير القبر لأكثر من عشر مرات، وفي كل مرة كان يتم فيها إنزال الجثة إلى قبرها الجديد كانت حفرة القبر تتحول إلى بركة دم تغرق عمال الدفن حتى رقابهم.. وبنفس الحاح الجثة إستمر الباشا مكي الحافظ على تجاهل تفسير حفيدة أبنته، شغف الثالثة، في رغبة الجثة في أن تدفن إلى جوار جثة حفيده حافظ، إلى أن أضطرها لأن تأمر رعيل أصدقائها من الأشباح لنقل الجثة إلى مدفن العائلة الخاص في مقبرة الشيخ معروف لدفنها إلى جوار جثة العم حافظ. ووسط دهشة العائلة وذهول رجل الدين الذي يرعى مراسم دفن أفراد العائلة وعمال الدفن، طارت الجثة بتابوتها الأبنوسي محلقة فوق رؤوسهم بصورة مستقيمة لتخرج من بوابة المقبرة سالكة الطرق عينها التي تقود إلى مقبرة الشيخ معروف، الأمر الذي إضطر الجميع لركوب سياراتهم وإتباع خطى الموكب الطائر إلى أن وضعها الأشباح أمام باب المدفن المهيب بإبهته الأرستقراطية المتسلطة.، عندها إضطر عمال الدفن لحفر القبر الثالث عشر إلى جوار قبر حافظ وسط إستنكار الباشا

مكي الحافظ وسعاد خانم المكتوم. وبعد إتمام عملية الحفر نزل التابوت لوحده ألى قعر الحفرة، وسط دهشة وتكبيرات وصلوات رجل الدين وصمت ذهول أفراد العائلة الذين ظلوا ينتظرون تفسير رجل الدين بنفس درجة الصمت، وقد حار ذلك الرجل المثقل بأعباء تقاه وسنواته المائة في تفسير تلك الحادثة وتحديد أسباب حدوثها وتصنيفها مرجعيا.. ففي حين ذكر فعل طيران الجثة عمال الدفن بقصة طيران خزانة الملابس التي نذرتها إحدى النساء لأحد الأئمة، لعدم وفائها بنذرها، رفض رجل الدين قبول مجرد فكرة التشبيه بسبب أن الجثة كانت لولد غير شرعي، إضافة إلى ان أمه غير مسلمة، وعليه فلا يمكن أن تحظى هذه الجثة بمثل ذلك التكريم. وفي النهاية إستقر رأيه على أن الأمر لا يعدو أن يكون دليلا على أن صاحب الجثة قد قتل ظلما، وان ذلك الظلم قد طهر جثته من أدران شركه، ولهذا فإنها قد رفعت لتدفن في مكان طاهر يليق بطهارتها الجديدة . قبل الجميع بتفسير رجل الدين، بإستثناء وزيري العائلة وشغف الثانية، وذلك لعدم إنسجام ذلك التفسير مع مزاج الوزيرين السياسي ومزاج شغف المادي. ففي حين أصر الوزيران على أن الأمر لا يعدو أن يكون إحدى ألاعيب رجل الدين ذاته، من أجل تعزيز سطوة الدين بين البسطاء، رأت شغف أن الأمر ليس أكثر من عملية رفض كهرومغناطيسي ناتج عن تشابه شحنتي الجثة وبقعة الأرض تلك. أما سعاد خانم فقد دحضت الرأيين بالإثني عشر من برك الدم التي أحدثها تكرار دفن الجثة في مقبرة الأبناء غير الشرعيين، وأصرت على حساب الأمر على سلسلة المعجزات الخفية المصدر التي ظنت أنها تقف وراء عسر الهضم الذي عانى منه جميع أفراد العائلة، طوال الاسبوع الذي أعقب دفن جثة مكي وجميل. ولأن سعاد

خانم لم تتذكر ليلة غرامها التي أعقبت عودة عبدالكريم رستم من إجازة خوفه التي قضاها في بريطانيا، عقب إنقلاب إبن النجار وإبن البزاز، فأنها كانت أشد أفراد العائلة معاناة من عسر الهضم ذاك. فقد أمضت عامين وثلاثة أشهر كاملة وهي تعاني من ألم في أسفل معدتها، وبما أن وجع المعدة ذاك شمل جميع أفراد العائلة، فإنها رفضت نتائج الفحص السريري التي أكدت أنها حامل وعلى وشك الوضع وقالت لطبيب العائلة..

- ليس من المعقول أن يكون جميع أفراد العائلة على وشك الوضع لأن الجميع يعانون من نفس الأعراض.

ووسط ذلك الجدل وضعت سعاد خانم بنتا سماوية الروح وملمسها ولون بشرتها مطريان، وعيناها وشعرها بلون البحر، وجسدها صقيل كلوح زجاج. وبعد اسبوع من الرفض الاحتجاجي، إستسلمت سعاد لقدرها وقبلت بوضعها كأم من جديد بقولها..

- بين حقبة وأخرى تحتاج البشرية لمثل هذه الخوارق لكسر رتابة حياتها ولإخراج الناس من رتابة الحديث اليومي للحيلولة دون تعفنهم من النميمة.

إلا أن الطفلة البحرية وضعتها أمام تحد فاق مشكلة حملها المدغم الطويل وظروف ولادتها المفزعة: إيجاد إسم يناسب شفافيتها المطرية ووقع جمالها البحري المذهل، ويطابق ميزاجها المطري الخارق لقواعد المألوفات. شقيقتها شغف ذاتها، والتي أعادت تسمية أبناء غازي ، ذوي الأسماء الإستعمارية، وجدت نفسها عاجزة عن إيجاد إسم يوائم شفافية وعذوبة المولودة الملائكية.. بل انها شككت بنسبها إلى العائلة بقولها..

- لابد أن هذه الشقيقة قد سقطت سهوا في رحم الماما، لأنها

لم تكتفي بعدم شبهها بنا، بتكويننا البايلوجي والعرقي وحسب، بل إنها إحتاجت لزمن ثلاث دورات حمل لتكوينها وخروجها.
أما شغف الثالثة فتنبأت بنهاية حرب طويلة في يوم مشروع زواجها الذي سيوافق يوم موقع ولادتها من الشهر نفسه، وان نهاية تلك الحرب ستطابق اليوم والشهر نفسهما من يوم إقصائها عن الحياة.
أما ليز فتساءلت، بصفاء حسها، إن كانت عمتها الجديدة ستحب وستتزوج كباقي النساء أم ستنتظر يوم أن تنبت لها جناحا الملاك لتطير إلى السماء لتلتحق بأسراب الملائكة التي تتحدث عنها قصص الإنجيل. وإستمر الجدل حول إسم المولودة وكاد أن يتحول إلى قضية رأي عام، لأن رجل الدين الذي لقنها أركان دينها وكبر في أذنيها لم يجد بين نساء الرعيل الأول من ينطبق إسمها على حس الفتاة البحري وأناقة مظهرها الكريستالي فركن إلى رأي مقارب لرأي شغف الثانية إذ قال..
- إنها مختلفة في كل شيء عما ألفنا في نسائنا، فلابد والحال هذه، أن تكون من أهل الجنة .
ورغم أن الأيام قد أثبتت خطل ذلك الرأي، لنشأة الفتاة نشأة طبيعية، إلا أنها بقيت دون إسم، وظلت العائلة تدعوها بفتاة البحر والفتاة البحرية والعروس المطرية إلى أن كبرت وصارت في سن دخول المدرسة. وفي يوم أيلولي قائظ إصطحبتها شغف الثانية لتسجلها في المدرسة الأمريكية - وهي مدرسة كانت قد بنتها السفارةالأمريكية في حي المنصور الأرستقراطي لبنات موظفي السفارة - وهي محتارة بم ستجيب مديرة المدرسة عندما ستسألها عن أسم البنت فربتت الفتاة البحرية على كف شقيقتها وقالت

مطمئنة..
- لا تقلقي أيتها الغيمة الخاملة، إسمي معلق في سماء المدرسة وسيهبط حال إكتماله.
وبالفعل هبط الإسم على جناح فراشة لازوردية حال سؤال مديرة المدرسة لشغف عن إسم الفتاة البحرية.. هبطت الفراشة من سقف مكتب الادارة لتحط على طرف قلم المديرة ونثرت الإسم من كحل جناحيها وبلون ماء البحر ليثبت في محله على الورق: (بابيون)، فسألتها المديرة..
- أهذا إسمك؟ فأومأت الفتاة البحرية برأسها. ورغم مرافقة تلك الفراشة لبابيون إلى البيت وأتخاذها من حوض زهور غرفة نومها مسكنا لها إلا أن أغلب أطفال العائلة وشقيقها غازي لم يقتنعوا بمناسبة الإسم لصفائها البحري وجمالها الملائكي، وداوم أغلب أبناء العائلة غير الشرعيين وخادمتي الأصول الروسية على مناداتها بفتاة وحورية البحر إلى أن بلغت سن الزواج. أحدثت ولادة بابيون إنقلابا نفسيا وإنفلاتا روحيا لدى أغلب بنات العائلة، بما فيهن بنات أشقائها غير الشرعيات. فلأول مرة، وفي نفس لحظة الولادة، أحست سؤدد بحركة مشاعرها الأنثوية وبغريزة الأمومة في داخلها.. كما حررها ذلك الحادث من عقد حقدها المتكلس لتقترب من شقيقتها البحرية بحنان أمومي ولتعلن لأمها عن رغبتها ودون خجل..
- آن لي أن أتزوج وأن أنجب حورية بحر ثانية تبدد بعض أوهام هذا البيت.
إلا أن سعاد خانم ردعتها بقولها..
- بل هي أوهام تكلسك في أوهامك الخاصة، فهذا البيت ولد بنبله الخاص الذي لا تطاله الأوهام. وبعد لحظة إستردت فيها أنفاسها أضافت - إن كانت لهذا البيت أوهام فهي

أوهامه السماوية التي ولد منها.
ليز التي كانت قد ولدت بنفس مزاج بابيون البحري وشفافيتها، كانت أكثر أفراد العائلة فرحا بولادة بابيون لمطابقتها لها بميزاجها البحري ولإنسجام تواثباتهما الروحية وتطلعاتهما المنفلتة من عقال الفيزيائي والأرضي من هموم الشيء اليومي. ومن يوم تعلم بابيون للكلام إهتمت ليز بثقافتها كي تخلصها مما كانت تصفه بعقد العائلة، ولتحميها من تراكماتها النفسية، ولتجنبها مصير شقيقتيها المناقض لسنن الطبيعة في طريقة أخذهن للحياة وإنغلاقهن بوجه تقلبات رياحها. ولأن ولادة بابيون جاءت بعد بلوغ سعاد خانم سن اليأس فإنها رأت في تلك الولادة إنقلابا ثوريا على نظام الطبيعة الأصم.. ولكنها أيضا لم تطمئن أن تنشأ إبنتها نشأة سوقية على يد بنت خادمة مثل ليز، وعدت ذلك إنقلابا على تراث العائلة ونظامها الأخلاقي..
إلا أن شغف الثانية طمأنتها بقولها..
- حتى طباع وأخلاق الملوك تتطور وترتقي إلى بساطات غير مخلة من مثل تخلي ملوك وأمراء بريطانيا الذكور عن لبس التنورة التي كانوا يلبسون في طقوسهم الملكية وقراءتهم لصحف المعارضة التي تسخر بتلك العادة الطقسية، فصمتت سعاد دون أن يبدو عليها ظل من قناعة، ولهذا فإنها عمدت إلى بكرها غازي لتسأله عن أصل والدة ليز الطبقي فأجابها بسخريته المعتادة..
- إنها أميرة من أميرات ويلز، ولكنها حرمت من لقبها بقرار كنسي لعدم موظبتها على حضور قداس يوم الأحد.
- ولكن الكنيسة فقدت هذه السطوة من قبل قدوم البريطانيين إلينا بزمن؟
- إلا مع الامراء والملوك لأنهم الوحيدون القادرون على

حفظ وجه الله بين العوام.
ورغم عدم تصديقها لتلك الرواية إلا أنها فضلت الركون إليها تبديدا لشكوكها، أولا لثقتها بإستقامة ليز الفطرية، وثانيا لأنها كانت بحاجة لتلك الثقة التي تخلصها من الرعاية المباشرة لبابيون التي لم تطمئن لترك أمر تربيتها لخادمات القصر،لحين بلوغ بابيون سن الخامسة عشر، السن الذي سيفضح معالم شخصيتها ، ويصدق أو يكذب حدوس سعاد في أن تكون شبيهتها وسليلة أصيلة لمجد العائلة وتحفظه من الزوال، كما تنبأت هي ووطنت نفسها على تلك النبوءة.
إلا أن اللطمة التي أحبطت ذلك الحلم وأحالته إلى كابوس يأس من مصير كل عائلتها، جاءت سريعة وقاضية، عندما دخلت إبنتها سؤدد في ظهيرة ذلك اليوم نفسه وهي تجر شابا متنمرا، بوجه جائع حاقد لتقول للعائلة..
- سأتزوج هذا الرجل الوطني الذي أفنى شبابه في محاربة الإقطاع والرجعية.. فسألها والدها، الذي أعادته بطالة الجمهورية إلى مظهره القروي..
- ومن هما الإقطاع والرجعية اللذان حاربهما هذا الصبي الحاقد؟ فأجابت ببغائية ثورية..
- إنهما أعداء الثورة والنظام الإشتراكي الجديد. وعندما هم بفتح فمه لطرح سؤال الأسئلة لكزته سعاد بمرفقها وهمست في أذنه..
- لا تنسى إن العصا بيد أمثاله من قواد الثورة والاشتراكية التي تتحدث إبنتك عنها. فغير وجهته وهو يرتجف غيظا ليقول..
- آه! الآن فهمت! والآن تريدين أن تتزوجي الرفيق المناظل الواقف أمامي من أجل صيانة روح الثورة؟
فأومأت برأسها موافقة، فصرخ بهما بكامل الحقد

الأرستقراطي الذي إكتسبه من ظلال كرسي الوزارة وبورجوازية الحياة في قصر زوجته..
- أنا لن أوافق على هذا الزواج فما قولك؟ فرد الرفيق بحقده الآيديولوجي المزمن..
- لماذا يا عمي؟ هل تعرف أنت من ترفض قبل أن ترفض؟ فقال الوزير السابق ببقايا أنفته الوزارية..
- الكلام لم يكن موجها إليك يا ولد. فقالت سؤدد متلعثمة..
- آسفة بابا، أنا سأتزوجه ... فصرخ الوزير قبل أن يسقط مغميا عليه..
- أغربي إذن عن وجهي ولا تذكري إإنتسابك لي في عقد زواجك!

أمضى عبدالكريم رستم الأشهر الثلاثة التالية لتلك الحادثة وهو يجتر ألم تلك الإهانة التي حمل زوجته مسؤوليتها، لأنها هي من أورثت إبنته ذلك الصلف بسوء تربيتها لأولاده.. وفي سره كان يهمس لنفسه بذل تام..
- هذا هو الزواج ببنات الوزراء، لا يورث إلا مهانة الأبناء.

كان إسم الرفيق المناضل، زوج سؤدد، فهمي مراد.. وكان أحد أعضاء فروع المكتب القيادي للحزب القائد في العاصمة.. ولقربه من أحد كبار قادة الثورة ولوسامته الطافحة أختير ضمن فريق العمل الذي أوكلت له تصفية كبار ضباط جيش الحقبة السابقة. كان مثل ستار سبع العبوسي - قاتل العائلة المالكة العراقية - مولعا بتصفية العوائل الأرستقراطية بحقد طبقي عصي على التصنيف. بعد تخرجه من كلية الأمن القومي التابعة لجهاز المخابرات، أمضى أسابيعا طويلة في إستجواب حلاق الملوك -الحلاق الذي كان يحلق للملك غازي والملك فيصل الثاني والوصي على عرش العراق والباشا نوري السعيد وكبار قادة ووزراء العهد

الملكي - وهو يتخفى تحت صفة صحفي، إلى أن باح له الحلاق العجوز - بحسن طويته التي لم تفسدها إنقلابات وتقلبات العهد الجديد وفساد قادتها - بأسماء وعناوين من تبقى من وزراء وضباط العهد المباد. وبحسه الأمني الذي لا يخطئ، عين عائلة العقيد أركان حرب، عبدالكريم رستم، كهدف أول لواجبه الحزبي المقدس، ولكن بصفته ضابطا عسكريا لا بصفته وزيرا سابقا للعدلية. وبعد مراقبة شهر كامل لمواعيد (قبولات) سعاد خانم ونزهات شغف الثانية وسؤدد المسائية، حدد سؤدد كهدف لين سهل الإختراق لحربه الوطنية الصامتة، بعد أن يأس من صمت وإعلاء شغف الروحي اللذين نزهاها عن رصيف الدنيويات القابلة للإنكسار. ورغم أنه في ساحة الحب، لم يكن أكثر من مراهق ساذج مفتون بوسامته، إلا أن طوله الفارع وجسده المفتول كانا كافيين لإيقاع سؤدد في شرك الفحولة، التي سبق وأن تذوقت مباهج ألمها اللذيذ في برعم إبن شقيقها الأسكتلندي السكب. لم تكن سؤدد بحاجة لأكثر من تلوين إنقلابات الجسد وثورة إختراقاته، بطعم فطائر المراهقة، إلا أن الرفيق فهمي أمضى شهورا ثلاثة في تلقينها أيدولوجية الثورة التي يخدم أهدافها ومكاسبها، ليس أيمانا منه بأهميتها لحالة سؤدد، إنما تطبيقا لحرفية ما لقن في دورة إعداده الحزبي، كمناضل ثوري يخلص لمبادئه. في لقائهما الأول إستوقفها بخيلائه الطاووسي ليسألها عن موقع المدرسة الأمريكية التي درست فيها مرحلتها الإبتدائية وعن إحدى معلماتها التي لم تسمع بإسمها طوال سنوات دراستها. وفي المرة الثانية إعترض طريق عبورها لشارع الأميرات، وهو يوقف سيارته - الفولكا روسية الصنع - بهديرها المزعج وعادمها الخانق - ليسمح لها بالعبور بابتسامته

البلهاء وبحركة مسرحية من يده. وفي المرة الثالثة حاذاها بنفس السيارة، التي تعود ملكيتها لمقر عمله، ليتمنى لها مساء سعيدا وليعرض عليها نزهة على شاطئ نهر دجلة، إلا أنها رفضت، رغم إنها كانت تتحرق إلى أن تكون بين ذراعيه في تلك اللحظة. ولكن ، ولنكوص أصاب قدراتها الدفاعية، قبلت دعوته في اليوم التالي لنزهة مسائية، وبعد جولة على شاطئ النهر، أفسد شاعريتها عادم سيارته المتهالكة الذي كان يتسرب إلى داخل السيارة، سمحت له أن يمسك كفها وأن يلقي على مسامعها قصيدة غزل من مقرارات منهج التعليم الثانوي التي كانت تحفظها عن ظهر قلب، وأن يقول لها أحبك دون أن تجرؤ على السخرية من سذاجته. وتوالت لقاءاتهما وأنسحاقها تحت سطوة نظراته إلى أن حانت الساعة التي ظن فيها أنها صارت ضمن دائرة سيطرته فمال عليها ليقبلها فسدت الطريق أمامه بكف راعشة وقالت بصوت تخنقه الرغبة..

ـ كلا أرجوك، لا أريد الإحتراق في مثل هذا الفرن المتحرك، بل على سرير الزوجية. وبعد شهرين طويلين من الصبر الحديدي، قضاهما في إستحصال الموافقات الحزبية والأمنية على زواجه، أسلم لها عنانه لتقوده إلى بيت العائلة لتطلب منها تزويجها له، بطريقة إستنكرتها سعاد خانم وذكرت الوزير عبدالكريم رستم بحادث قياده المذل المماثل. وبعد اسبوع من يأس المداورة والتقريع والتهديد، توصلت سعاد خانم إلى أن عناد إبنتها أشق من عنادها هي فإستسلمت لإرادة قدر ضال آخر، وقادت سؤدد إلى مذبح زواج بلا هوية، بعد أن رفضت شغف الثانية الإفتاء بشأن ذلك الزواج بأكثر من قولها..

ـ الكل كخنافس الروث، يولد ليكور روث الحياة أما على

شكل زواج أو على شكل منصب سياسي.
وبعد شهر من التحضيرات المضنية، وقفت سؤدد أمام قاضي المحكمة الشرعية، بثقل أنوثتها الملكية، يكللها تاج من اللؤلؤ المطعم بالياقوت الأحمر، كأميرة إسبانية من قرون ما قبل الثورة الصناعية، بسبب إنتفاخ فستان عرسها وطول أكمامه غير المبرر، بسبب من إصرار سعاد خانم أن يكون كفساتين الأميرات البريطانيات في مطلع القرن، وبتنورة سلكية منتفخة وبذيل دانتيل بورود لاصفة تحمله وصيفتان من حفيداتها غير الشرعيات، من أجل أبهة الزواج وتاريخيته.. ولم تكن تلك التاريخية برأي ليز ، أكثر من بضعة صور، بالأبيض والأسود، مع سيدات من عهد ولى زمانه وموديلات أزيائه. في إحدى زوايا ضجة ذلك الحفل إلتقت ليز الأستاذ الجامعي الشاحب الدم، الذي أورثها وجع عمرها كله وقلة إحترامها لذاتها - التي تعفنت بسرعة قطعة خبز - كما علقت حينها. لحظتها كانت تحت سطوة عمياء لإعتمالات وجع سروالها الداخلي فاتبعت خطوط إشاراته كالمنومة مغناطيسيا. فمن أول رؤيته لها سحرته بشرتها العسلية وأناقة إبتسامتها الملكية ولثغتها بحرف الراء، التي طوحت موسيقاها بآخر إجتهادات رصانته الأكاديمية، فبدأ ببث إشارات أشواقه تليابيثيا.، ولاستعدادها النفسي لاستقبال تلك الإشارات، تحت ضغط أوجاعها المتقدة في تلك اللحظة، سرعان ما بدأت بالبحث عن مصدر تلك الاشارات حتى اصطدمت بفورة شحوبه القاتمة. لم يفكر لحظتها في غير إمتلاك ذلك الجسد العسلي والإرتكاس في هطول تفجراته، فكثف حمى إغتصابات إشاراته لدفاعاتها النفسية والأخلاقية إلى أن تقدمت منه لتقول..
- كفى أرجوك وإلا أسقطت فستاني عني وعريتني أمام كل

هذه العيون الدبقة. إنتظرني في الخارج ريثما أتمكن من نفض دبق هذه العيون وألحق بك.
عندما تمكنت من مغافلة مذبحة العيون تلك وتسللت عبر الباب الخلفي للمطبخ، قفزت إلى جانبه في السيارة وقالت..
- أسرع أرجوك قبل أن يعود إلي عقلي ويعيدني إلى حظيرة النفاق الأجتماعي والاخلاقي صاغرة. فطمأنها بإبتسامته التي تعكس شحوب دمه..
- فات أوان ذلك النكوص لأنك الآن في مدى سطوتي.
ورغم أن حريق التجربة كان بحجم التهويل الذي يشاع عنها، إلا أنها لم تسحر ليز، وأوعزت السبب إلى مخاوف الأستاذ الجامعي في كافة تفاصيل نواياه وإستباحة التوجسات لقاموس حياته حد الإرهاق. ولهذا فسرعان ما إجتاح ليز الشعور بالخزي أمام نفسها، لإحساسها أنها أهرقت كبرياء أنوثتها في غير مكانها، لا لرداءة الفعل الذي أتت، إنما لبلاهة الرجل الذي إختارت لفض صرح مكنوناتها.
ومثل ما شرحت لأختها شغف الثالثة، بعد عودتها للبيت..
- بالكاد أمسكت نفسي عن أن أسترجع ما في معدتي لأنه لم يكن ببراءة الطفل الذي حلمت به، بأن أقوده في ثنيات أنوثتي ومخاتلها، خطوة خطوة، وأن يدعني أكتشف مراحل ضياعه بلمسات قطة. ثم ختمت حسرات ندمها تلك بقولها..
- ببساطة لم يكن الفأر الذي يوحي به مظهره الإنهزامي، إنما كان مجرد رجل يقف حيث يقف غيره من الرجال.
ثم أخذت يد شغف ووضعتها على بطنها وتأوهت راجية..
- أرجوك لا تقولي أني سأحبل منه؟ فردت شغف بنقاء إستلهامها الفطري..
- وبطفل ذكر لن يأخذ من خامة روحك شيئا بسبب رفضك الأزلي له.

ورغم عدم إقتناعها بفكرة إسقاط الجنين، لأنها ضد حسها غير الدنيوي، إلا أنها ألحت على جدتها من أجل إسقاطه، فرفضت الجدة بقولها..

- لن أقتل نفسا من أجل أن أريحك من خطأ إرتكبته بملء إرادتك.

عندها لجأت إلى شغف الثالثة ورجتها أن تستشير أشباحها بشأنه فردت شغف معتذرة..

- آسفة لأن ليس بينهم طبيب أمراض نسائية.

عند نقطة اليأس هذه، لم يبق لها غير أن تقتدي بعمتها شغف وأن تستسلم لصمت تكفيري مشابها لصمتها الذي إستسلمت له عقب إنتحار العامل الانكليزي، فأغلقت باب غرفتها على نفسها ولم يشاهدها أحد في صالة القصر أو غرفة الطعام إلا بعد أن داهمتها أول طلقات الوضع.. في تلك اللحظة فقط فتحت باب غرفتها وطرقت باب غرفة العمة شغف ورجتها أن تساعدها بصمتها الذي لا يخفق.، فرفضت العمة متعللة بجهلها بمثل تلك الأمور. إلا أن إنهيار ليز تحت ألم طلقة جديدة أجبرها على كسر حدادها الصامت وحملها لتمددها على سريرها وطلبت من سعاد ، إبنة شقيقها حافظ، التي مرت بالصدفة وهي تهدهد عروستها الباكية أن تستدعي جدتها، لجهل شغف المطبق بنصف أنوثتها الباطني.. ولكن، وبسبب إصرار عروسة سعاد على الإستمرار ببكائها وجلوسها على السلم من أجل هدهدتها مرة أخرى، ولتسارع نوبات الطلق على ليز، وجدت شغف نفسها مجبرة على كسر عزلتها لتنزل إلى المطبخ لتستعين بطاقم خادمات القصر، اللائي زودن القصر بنصف أحفاده غير الشرعيين.. إلا أن هذا الطاقم المتعثر بأحلام لا صلة لها بالواقع، وصل متأخرا عن إنفجار نوبة الطلق التي قذفت

بالوليد إلى حياة رفضت التعامل مع وجوده. الخادمة ذات الاصول الروسية، صدى، والتي لفت الوليد بأحد شراشف السرير، قربت الجثة من ليز لتلقي عليها نظرة قبل إرسالها لعمال الدفن، فعلقت العمة شغف..

- إنه لا يشبهك ولو بأحد تفاصيلك المهملة. فردت ليز بنفور..

- لأنه كان إبنه فقط.

في عين ذلك الوقت، وعلى الضفة الثانية لنهر دجلة، كانت سؤدد قد وضعت هي الأخرى حفيدا لسعاد خانم، طلبت الأخيرة من إبنتها إلا يدخل بيتها أبدا، لا لوضاعة أصل أبيه أو لإختلاف العائلة مع توجهه الايديولوجي، إنما لأن والده إنتزع - كما كانت تردد سعاد خانم - إبنتها بسطوة الرعاع السياسية.

*** في الوقت الذي إستسلم فيه وزيرا العائلة للقدر الإنقلابي الذي أحاق بهما، وأمضيا سنينا
ثقيلة في لعبة نرد الطاولة وأخذ دور البستاني في حديقتي قصريهما، أمضى غازي ومكي عبد الكريم رستم تلك السنوات في ترصين قواعد عملهما كمحاميين دوليين محترفيين في
النهار، وقضاء ليل بلا إجازات أو عطل نهاية اسبوع في ملهى الطاحونة الحمراء.
أما فترات إسترخاء ما بعد الغداء فكانا يقضيانها في مناقشات سياسية ساخرة في نادي
العلوية الذي أنشأته الطبقة الأرستقراطية للترفيه عن نفسها في فترة مبكرة من مطلع
القرن العشرين. وبينما كان الوزيران يأنفان من مناقشة تخبطات النظام الجديد، بسبب
طفولة صناع قراره السياسي، كان الولدان يمعنان في تشخيص عيوب سياساته والسخرية
من قادته، الذين لا يصلحون لفض عراكات نسوة الحواري الشعبية، بإعتبار أن أغلبهم
كانوا من ضباط الجيش الذين صنعهم نوري السعيد لقمع تمردات

ونزاعات العشائر.
أما علاقة غازي ومكي بالعائلة فقد إقتصرت على قضاء صباحات عطل نهاية الاسبوع
والعطل الرسمية في قصر سعاد خانم، وكذلك قضاء الجزء الأول من سهرة ليلة الجمعة
في قصر الباشا الكبير، وزير العدلية، الذي طوح نحس حفيدته شغف الشيوعية بكرسي
الوزارة من تحته وأحاله من باشا ووزير عدلية إلى مجرد
موضوع لتقارير رجال أمن وحزب النظام الجديد. أما علاقة الولدان بسعاد خانم، فقد
حكمها نوع من الإلتزام الايماني، وبصفتها حارسة مجد العائلة، قبل صفتها الأمومية.
وقد إستمرت علاقة الالتزام تلك حتى بعد زواج الاثنان بإثنتين من أشهر راقصات ملهى الطاحونة الحمراء، ممن تصدرت صورهن، ببدلات الرقص الفاضحة،الصفحات الأولى لكتاب
فنانات بغداد. كانت رؤية سعاد خانم تقوم على - بعد أن يصبح الزواج أمرا واقعا -
السكوت على رغبات أولادها بشرط واحد هو أن لا يقتربوا بتلك الراقصات من قصر وبنات
العائلة، ولو بزيارة مجاملة أو واجب إجتماعي، رغم أن إثنتين من تلك الراقصات
قد دفعن حياتهما ثمنا لقصص حبهن لغازي، في محاولتي الإغتيال الفاشلتين اللتين تعرض
لهما عام ١٩٧٩ وعام ١٩٨٥ ، واللتين سبقتا المحاولة الأخيرة ، التي نفس فيها
جهاز المخابرات عن حقد فشله، في المحاولتين السابقتين بأربعمائة وستة وتسعين إطلاقة

رشاش متوسط، أحالت جسد غازي إلى نثار من اللحم المفروم بسكين لم يشحذ بعناية.
في الليالي التي كانت تمل فيها سعاد خانم تفاصيل علاقتها بشغف، بسبب سطحية
مساراتها الإختراقية، وعندما تصل إلى ذروة حنينها إلى لحظة الإستسلام الأنثوي
لسطوة وتد الفحولة الكاسح لجبروت العناد الايديولوجي للأنثى فيها، في مثل تلك الليالي، وبعد
ما كان عبدالكريم رستم يدحر الكثير من إستحكامات فلسفتها الطبقية، ويساويها بأي
أنثى تستجدي لحظة سطوة الفحولة، كانا يناقشان بعض شؤون العائلة، ولكن مع
مسافة كافية تشعر عبدالكريم أن رأيه إستشاريا ولا يملك صفة الإلزام لها، ولو بأمر
تافه كإختيار لون حذاء الصغيرة بابيون. تلك النقاشات، غالبا ما كانت تبدأ بسؤال سعاد
عن سر إنحراف ذائقة أبنائها بإتجاه الخادمات وراقصات الملاهي، فكان الوزير يسألها
بشماتة هادئة..
- وهل هي حالة جديدة في تاريخ العائلة أيتها البهية؟
- أنا أتكلم عن أبنائي أيها القروي؟
- وإن؟ أليس لأبنائك جذور في العائلة؟
- لو كان الأمر كما تقول لوجدنا عرقا لصمت وإعلاء شغف الروحي أو لصفاء حورية البحر
..، أم تراك ستعيد ما في البنتين من سمو إلى جذورك البهية أنت؟
- لا أبدا.. ولكن ألا تلاحظين نقيضتهما سؤدد التي تزوجت بأحد كلاب النظام الجديد؟ فلمن

ستعيدين ما فيها من خلل في توجه ريحها وزابع أمطارها الصقيعية؟
- لنزق جذورك يا سعادة الوزير طبعا.. فأنا فعلا أخطأت برفعك من مستنقع حضيضك
إلى كرسي الوزارة... أم تراك نسيت أمر تلك القروية التي عينتها مستشارة لعفونتك الوزارية..؟
وبعد أن تأخذ نفسا كانت تكمل حنقها..
- ولكن خطئي كان بحسن نية من أجل أن أصنع منك رجلا يليق بمجدي العائلي والشخصي والطبقي
..، ولكن للأسف ها أنت تثبت لي أن من يولد بذنب كلب لا تصلح شأنه عملية إستئصال
ذلك الذنب.
وعند مثل هذه النقطة من الحوار، والتي دائما كانت توصله إلى إحدى حروبه الخاسرة معها، كان لا يملك
غير أن يعيد بطحها على السرير ليغتصبها، برغبتها طبعا، ولكن ليس من أجل أن يسجل نصرا، إنما من أجل أن
يوقف نصرها هي على عتبة ما قبل رفع راية الإستسلام.. ولكن تلك الاغتصابات المرنة التفاصيل،
كانت تساعدهما على أن يدرجا إلى شيخوختهما بنسبة إتفاق مقبولة، وخاصة بعد أن إستسلم عبدالكريم رستم
أمام رغبة زوجته المتجددة في الحياة وديمومة شبابها وعزمها الذي لا يتسرب إليه الكلل.. فقد كان يشبهها بالسجادة
الفارسية التي يتجدد بهائها وتتعمق أسرار فتنتها كلما تقادم عمرها.
فمنذ دخل الاثنان أربعينياتهما، تنبه إلى أن تقدم عمر
سعاد كان يصقل جمالها ويغدق عليه مزيدا من أسرار الشغف والإشتهاء..، وهذا ما لاحظته شغف الأولى هي الأخرى،
عندما كانت تتصفح ألبومات صور فتنتهما. فقد تنبهت إلى أن مرور السنين على سعاد لم يكن له من أثر غير صقل تفاصيل

فتنتها، من لفة ساقيها العاجيين إلى إكتناز شفتيها الكرزتيين وإلى نصاعة حور عينيها الغزيرتي المدامع، وبرأيها كانت هذه أهم وأعمق مواصفات
جمال المرأة. وهذا ما كان - بتقادم سنوات حبهما - لا يزيدها إلا شغفا بها ومعاناة من فترات حنين سعاد إلى لهب الفحولة،
الذي لم تكن تتلمس له مبررا يقنعها في غير الارتكاس النفسي الذي كانت تعاني منه سعاد. ونتيجة هذا الرأي خلصت إليها شغف
بعد تجربتها اليتيمة مع غازي، والتي خاضتها في واحدة من إرتكاساتها النفسية غير المبررة. كانت تمر حينها بواحدة من فترات الضعف
التي تسببها غيرتها من إنصراف سعاد إلى حياتها الزوجية، ففكرت بالانتقام لنفسها من أنانية سعاد بفعل خيانة مركب.. أن تهب نفسها لرجل
وأن يكون ذلك الرجل من خاصة سعاد بالذات، إبنها غازي على وجه التحديد. إلا أن التجربة خيبت أملها في جميع تفاصيلها،
لأنها لم تكن أكثر من عملية إقتحام عسكري ضد عدو لم يكن يتمترس خلف تحصيناتها الدفاعية..، لأنها - وكما شرحت لغازي عقب هزيمتها الاعتبارية تلك - لم تكن تهوى غير اللهو السلمي الذي يخرج فيه طرفي اللعبة بحجم النصر ذاته: التخفف من أعباء الخصوصية الذاتية.
بعد ذلك التوضيح الشفاف تحولا إلى صديقين لدودين من الرخام الأبيض، وتحولت لقائاتهما إلى سلسلة من النقاشات السياسية الغائمة، التي تبدأ بالنقمة على غباء ونستون تشرشل الغليظ وتنتهي بالإستياء من برود الملكة اليزابث الصقيعي، والذي لا يجدا سماء لتصنيف خمول مناخه المستقر، أبدا، على وتيرته باردة واحدة لا يفرقان بين صيفها وشتائها. كانت تدلي بارائها السياسية مع غازي كرجل، لأن غازي، وكباقي الرجال بالنسبة لها، لم يشكل لها موضوعا جنسيا.،
ولذا فإنها كانت تنسى نفسها في أحيان كثيرة لتسب وتشتم العائلة المالكة البريطانية وحكوماتها بأقذع الصفات بسبب تخليهم عن نظام

الحكم الذي أسسوه في العراق، أمام أول تهديد أمريكي. كانت ضد مفهوم الثورات الشعبية، لأن طبقتي العمال والفلاحين تعيشان في جهل مطبق يمنعهما عن تسيير شؤونها.، وهذا ما رسخ لها قناعة أن عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف لم يقودا تمردهما ضد سيادة الدولة الناشئة إلا بتحريض ورعاية من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في بغداد.
وهي بهذا تخلص إلى نتيجة مفادها أن الاثنين لم يكونا، بتمردهما الأهوج، إلا عميلين أبلهين. وفي كل مرة كان يستوقفها غازي عند هذا الحد
ليذكرها بفحش الصفات غير المحتشمة التي إستخدمت بحق الرجلين، كانت تكتفي بإبتسامتها الخجلة وبقولها..
- أنت تتعامل مع المثال الخطأ بالطريقة الخطأ عينها.. أنا يا سيدي ولدت لأكون أنا لا لأكون ما يريد الجنس الثاني.
أكثر ما كان يلفت نظر من يقترب منها هو إستغراقها في ذاتها وإنقطاعها لما لا يراه الآخرون، وإستقرارها في الضفة الثانية من كل ما حولها: من طريقة إنهماكها في أحلامها الشاسعة، إلى طريقة بنائها لذاكرة تلك الأحلام. في الليالي التي تحن فيها إلى صحبة محايدة، كانت تطلب غازي عن طريق الهاتف لتدعوه
إلى ما كان يدعوه بعشاءاتها الجافة، رغم ما كان يسودها من نقاشات صريحة حول مختلف الإحتباسات المكبوتة الحزن بصرامة الطفو فوق الواقع. تلك الليالي التي كان غازي يدعوها بليالي وجع ما بعد الإنسلاخ عن قاعدة الواقع، كانت تخصصها لتعليق أسئلتها على حبل غسيل الذات،
لا لتجفيفها من إلحاحاتها ، إنما لتغرقها بدموع ضياعها.. وهي الأسئلة عينها التي كانت تنشرها على حبل صمت سميتها شغف الثانية، عندما كانت
تلتقيها في نزهات شارع الأميرات المسائية، والتي لم تكن تقابلها هذه إلا بأحد تعليقات شرودها الشاعري..

- أوه. نعم، أظن ذلك. أو من مثل – آه، ربما من يدري. رغم أنه لم يكن يجمع بينهما غير حرفية الاسم وفقدان خياليهما لجغرافيا توكؤهما وفتور حماسهما لإغراءات اللغة. أما نقاط إختلافهما فكانت أعمق
من أن يسبرها حس، وكانت تبدأ بحصانة شغف الثانية ضد الحزن الدنيوي وتنتهي بتجاوزها لمرارة
الأحلام مدفوعة الثمن.
بعد تعرض غازي لمحاولة إغتياله الفاشلة الأولى، لجأ اليهما لتخفيف رعبه.. وفي حين ناقشت معه
شغف الاولى الدوافع السياسية لعملية الاغتيال تلك، لم تملك شغف الثانية أكثر من أن تقول..
- أوه! إنها إحدى حيرات القدر في وضع حلوله لمشاكل سيره بالطرق المعقولة! وأطلقت ضحكتها الأمينة في
لا هدفيتها. إلا أن غازي لم يجد في ذلك التفسير الغائم غير محاولة لامتصاص رعبه وتطمينه..،
وهذا ما أكدته قراءة إبنته، شغف الثالثة، للوحة قدره بقولها..
((أوه، الأمر فعلا غائم إلى درجة أني لا أجد مكانا لوضع إصبع مروري بين إلتواءات تيه وجهتك
.. ولكنك ستعيش لتتحول إلى عجينة تفقد هيبة الدفن))... وهذا ما حصل فعلا، ولكن بعد سنوات
كثيرة من سخريته من قروية صدام حسين، ومطاردة وجه صدام لأحلامه، وخسارته لثاني أجمل نجمات ملهى الطاحونة الحمراء (زوجته)، عندما حولته ٤٩٦
إطلاقة بندقية رشاشة إلى عجينة من اللحم المفروم، بعد خروجه من نادي العلوية المجاور
لفندق المريديان.. ويومها علق الرفيق المناضل، زوج شقيقته سؤدد بما أخجل سعاد خانم
فعلا، عندما قال..

((يا للحقد الأسود .. إبن الكلب لم يبق لنا منه ما يستحق الدفن أو الذهاب من أجله إلى
المقبرة حتى)).
محاولة الإغتيال الأولى التي تعرض لها غازي، والتي وقعت في ليلة السابع عشر من تموز/ يوليو
عام ١٩٧٩ ، لم تستوقفه مفاجئتها لأكثر من بضع ساعات، بسبب قناعته بهشاشة الرجال الذين يلجأون إلى مثل تلك الأساليب المتخلفة في التخلص ممن يتصورون أنهم خصومهم السياسيين. ليلتها، وبينما كانت أربعة بنادق تمد رؤوسها من نوافذ سيارة فولكا (روسية الصنع) مهترئة، إنتظارا لخروج غازي من مكتبه بإتجاه ملهى الطاحونة الحمراء، إقتحمت شغف الثالثة غرفة عمتها الصغيرة بابيون لتطلب من أختها ليز مرافقتها إلى حيث ((يكاد البابا أن يقع على رأسه وحيدا، وأن يهمل لعرائه كقديس أعمى)).. ولإيمان ليز بنفاذ بصيرة أختها فإنها لم تناقشها في جدية قراءتها لغيب تلك الليلة، فتبعتها وهي تتخبط بخطى الأشباح التي قادتهما إلى مسرح الجريمة، كأعمى يهتدي إلى خطواته بخزين ذاكرته، لتجدا والدهما مقرفصا خلف إحدى أشجار الشارع المنسية، مضرجا برعب اللحظة. تلك الليلة لم تهتدي ليز إلى طريقة تستوعب من خلالها آلية الموت المصنع خارج خارطة الأقدار، فقررت الموت دون أن تحدد قبلة روحية لذلك الموت، لأنها رأت فيه كمالا شخصيا ، مادام هو محض رغبة شخصية.
وبالفعل، وبعد أن هدأت ضجة تلك الليلة، داهمها إحساس

جليدي ذكرها بنوبات المخاض التي عانتها يوم ولادتها لجثة ابن الاستاذ الجامعي، فتسللت بخفة ملاك أبيض لتخبر شغف الثالثة لتساعدها في إتمام صورة موتها الخاص ليكون موتا شخصيا كاملا، بأن تتولى أشباح أختها عملية إيصال جثتها إلى مقبرة إخوتها غير الشرعيين ودفنها في أحد القبور التي رفضتها جثة أخوها جميل رستم. وبينما خفت هي لتجهيز نفسها لذلك الموت، خف رعيل الأشباح إلى جهة سحيقة لترتيب بعض الاجراءات المبهمة وإحضار نعش أبيض منجد بحرير بلون بشرة ليز العسلية. وبعد فراغها من نتف شعرها المخجل وغسيل جسدها وتسريح شعرها المبهج، تممت شغف على نصاعة جسدها وأهلية طهارته للسمو على وجع الشيء اليومي، ثم ساعدتها في لبس فستان أبيض اللون، يليق بهيبة الموت وسكونه، ومن ثم الاسترخاء في لدانة حرير النعش.. وقبل أن تغمض ليز عينيها، تبادلت الاختان قبلة وداع ناعمة لتترك على شفتي ليز ابتسامة رضى وسعادة لم تتكرر على وجه أي ممن ودعت شغف من باقي أفراد العائلة إلا على وجه العمة شغف، لأن موت العمة شغف كان اختيارا هو الآخر، وإن إختلف في تفاصيل طريقة حلوله، لأنه جاء على أثر مللها من تكرار تفاصيل ما حولها، فنشدت في الموت تغييرا يستحق التجربة، مادام قد فاز برهبة الجميع. الشيء الوحيد الذي لم تلحقه ليز هو أن تصلب ذراعيها على صدرها، فجمعت شغف ما في حوض زهور غرفتها من ورود يانعة وضمتها في باقة صلبت عليها ذراعيها، قبل أن ينزل غطاء

النعش لوحده ليستوفي شروط عزلة الموت وليؤذن للأشباح بحمله إلى المقبرة لاتمام صف قبور الأخوات الأربع لما يقابلها من عدد قبور اخوتهن الخمسة غير الشرعيين. في الصباح، وعلى عادتها في ايقاظها بحدب الأخت الكبرى، دخلت الخادمة ذات الاصول اليونانية غرفة ليز إلا أنها لم تجد في السرير غير رائحة وداع حيية، تسمو على كدر الموت وثقل أنفاسه.، فأعلنت للعائلة أن ليز قد صعدت إلى السماء، كما كانت قد توقعت هي يوم وصول ليز إلى القصر، من خلف بحار الاستعمار الباردة.

رغم أنه لم يبكي رحيل ليز أحد، إلا أن جميع من في القصر عاش مرارة فقدها لسنوات طويلة تالية، بما فيهم عمتها شغف التي كانت تمضي أياما طويلة صامتة في غرفة ليز لتنصت لحضورها الايقوني في قلب أشيائها وملابسها، كما كانت تقول لشغف الثالثة.. بل ان الصغيرة بابيون داومت على محاورتها في شؤون إشراقاتها كي لا تمر مياه حياتها في الصحاف الفارغة ذاتها التي مرت وتمر فيها مياه الآخرين. أما أختها شغف الثالثة فقد داومت على السهر معها، عن طريق فريق أشباحها، وإيصال رسائل والدهما إليها، بعد أن تعب من مطاردات عصابات النظام السياسي الجديد ولجان ميليشياته الحزبية وأخذت أقداره بالتحضير لخيبة أحلامه. وحدها شغف الثالثة كانت ترصد إنغلاق أقدار العائلة على نفسها وإستحالتها إلى مجموعة من الخطوط المستقيمة التي لا تلتقي حتى أمام فعل قطيعة الموت، لأنه

صار جزءا من دورة حياتها، بقدر أكبر سطوة من مقادير حركة نجومها. ولكم وقفت حائرة أمام مغاليق ذلك القدر، وحتى بعد أن قدم لها رعيل أشباحها بعض الشكوك حول شخص فهمي مراد (زوج عمتها سؤدد)، إلا أنها عجزت عن فك شفرة تلك المغاليق لسرية تدابير الأجهزة التي كانت تقف خلف تحركاتها، ولفوضى تقاطعاتها التي كانت تتغير بحسب تغير أمزجة مخططي سياسة البلد وإداراته الأمنية. فلكثرة التقارير التي كانت ترد إلى مراكز جمع المعلومات في دوائر الأمن العام والمخابرات العامة وفروع الحزب ومراكز الشرطة ومكتب وزير الداخلية ومدير مكتب رئيس الوزراء وديوان رئاسة الجمهورية، كانت القرارات تتقاطع والاجراءات تتشابك والتعليمات والتوجيهات تتضارب إلى درجة أحالت مصائر العائلة إلى شبكة من خطوط المترو التي تنتهي حيث تبدأ وتبدأ من حيث تنتهي ، الأمر الذي أحبط جميع قرارات أشباح شغف وأحال تنبؤاتها إلى كرة من الصوف التي تقطعت خيوطها بين عضات جرو شرس ولطمات قط مشاكس.

*** إستغرق التحقيق مع غازي، أثر فشل عملية إغتياله الاولى، حول سبب محاولة إغتياله، ثمانية أشهر كاملة. . وقد تضمنت جلسات التحقيق صنوفا من حفلات التعذيب التي بدأت بساعات مضنية من الجلوس على فوهة زجاجة مشروب الببسي كولا... ولم تنتهي بالتعليق من الذراعين المربوطين إلى الخلف والجلد، إلى لحظة فقدان الوعي والإغماء الكلي.. فليس من المعقول أن يتعرض ابن وزير معروف بعمالته للانكليز، لمحاولة إغتيال من دون أن يكون على إتصال بدوائرهم الاستعمارية، وأن تكون محاولة إغتياله مقصودة الفشل لأنها كانت تستهدف أما إرعابه لتأخره في إيصال ما مطلوب منه من معلومات أو إنها كانت محبوكة لإشاعة الفوضى في الأمن العام.، وكان على غازي الاعتراف بهذا أو يسحب والده الوزير للتحقيق هو الآخر بصفته عميلا مخضرما للبريطانيين أولا، وبصفته والد الصبي الضال غازي ثانيا، ولكونه من أرسل غازي إلى بريطانيا لاعداده كعميل، في صباه المبكر ثالثا.. وهذا ما حصل خلال الشهرين الأخيرين من مدة اعتقال غازي.. إذ إحتجز الوزير عبدالكريم رستم في زنزانة لم تسمح له مساحتها بأكثر من تلطيخ بذلته الانكليزية ببوله وبرازه ، وهو يجاهد لايجاد وضع لاستلقائه طلبا لنوم مستحيل، في شتاء ضوعفت درجة زمهريره بمكيفي هواء من منشأ ياباني. وبعد إعتقال السيد وزير العدلية السابق، ضغطت

سعاد خانم على سؤدد لتضغط بدورها على زوجها، الرفيق المناضل من أجل أن يتوسط لهما عند مراجعه ليطلق سراحهما، إلا أن الرفيق فهمي مراد ردها زاجرا بقوله..

((لقد ولى زمن التوسط والمحاباة مع زمن العملاء.. جميع خونة الوطن يؤدون ثمن خياناتهم.. ماذا تتصورين يا بنت الوزير، هل ثمة من يكبر على الوطن))؟

وأمام هذا الكلام الوطني لم تجد سؤدد أمامها غير الغضب وجمع حوائجها المهمة والعودة إلى قصر سعاد خانم .
ولكن، وبعد اسبوع واحد فقط – وهي كانت أسرع دعوى أحوال شخصية في تاريخ البلاد الجمهوري – سحب شرطيان برتبة عضو عامل في الحزب، سؤدد من غرفة نوم سعاد خانم لتمثل أمام الرفيق العميد مدير المكتب الذي يعمل فيه الرفيق فهمي، والذي أصدر حكمه، دون سماع أقوال المدعى عليها، بوجوب عودتها فورا إلى بيت الطاعة الزوجية، لا لتعهد الزوج المناضل بعدم ازعاجها ثانية أو لاعلانه عدم قدرته الاستغناء عنها لشدة حبه لها، وإنما لأن نظام الحزب القائد الداخلي ينص في احدى فقراته غير المكتوبة على إن ((نشاز الزوجة أو هجرها للزوج برغبتها الشخصية غير واردان في حياة الرفاق، لأن من لا يملك القدرة على حكم زوجته لن يكون مؤهلا لقيادة بلد هو مشروع لحروب أطماع كل أنواع الاستعمار الخارجي والرجعية الداخلية)). وبما أن الرفيق فهمي قد أثبت، عبر تاريخ نضاله، أنه من العناصر المخلصة، لذا فقد لجأت

قيادة الحزب لمثل هذا الحل، اكراما لتاريخ نضاله وردعا لمن تسول لها نفسها من زوجات باقي الرفاق في الاقدام على تمرد مماثل. أما الرفيق فهمي المتخاذل، وجزاء لضعفه في ردع زوجته ، فقد عوقب بتخفيض درجته الحزبية وتأخير ترقيته الوظيفية لمدة سنة واحدة.. وكان على سؤدد طبعا دفع ثمن هاتان العقوبتان، بعودة غازي والسيد وزير العدلية السابق للتحقيق في قضية محاولة اغتيال غازي عينها، ولمدة ثمانية أشهر أخرى، وبمنع سؤدد من زيارة عائلتها حتى تحرير آخر دولة من دول العالم الثالث من هيمنة الاستعمار وقوى الامبريالية العالمية. وبعد خروج غازي والسيد الوزير من حجز التحقيق الثاني بإلتهابين مزمنين في الجهاز التنفسي والمفاصل لكل منهما، أغلقت سؤدد باب الحمام على نفسها لتحسب المتبقي لها من سنوات احتجازها المرهون بتحرر آخر دول العالم الثالث، فوجدته بحساب بديهي بدائي، لا دخل للحاسبة الألكترونية فيه، بأنه سيستغرق منها، في أقل تقدير، عشرة أعمار من عمر نبي الله نوح؛ وعليه وجدت انه من الأجدى لها أن تسرب رسالة اعتذار إلى شقيقتها شغف عن غيرتها الغبية منها، بيد ابنتها شغف، وأن تنهي حياتها عن طريق انبوبة غاز المطبخ. وبما أنه كان من المستحيل على زوجها دفنها من دون علم أهلها، لذا فقد طلب غازي نقل جثة شقيقته إلى الطب العدلي لغرض تشريحها، لأنه كان هو وسعاد خانم على قناعة تامة بعدم امكانية موت سؤدد بمثل البساطة والوقت الذين ماتت

فيهما، لما عرفت به سؤدد من تصميم على استيفاء كامل نصيبها من طيش أقدارها.، الأمر الذي أجبر الرفيق فهمي على اللجوء إلى مراجعه العليا، والتي اضطرت لإضافة مادة جديدة، غير مكتوبة، إلى نظام الحزب الداخلي وكما يلي ((بما أن زوجات الرفاق أعضاء قيادة الحزب قد تشربن الروح النضالية من معاشرة أزواجهن، وان لم ينتمين للحزب رسميا، لذا فإنه لا يجوز مساواتهن بغيرهن من النساء من عدوات الحزب، وعليه فإن أمر دفن جثثهن بالوقار الذي يليق بالمناضلات هو أقل ما يمكن أن يقدمه لهن الحزب))، وبهذا يكون الحزب القائد قد أنقذ فهمي من عار فضيحة ثانية، ولكن مقابل خفض درجته الحزبية مرة أخرى وتأخير ترقيته الوظيفية سنة أخرى كذلك.. وهذا ما أجبر الرفيق فهمي على وشاية ثالثة بصهره وخال أولاده وبضمان عقوبة ثمانية أشهر تحقيق جديدة لكل منهما. لم تنتهي عقوبة التحقيق هذه المرة إلا بدخول الوزير عبدالكريم رستم مرحلة الاستعداد لموته التاريخي، تحت وطأة خذلان تاريخه الشخصي، وبمحاولة اغتيال ثانية لغازي راحت ضحيتها واحدة من أبرز نجمات كتاب فنانات بغداد ، بعد اطلاق سراحه بشهر واحد فقط. ولم يعف غازي هذه المرة من جولة تحقيق رابعة إلا دخول الرفيق القائد العام للقوات المسلحة لاحدى حروب مجده الشخصي، وتحويل نشاط جهاز مخابراته إلى النشاط الخارجي، لا تلافيا لدسائس العدو، ولا لتأكده من تصفية جميع معارضيه في الداخل، إنما لإقتناع رفاقه في الحزب وجهاز الدولة أن

معارضي الداخل لم يكن لهم وجود من الأساس، وانه لم يصنعهم غير حرصهم هم على سلامة قائدهم، الذي ترتبط بسلامته حياة وجميع نواميس وقوانين حركة حياة الوطن، من بيضة الدجاجة إلى الخطط الستراتيجية لتصفية آخر جيوب الاستعمار وأطماع قوى الامبريالية العالمية في البلاد. ولتخرج سعاد خانم زوجها الوزير مما خرج به من جولة اعتقاله الثانية، من رعب وفقدان لقدرته على التحكم بدفق وتده الصندلي – الذي أحالته الصدمات الكهربائية التي تعرض لها أثناء التحقيق إلى مجرد خرقة دائمة البلل – منحته حق التصرف بحديقة القصر الخلفية ليمارس فيها هواية شبابه في تربية بعض الطيور والحيوانات الداجنة، وليشارك ابنته الصغرى بابيون وحفيدته سعاد لهوهما في لعبة العرائس ومساعدتهما في مذاكرة دروسهما، وأن يقص عليهما في أماسي الصيف الهادئة، قصص مجده الوزاري الضائع؛ وحكايات مطولة عن معاركه السياسية التصحيحية لوزارتي نوري السعيد الثالثة عشرة والأخيرة، واللتين لم يشغل فيهما منصب وزير العدلية بسبب وشايات مغرضة كما كان يخبرهما، دون أن يحدد مصدر تلك الوشايات. أما ساعات وحدته الصباحية فكان يقضيها في تهجين سلالات جديدة من صنوف طيوره لانتاج عصافير حب تغرد كالبلابل، وطيور كناري تهدل كالحمام، وقبرات تتكلم كالببغاوات، كما كان يلقي على مسامع سعاد خانم عندما كانت تشاركه بعض وجبات طعامه أو عندما كانت تليفه في الحمام لتخلصه من زفارة بوله وهو يقهقه ببلاهة

صبي في العاشرة من أثر ملامسة أناملها الملكية لشيئه المتهدل كخرقة بالية.

وقد إحتملت سعاد خانم، التي حافظت على شباب مقدس وربيع أنوثة مصان، سنوات ترديه تلك بصبر نبي؛ لا لإستسلام منها لقدرها وإنما لتعطيل كثافة حرب الثمان سنوات الطويلة لأغلب مصادر الحياة من حولها وإحالتها للأيام إلى سلسلة من الرجاءات البلهاء.

في البداية كانت تشفق عليه من ذلك المصير الذي آل اليه ذلك الشاب الفاتن الذي كان يشبحها كشاة مسلوخة على ذاكرة السرير؛ ومع الأيام تحولت الشفقة إلى حنو امومي، ومن ثم إلى حب وجدته نائما تحت صيف غرورها الطبقي.

وبعد تقليص سنوات الحصار الاقتصادي الطويلة لمساحة الحياة إلى ما يزيد قليلا على مساحة صحن الطعام، تحولت بكليتها إلى رعايته، حتى انها في ليالي قصف الطائرات الامريكية اضطرت لتحفيضه وادخاله سريرها خوفا عليه.

ورغم أن حنوها ذاك قد أعاد اليه بعض صفائه السابق، إلا أن رعب القصف الجوي دحره من جديد بهواجس القلق على سلامة أولاده، فأقنع مكي بالهجرة إلى بريطانيا، بعد أن عجز عن اذكاء أشواق غازي إلى مراعي صباه وملاهي شبابه الأول فيها؛ وخصص جزءا من ساعات بطالته الصباحية لانتشال ابنته شغف من عزلتها الملائكية

وشرودها الأثيري، مستخدما كل ما جاد به صفائه العليل من وسائل الاغراء الدنيوية.

ففي أحد صباحات الحرب الساكنة، استيقظ مبكرا وانسل بهدوء من سرير سعاد ليدثر نفسه بحفاضة مزدوجة، تحسبا لمفاجئات شوارع الحرب، وارتدى فوقها احدى بدلات مجده الوزاري الغابر وانطلق إلى متاهة بغداد التي أطفأتها وحشة الحرب الجديدة، ليشتري لشغف سيارة متوسطة الحال، برازيلية المنشأ، وحصانا أبيض اللون، من مخلفات نادي الفروسية، وجروا صغيرا من سلالة بريطانية، وعاد في المساء ليقدمها كهدية لشغف بمناسبة عيد ميلادها، إلا أن شغف التي حصنتها الوحدة ضد الأحلام اكتفت بالاشارة الى تلك الهدايا باسمائها: سيارة، حصان، كلب، وكأنها تؤكد لمن حولها انها مازالت تتذكر مسميات الأشياء من حولها، رغم انقطاعها عن حياة المعيش اليومي وانسلاخها عن أرض الواقع. ولم يبق امامه، والحال هذه، غير أن يرجو حفيدته، شغف الثالثة

لتنتشل عمتها من ضياعها بواسطة طرق أشباحها السحرية، فأوضحت له حفيدته بحكمتها الرهبانية..

((ككل الأشياء من حولنا، العمة شغف فات أوانها، وهي في طريق عودتها الآن)).

إلا أن الجد المولود بعناد كل بداهة، أصر على مقابلة رعيل أشباح حفيدته شخصيا، من أجل اقناعهم برد ابنته إلى

حظيرة الحياة الواقعية، لاعتقاده بأن أشباح يعجزون عن أمر غسيل دماغ امرأة من اجل اعادتها إلى صوابها، هم اذن أعجز من أن يأتوا بمعجزات ماورائية حقيقية من مثل تسيير باخرة على شارع اسفلتي في وضح النهار، أو جعل قطار يقطع مسافاته عن طريق الطيران في سماء مدينة، أو تحويل غابة من مدينة إلى أخرى عن طريق جعل أشجارها تمشي بالرتل العسكري!

وأمام اصرار الجد المتسلط، لم تجد الحفيدة المجهدة غير أن تذعن لرغبته ، ولكن بعد أن حصنته سعاد خانم بحفاضة مزدوجة وأحكمت اغلاق جميع منافذ سروالیه الداخلي والخارجي احتياطا لتسربيات خضة صدمة المواجهة مع الأشباح.. إلا أن المقابلة جاءت على خلاف كل التوقعات لأن الجد المعتد بمجديه العسكري والوزاري لم يجد نفسه إلا أمام مجموعة من الأقزام الشفافة والعديمة الألوان، ولذا فإنه لم يستطع منع نفسه من اطلاق ضحكة ساخرة وهو يقول لحفيدته متهكما..

((أهولاء البلهاء هم فريق عملك؟ انهم أعجز من أن يرخوا حزام سروالي حتى))!

وقبل أن يطلق قهقهة تهكمه الثانية، أفلتت الأشباح حزام سرواله ونثرت خرق حفاضته المزدوجة على طاولة اللقاء ودست سطلا من الصفيح الرنان تحت وتده الصندلي لتسمع كل من في القصر دفق سلسه الذي راح يرن في السطل حتى اختنق السطل بغرغرة امتلائه؛ وعندها أمره كبير

الأشباح بحمل سطل فضيحته والذهاب إلى الحمام وهو يصرخ به..

((ان شرود العمة شغف شرود رباني، الا ترى كيف يحميها من الأحلام))؟ وكان على سعاد خانم أن تدفع ثمن تهوره ذاك بجولة تنظيف جديدة لحصيلة انهمارات منافذ تعبيره عن رعبه.

أما ابنته شغف فقد حافظت على حصانة منقطعة النظير ضد ذلك الهرج، بل وعلى حماية عجيبة من التقدم في السن أيضا.. فقد حافظت على شبابها وألق أنوثتها العشرينيين إلى الحد الذي أدهش شغف الرابعة (ابنة شقيقتها سؤدد التي سمتها باسمها كنوع من التوبة والاعتذار عن حقدها الشخصي ضدها) عندما زارتها هذه وهي في مطلع عشريناتها لتوصل لها رسالة اعتذار امها، التي خبأتها بين أشيائها الخاصة لحين استطاعت الهرب من سطوة ابيها الرفيق المناضل، فقالت الشابة وهي تقف مبهورة أمام جلال خالتها..

((ما هذا؟ هل أنت حقيقية يا خالتي؟ كأنني أنظر إلى نفسي في المرآة)) وراحت تتلمس ذراعها وصفحة وجنتيها بدهشة عارمة؛ في حين لم يزد رد الخالة على أكثر من ابتسامة براءتها الطفولية وقولها وهي تربت على خد ابنة أختها..

((من يدري يا صغيرتي، من يدري))؟ ثم عادت إلى صمتها السماوي وهي تراقب تنقلات فراشة الصغيرة بابيون بين ورود حوض زهور غرفة نومها.

المشكلة التي أشاعها ظهور شغف الرابعة في القصر هي محنة الشبه الذي كان يجمعها بخالتها شغف وما كان يسببه من خلط بينهما لدى أفراد العائلة وخدم القصر، وخاصة بالنسبة لجدها الوزير الذي كان يعيش ذروة خذلان تاريخه المتهالك. فالجد الذي ركنه الرعب إلى خاتمة بلا أمجاد، لم يكن يعرف أن ابنته سؤدد قد أنجبت ابنة، وان هذه البنت قد كبرت، في سنوات حجز والدها الرفيق المناضل لها لتبلغ سن الشباب وبشبه مفزع بخالتها شغف المنتظرة لقدر بلا هوية.

ففي الأوقات التي كانت تقضيها الحفيدة معه في صومعة عطالته، كان يحدثها على انها شغف ابنته، وكان يطلعها على بعض أسرار عطالته ومعاناته من ذلك التعطيل الذي لا يليق بتاريخه السياسي.. كما كان يسرها ببعض شؤون علاقته مع سعاد خانم، وعن الجزء المخجل من تلك الشؤون، والذي كان يعتبره خذلانا قدريا يكلفه كبرياء رجولته. وفي كل مرة كانت الحفيدة تداري خجلها بجلجلة ضحكتها التي تشبه ضحكة امها العالية النبر، وهي تقسم له انها شغف الحفيدة لا الابنة التي يظن؛ إلا أن الجد كان يرفض تصديقها في سره ويكتفي بالابتسام لها بغبطة كونها عادت إلى أرض الواقع من جديد.

لم تقرأ شغف رسالة اعتذار سؤدد.. بل انها نستها بعد دقيقة واحدة من ركنها لها في أحد أدراج ذاكرتها الآخذة بالتقلص والانسحاب من ظلال الاشياء إلى مساحة بياض لا يفهم لغتها إلا هي. بل ان شقيقتها بابيون صارت تجد صعوبة في تذكيرها بشقيقهما مكي مع وصول كل رسالة كان يبعث بها من صيف غربته إلى شقيقته الشاردة ليحدثها عن شؤونه والافكار التي يختزنها لعودته، والخطط التي يعدها لاعادة رسم أقدار العائلة.. وفي نهاية كل رسالة كان يطالبها بالكتابة له، هي التي طفت على جميع حيل الذاكرة، وإلى الحد الذي لم تكن تجد فيه ما تحدثه عنه غير لهوها مع فراشة بابيون وعن دهشتها من انصياع تلك الفراشة لقدر حياة بشرية داجنة.. أما اجاباتها على أسئلة مكي فلم تكن تزيد على ابداء دهشتها من تصوراته وقولها في كل مرة..

((أوه! أحقا مازال يحدث هذا))؟

بل انها شدهت عندما أخبرتها سعاد، ابنة شقيقها حافظ، وهي في الخامسة عشرة، برغبتها في الزواج، وقالت لها..

((هل انت جادة أن هذا مازال يحدث بين الناس))؟ وكأنها بدأت دخول مرحلة تجاوز الواقع، كما رددت سعاد وهي تعيد عليها، في مرة ثانية، رغبتها تلك من أجل انجاب آخر فرد في سلالة آل الحافظ، فردت عليها شغف متسائلة..

((أهذا يعني أن الناس مازالوا يتناسلون))؟ وعادت لتداعب لوامس الفراشة باصبع شفاف تجاوز ربقة الاشارة.

جوبهت رغبة سعاد تلك برفض قاطع من قبل جدتها سعاد خانم، بسبب صغر سنها من ناحية، ولعدم توفر زوج مناسب في محيط العائلة من الناحية الثانية، الأمر الذي أجبر شغف الثالثة للتدخل برعيل أشباحها وتهديد كبير الأشباح بإعادة والدها حافظ إلى القصر لاتمام ذلك الزواج .

رفضت سعاد خانم الاصغاء لذلك التهديد طبعا لقناعتها بعدم عودة الاموات، وأقامت الدليل على صحة رأيها بأن لو كان بمقدور أحد العودة إلى الحياة لكان ذلك من حصة الملك غازي والملك فيصل الثاني والوصي على العرش، عبدالاله، لأن جميعهم قتلوا غيلة وهم في ريعان الشباب! كما ان تاريخ عائلتها العريقة لم يسجل، على طول تاريخها العريق، حادثة مماثلة، وأفراد عائلتها كانوا أجدر بمثل هذا التكريم من ابن وزير من العوام صنعته هي بيديها.. إلا أن الصباح التالي أثبت خطل تلك الرؤية، إذ دخل حافظ وهو يأتزر كفنه المهلهل كراهب بوذي، وكان أول من صادفه في صالة الجلوس والدة ابنته (الخادمة ذات الاصول الروسية) فسقطت مغشيا عليها وظلت في غيبوبة طوال مدة وجود حافظ في القصر، من هول الصدمة، بينما واصل هو خطواته الوئيدة باتجاه حمام الطابق الأول ليسقط تحت دوشه وحشة الموت وجهامة ذكرياته عن كاهله.

ورغم أن العائلة لم تتعامل مع حافظ إلا كشبح مشاغب، إلا انه استطاع اقناعهم بضرورة تزويج ابنته من أجل انجاب آخر أفراد العائلة قبل أن يصطحبها إلى عالم الموت الذي جاء منه بأمر خاص. وعندما حاولت سعاد خانم التدليل على شبحيته بسخريتها من كلامه ذاك بقولها..

((ولم لا تصطحب أمها معك وهي جاهزة من نواحي كثيرة لمؤانستك في وحدة موتك)) أجابها بشرود كاهن متصوف ((تلك لها طريق آخر غير طريقي)) فصرخت في وجه زوجها بلهجة المنتصر ((أرأيت، الخدم والسوقة يدخلون الحياة الأخرى من باب خلفي))! ولأن حافظ وابنته لم يكن أمامهما متسع من الوقت، قاد كل منهما الآخر وخرجا دون أن يودعا أحد. الوحيدة التي لم تصدمها عودة حافظ السحرية هي شقيقته شغف، إذ تعاملت مع شقيقها كعائد من سفر، عندما صافحها وسألها عن أحوالها فردت وهي تمسح تراب القبر عن جبينه ((أوه، أنا مازلت في مكاني)) وقادته من ذراعه لتريه فراشة الصغيرة بابيون وابتسامة مبهمة الوجهة تؤطر نصاعة روحها الباحثة عن مهرب. ولما طلب منها أن ترافقه للسلام على والدهما في عزلة خذلانه التاريخي ردت عليه بحياديتها المعهودة ((أوه، تلك عزلة أخرى، تمضي باتجاه واحد))، فبدت له كمن فرغ من كل شؤونه ولم يعد هناك ما ينتظره، ولذا سأل أمه وخادمات القصر عما إذا مازالت تأكل وتشرب فلم تتذكر سعاد خانم، لأنها كانت قد تجاوزت مرحلة القلق عليها من زمن طويل؛

إلا أن احدى الخادمتين الروسيتين أكدت له انها لم تعد تدخل الحمام منذ أكثر من عام، عندها حدثها عن عزلة الموت وأجوائه الخالية من لعبة القدر، فردت بصفاء صحراء بلا ذاكرة ((أوه، هل مازال ثمة من ينتظر لعبة القدر))؟ وعادت لتنغمس في صمتها الأبيض. بعد تسعة أشهر وأحد عشر دقيقة من ذلك اليوم عاد حافظ وهو يقود ابنته الموشكة على الوضع ليسلمها إلى خادمات القصر ليساعدنها على وضع حفيدته سولافة، بينما ذهب هو ليأتزر كفنه المهلهل الذي عاد به من موته وهو يوصي امه بأن لا تقلق على مصير سعاد لأنها تؤدي واجبها كشاة في مزرعة الرب. العبارة الوحيدة التي فاهت بها سعاد بعد وضعها كانت ((هذه البنت اسمها سولافة وستعيش من أجل وهم ذاكرتها)) ثم مضت إلى الحمام لتستحم وترتدي كفنا داكنا ولترافق والدها بصمت دون أن تودع أحد. عصر ذلك اليوم قطعت شغف الثالثة أمر سعاد بقولها ((لقد مضت إلى جهة بلا ذاكرة لأني لا أتبين موضع قدميها على خارطة النجوم.. وعلى أية حال فإنها ليست موتنا الوحيد هذا اليوم)). بعد ساعة واحدة من رحيل حافظ وسعاد، وبينما كانت سعاد خانم تحمل حفيدة ابنها لتريها لزوجها المتهالك تحت سقف ذكرياته المهلهل، اقتحم القصر رتل سيارات مظللة النوافذ، يقوده الرفيق فهمي مراد، ليترجل من أحد سياراته موظف مرموق ليطلب من سعاد خانم أن تدله على والدها الباشا مكي الحافظ لأنه مطلوب لمقابلة خاصة في ديوان رئاسة الجمهورية. لم يمهلها فريق حماية ذلك الموظف لتسأل عن

فحوى وسبب تلك المقابلة لأنهم اقتادوها بصمت مهيب إلى قصر الباشا الذي أشارت اليه وطلبوا منها أن تناديه دون أن تفزعه، ليس حرصا منهم على راحته وانما لكي لا يهرب.. كان الوحل يلطخ ساقيّ ووجه الباشا بطريقة كاريكاتورية، لأنه كان يتخلص من زمن بطالته السياسية في الغوص في طين حديقة القصر حتى منابت أصالته.. سأل ابنته عن مصدر الضجة التي كانت تسحلها بقدميها فقالت ((يبدو أن مصدرها سياسي))، فعلق الباشا بشرود من يفيق من ركام ذاكرة مهجورة ((آه! لابد انه يوم جمعة آخر إذن))! فسألته سعاد ((وما علاقة هذا بذاك))؟ إلا أن ضجة ديوان رئاسة الجمهورية لم تمهله للاجابة أو حتى لغسل الطين عن وجهه وساقيه. وبعد اتصالات لاسلكية مكتومة حشروه في احدى سيارات الرتل بعد أن عصبوا عينيه بخرقة سوداء أحالت كبريائه الوزاري إلى غبار معتم. ولأن جميع أسئلة سعاد خانم تكسرت على نوافذ سيارات الرتل الصماء، لم يبق أمامها غير اللجوء إلى زوجها المنسي خلف سياج ذاكرة نخرتها فضائح حفاضات منافذ بؤسه الاجتماعي. في تلك الساعة كان زوجها يبحث عن الوجه الأقل بؤسا لتمثل وجه الحرية الشخصية بتحرير منافذ سلسه من بؤس الحفاضة المخل بالكبرياء الشخصي وللسير طليقا تحت أشجار مقره الصيفي في حديقة القصر الخلفية كصبي في العاشرة يستعرض أول كشوفه السيميائية. . وتحت ضغط رعبها لم تنتبه هي للحظة انتشائه تلك، فدهمته دون مقدمات ((اعتقل حرس صدام

معالي الباشا وربما يستمتعون الآن بشي خصيتيه على نار الفحم))! لم تمهله الصدمة لأكثر من لحظة سقوط على وجهه على تراب الحديقة الرطب ومن ثم انطلقت منافذ زحفه الباطني في التعبير عن مشاعرها لتضرجه بصفرتها من رأس أمجاده الوزارية إلى آخر عرق في وحل تاريخه القديم.

تلك اللحظة صادفت موعد عبوري اليومي بمعتكف السيد الوزير وأنا في طريقي إلى بوابة القصر لألحق بالباص الذي يوصلني إلى كلية الآداب التي كنت أدرس في دوامها المسائي اللغة الانكليزية وآدابها، وكانت المرة الأولى التي تنبهت فيها سعاد خانم لوجودي كرجل تعدى الكثير من مصدات ذاكرتها الأنثوية.. ورغم انها طلبت مساعدتي بأدب جم إلا أني رفضت بهزة من رأسي وقلت ((ان عملي هنا حارس للقصر لا ممرض لاصحابه)) فصرخت بتجبرها المعهود ((فقط ساعدني على انهاضه من سقطته أيها الوحش الحاقد)) فقلت وأنا أستدير باتجاه بوابة القصر ((ربما في وقت أكثر نظافة من هذا)). ومع عودتي في ساعة متأخرة من تلك الليلة عادت احدى سيارات ديوان رئاسة الجمهورية لتلقي معالي الباشا مكي الحافظ أمام بوابة قصره بعد تجريده من آخر رغباته، وليس احلامه وحسب. وقفت أرقبه وهو يتردى في خذلانه ريثما فتحت له خادمته بوابة القصر ليخطو إلى البقعة الأكثر وجاهة في حديقة قصره ليسقط عليها كامل مرارة مقابلته تلك.

*** بعد نهاية مراسيم عزاء الباشا وزير العدلية مكي الحافظ، الذي خطف بموته الدراماتيكي آخر رموز مجد العائلة المتداعي، زارتني سعاد خانم في جحر الحارس (الذي آلت إلي سيادته بعد وفاة أبي) المركون في أكثر زوايا القصر اهمالا ونسيانا. كان الوقت ما بعد ظهر أحد الجمع الخريفية المتخمة بحرارة صيف يرفض الاستسلام لدورة فصول الطبيعة.. وجدتني ممددا على سريري بملابسي الداخلية وأنا أزرع عينيّ في نقطة لا أراها من سقف الغرفة التي تمثل بيت الحارس.. ويبدو أنها قد أنفقت الكثير من الوقت في مراقبة عريي قبل أن تأتي بحركة تنبهني لوجودها لتسألني ((منذ متى أنت في هذا المكان ياولد))؟ ورغم حيادية نبرة صوتها إلا أنها لم تحمل أي اشارة عدائية فأجبت وأنا أنهض لأبحث عن بعض ملابسي ((من يوم ولاداتي يا خانم)) فقالت بهدوء يذكرني الآن بصورة غائمة بصفائها عندما تكون مستثارة جنسيا ((لا داعي للبحث عن ملابسك لأن حرارة الجو لا تطاق.. فقط

أخبرني ماذا كنت تفعل في هذه الزاوية طوال هذه السنين؟)) فأجبت وأنا أعود لأجلس على حافة السرير.. ((أحرسك))! لم تستطع السيطرة على دهشتها من اجابتي ففلت منها سؤال ملتاع ((تحرسني؟ ولكني لم أرك إلا من اسبوع واحد فقط))؟ فقلت بحزم ملكي تصنعته لأمنح نفسي ما كانت تحتاج سعاد خانم رؤيته فيّ في تلك اللحظة ((المهم أنا كنت أراك))، ثم أضفت وأنا أخترق هيبة أنوثتها بعيني ((ثم هل إلتفت من قبل إلى زوايا قصرك لتري أي أشباح تسكنها؟)) ثم ابتسمت بشيء من السخرية وأنا أقول ((اطمئني يا خانم، فالعبيد أشباح من قار))! تهاوت على طرف السرير بكامل هيبتها الملكية لتسألني ببقايا مصل تلك الهيبة ((ماذا تعني ياولد؟ آه! هذا تعبير ينم عن ذكاء يفوق وجع أشباح القار التي تقبل الوطء ولا تفزع.. ما اسمك قلت))؟ فقلت بلهجة منتصر ((لم أقل شيئا بهذا الخصوص)). ابتسمت ابتسامتها التي تخترق

أوصالي بأناقتها ثم سألتني ((ماذا تريد من بقائك هنا؟ أنت حتما لم تنفق سنواتك هنا اخلاصا لي أو لوالديّ.. طوال سنوات نسياننا لك في هذه الزاوية المهملة كان بمقدورك أن تتسلل وتتخلص مما أسميته عبوديتنا دون أن نلحظ غيابك أو نهتم له .. لم لم تذهب؟ أنت تتحين فرصة ما.. ماذا تريد ياولد))؟ ورغم أنها قالتها بكامل صلفها الأرستقراطي الذي أخبر فجاجته بقدر ما تثير غضبي وحقدي أصالته فيها، إلا اني استشعرت تلك الاشارة

الغامضة التي تطمئنني عادة عندما أكون في احدى ساعات الحظ التي لا تواتي نجم أمثالي إلا مرة أو مرتين في كل حياتهم، فقلت بثقة نبي اجتاز ثلثي طريق رسالته الطويل ((أريدك أنت))! وكخط دفاع مقاوم لصد ما توقعت من سخريتها أوغلت عاصفة اشتهائي لها في عري ساقها الايمن المكشوف لما فوق ركبتها، والذي كانت نصاعة بياضه ورهافة رسم تفاصيله تثير غدر اشتهائي إلى درجة الضياع. صدمتها جرأة صراحتي وعلقت عيناها في ضجيج نجمي الذي استفرد بسماء تحليقها ذلك اليوم، إلا أنها لم تأتي بأي اشارة رفض، واكتفت برسم ابتسامة هزء مفتعلة وهي تنسحب من جحري المظلم بخطى وئيدة..، وهذا ما طمأنني على بلوغ رميتي هدفها في أقصى عمق جرح التفاحة في مقتلها. بعد منتصف تلك الليلة، عادت سعاد خانم إلى جحري المهمل خلف سياج ذاكرة القصر، وهي ترفل بفستان حريري داكن الزرقة، لتأمرني بضرورة اخلاء بيت الحارس لأنها استغنت عن خدماتي التي لم تلمس منها شيئا، كما قالت.. كنت ما أزال في رقدتي التي تركتني عليها وأنا أعلق عينيّ في النقطة ذاتها من سقف الغرفة. اعتدلت جالسا ببطء؛ ودون أن ألتفت اليها قلت بلهجة شك مبطنة ((هل أنت متأكدة من طلبك هذا))؟ لم تجبني بغير لهاث أنفاسها الذي ترجم لي تسارع دقات قلبها فنهضت لأنقض على شفتيها وأنا أطوق خصرها دون أن أمهلها لالتقاط أنفاسها التي قطعتها مفاجئة انقضاضي على أسوار دفاعاتها الارستقراطية والبروتوكولية والانثوية، التي

قدرت انها لا ترغب، في لحظتها تلك، سماع لغة غير لغة اختراقي لمعاقل انتظارها المضني. بعد أن نفثت آخر آهة حاجة في صدرها قبلت جبينها وعينيها وأنفها وباطن كفها الذي رفعته لتمرره تمريرة شكر على خدي الأيسر فأخذت رأسي بكفيها لتقبل جبيني ولتضمه إلى صدرها وقالت ((حنوك بدائي لم تفسده اغتصابات حكام العهد الجمهوري التي أفسدت كل ما هو جميل في حياتنا ياولد))، فقلت وأنا أقبل أنامل كفها الثاني بوله ((بل لأنه نابع من عشقي لك)) فرفعت رأسي بكفيها لتنظر في عيني نظرة شكها الراسخ ((منذ متى تعشقني يا ولد))؟ فقلت وأنا أقبل عنقها ((منذ كنت صبيا يدرج في قصر الباشا والدك وأنت تدرجين بلهفة مجنونة إلى شبابك)).. ربتت على كتفي اشارة لأن أترجل عن صهوة جموحها وجلست في وسط السرير لتنظر في وجهي بتمعن كأنها تستحضر صورة عتيقة من آرشيف أسقطه الاهمال من حساب الذاكرة وقالت وهي تفغر فمها دهشة ((أوه، أنت تعني أنك ذلك الصبي الذي... نعم؛ هما نفس العينين...)).. فجأة علا الندم ملامحها فأخذت تبحث عن فستانها بحركة عصبية، فرفعت رأسها من تحت ذقنها وطبعت قبلة على جبينها وقلت ((ذلك الصبي صار رجلا ويعرف أين يضع قدمه الآن)) فقالت بعد أن أنزلت فستانها على جسدها المفتول وانهمكت في البحث عن سروالها في فوضى السرير ((ارجو هذا))! وعندما صارت على

عتبة باب غرفتي توقفت لتنظر إلي بشك وندم قبل أن تستدير وتختفي خلف شجرة اليوكالبتوس التي تحرس باب غرفتي بصمتها الأبدي.

رغم أني انتظرت لحظة اعتلائي لعرش سعاد خانم طوال سنوات تغيبي وضياعي في الزاوية المهملة من القصر بصبر قصديري، إلا أن تلك اللحظة لم تفعمني بشعور النصر الذي انتظرت..، ربما لأني ببساطة كنت أعشقها بوداعة سريرة الطفل المتأصلة فيّ أكثر مما كنت ناقما على ما كنت أدعوه اغتصاباتها كسيدة ومالكة لتاريخي الشخصي.. فها أنا ابن العبد الذي ملكه أبوها أقتحم أشد شؤونها خصوصية وأسجل أهم انتصاراتي على أخطر قلاع زهوها – بالبنط الأحمر والأشد زهوا – في أهم صفحاتها الشخصية..، ولكن أيضا كانت زاوية قصية فيّ تقول أني طالب ثأر من نقطة ما من دم سعاد الذي لا يشبه دمي إلا بحمرته..، وكان ذلك الثأر يتركز على الإغارة على قلاع (الشغفات) الأربع واقتحامها حتى أقصى زاويا أنوثتها. ولكن لماذا أضيف شغف الأولى إلى قائمة ثأري وهي عشيقتها وليست من دمها؟ هل أنا جبان في دخيلتي لأنتقم بهذه الطريقة الملتوية؟ أم تراني مجرد طالب متعة جسدية أناني وشاذ الطباع؟ ورغم وصولي إلى هذا الحد من التشخيص إلا أني لم أهتم في البحث عن اجابات لها..، كل اهتمامي كان مركزا على نيل أهدافي المنظورة!

كان لكل شغف من (شغفات) سعاد شغفها المقدر في نفسي.. وكان مجرد التفكير في عزلة شغف الأولى الجسدية وأنها تسير في اتجاه حرق جناحيّ الفراشة فيها يدفعني للتفكير في حرق نفسي، لأن شذوذها الجنسي لم أكن أفهمه إلا على أنه وسيلة لحرماني منها! هل كنت شاذا أنا الآخر بطريقة تفكيري هذه؟ لم أهتم يوما في أمر البت في هذا... بل لم يشغلني يوما على الاطلاق!

ولكني بالمقابل دحرت جميع ظنون وتوقعات سعاد خانم، وبارادة حديدية، ولمدة اسبوعيّ غيابها عني.. فقد أثبتت لها اسبوعيّ انتظارها لرد فعلي أني كنت أكثر من مجرد عبد سابق تتحكم فيه شرور وضاعته الطبقية كقرد مقطوع الذنب! ولهذا فإنها عادت لزيارتي بعد نهاية الليلة الأخيرة للاسبوع الثاني بتنورة وقميص من الشيفون الأصفر ولتقف بباب جحري المبعد ولتسألني ((ماذا تنتظر أيضا))؟ ورغم أن سؤالها كان غائما ومتربصا إلا أنه لم يكن ينطوي على موقف رفض. كنت مسترخيا في سريري بعد عودتي من سهرة مع بعض أصدقائي، فأعتدلت جالسا لتمعن بهاء جنون جسدها تحت طراوة الشيفون الملتصق بمواضع مفاتنها وقلت بهدوء ((لا أنتظر شيئا إذا كان هذا يريحك))؟ فسألت بحدة مفتعلة ((ماذا تقصد بالضبط))؟

((ما قلت بالضبط)).. فسألتني بنفس اللهجة المصطنعة ((فقط))؟ فأومأت برأسي مؤكدا، فسألتني بأنوثتها هذه المرة وهي تتقدم خطوة بارتياح من عاد لبيته بعد يوم عمل

طويل هذه المرة ((هل أنت متأكد))؟ اقتصرت اجابتي هذه المرة على مد يدي إليها لأستقبل كفها وأضمه فمدته بارتعاشة صغيرة، فقبلته قبل أن أضمه إلى صدري بدفئي وحناني الطاغيين، ثم أمطرت أنامله بقبل شغفي بها وأنا أقول ((كم حلمت بالاختباء بين شقوق أصابعك وأنا أتلظى في صقيع اهمالك طوال السنوات الماضية))؟ فقالت وهي ترتمي على صدري ((كل ذلك الزمن كان انتظارا لحضوري؟ هل عليّ أن أصدق هذا))؟ فقلت وأنا امددها على السرير كطفلة في القماط ((وكان سيستمر لما تشائين من غياب...)) ولم أكمل لأنها سرعان ما نضت قميصها ووضعتني في مواجهة حميمة مع انفجار نهديها الجفلين كحصانين عصيين على الترويض. بعد أن هبطنا من سماء النجوم إلى سطح السرير واستسلمت لاغفاءة الخدر اللذيذ، الذي يعيد رسم الوان الأشياء، نهضت هي بتكاسل لتخطر بوجع عريها بحثا عن مشدة نهديها وسروالها الداخلي ولتسألني بصوت خفيض ((هل تحتاج لشيء أيها الوحش الصغير))؟ فقلت وأنا أصفع مؤخرتها العارية ((أكثر منك))؟ فأومأت برأسها من خلف اشراقة فرح فقلت ((لست غبيا لأطلب أكثر من مستحيل واحد))! فقالت باشراقة الدلال عينها، ولكن بحزمها الطبقي هذه المرة وهي تستدير للخروج ((وحذار أن تطلب))! ولكني لم أكن أمينا معها في كلمتي لأني أمضيت أصيل اليوم التالي في مراقبة ابنتها شغف وهي تتنزه في حديقة القصر الخلفية بشرودها الملائكي الذي بات يفصلها عن أرض الواقع من يوم حادث

انتحار العامل الانكليزي ويطوح بها بعيدا عن كل ما سوى تلك الذكرى. كانت خطواتها ناعمة ومسترسلة كأنها تطفو على وسادة هوائية.. وبين استغراقة واخرى كانت تفيق لتبتسم لفراشة الصغيرة بابيون وهي تدور حول رأسها كملاك حارس. كانت عزلتها الملائكية تامة وناصعة الحواف.. في تلك الامسية اقتنعت تماما بادعاء الخادمة ذات الاصول الروسية، والدة سعاد الحفيدة، أن شغف قد انقطعت عن تناول الطعام ودخول الحمام لقضاء الحاجات البشرية، لا لأنها تسامت عن الاتيان بمثل تلك القذارات، وإنما لأنها تجاوزت الفعل الحياتي الذي نتنازعه: العيش تحت سقف سماء بلا وجه. فكرت أن اقترابي منها واقتحامي لعزلتها الأثيرية سيكون أشبه بعملية تعريض مومياء عتيقة للفح الهواء ما قد يحيلها إلى كوم رماد أبيض، ولكني مع ذلك لم أتمكن من كبح رغبتي فيها فأقتربت منها وتمنيت لها مساء سعيدا.. ابتسمت ابتسامة خجلة وكأنها تفيق من حلم وشكرتني قبل أن تسألني ببراءة طفل في الثانية من عمره ((هل تفهم لغة الفراشات))؟ فقلت بوداعة ((كلا للأسف .. هل تفهمينها أنت))؟ ولكنها بدل أن تجيبني على تساؤلي قالت موضحة ((هذه فراشة بابيون.. هل تعرف بابيون))؟ فقلت برغبتي العارمة في التهام هذا الجمال الذي يسبب الهوس لأمثالي ((كلا لا أعرفها.. ولكني أعرف العامل الانكليزي الذي سكن في بيت الفلاح قبل سنوات، هل تذكرينه))؟ إلا أنها بدل أن تجيبني مدت اصبعها لتحط عليه الفراشة وقالت ((هذه الفراشة سترحل برحيل بابيون ذات

صباح...)) فقاطعتها بأن أمسكت كفها الثانية... كان لدنا إلا أنه لم يكن متيقظا.. تركت كفها في يدي بلا حركة وكأنها لا تشعر به ومضت تكمل حديثها عن بابيون، الذي لم أسمع منه شيئا لأن يدي الثانية راحت تداعب عري ذراعها حتى وصلت إلى ابطها، الذي أدهشتني نعومته وكأنه لم ينبت فيه الشعر من قبل... ولكنه، وكما فكرت، كان الوضع الذي يناسب وضعها الملائكي، الذي ألفته أسرتها وأعتبرته وضعا قدريا مفروغا منه وأعتبرته أنا جرحا غائرا يمضي إلى أقصى حدود الألم. بحركة ميكانيكية سحبت شغف يدي من تحت ابطها ومضت بإتجاه باب القصر الخلفي، وفراشة بابيون تحوم حول رأسها دون أن يطرف لها جفن شعور بحضور رجولتي من حولها.. ولكن، ورغم تبديد غيابها لأملي في عودتها، من خريف ملائكيتها الجائر، إلى الأرض، إلا أني لم أسحب كلتا قدمي من حوض ذلك القدر... لأنه القدر عينه الذي كانت تصر شغف الأولى على حفره في ذاكرتي، مثلما كانت تعامل غازي كأخت صغرى طائشة الرغبات.

شغف الأولى، كتلة الفعل الواحد الذي لا يرى هدفه إلا بعين واحدة، كانت أشبه براهب أمضى عمره في البحث عن خط استواء يجد عند حفافيه مخلصه، فلما لم يجد ذلك الخط أسقط جدوى ذلك المخلص... وأسقط عن كاهله عبء كيس خطاياه دون أن يعرف طريقا لعودته أو يحدد اتجاها لتلك العودة. كانت تخطر أياما متواصلة في حديقة القصر تشاغل

رغباتها بزرع شتلة ورد هنا ونبة ظل هناك أو تساعد الوزير، زوج عشيقتها المعطل، على تجاوز اسفافات قدره بحوارات سياسية لم يعد يفهم لغتها الجديدة عليه.. وفي كل مرة كانت تحدثه عن جيفارا وفيدل كاسترو، كان يسألها اذا ما كان الاثنان من وزراء الأقليات الدينية، وعن تسلسل الوزارة التي شاركا فيها من بين وزارات الباشا نوري السعيد. كثيرة هي المرات التي حاولت فيها الاقتراب منها طمعا في فك شبكة أسلاكها الشائكة؛ ورغم أنها لم تكن تتصرف كسلحفاة غبية وتعمد إلى الاختباء في ترس أصم، إلا أنها لم تكن قادرة على سماع غير نقرة واحدة على طبلة أذنها الموغلة في عنادها. كانت تدور حول رأس رجائها الصالح الخاص بها، والذي كان رفض الجميع رؤيته، وأولهم غازي ابن عشيقتها؛ وهذه كانت أقرب صفات شبهها بسميتها شغف الثانية. هي كانت صاحبة فكرة شحن الوزير عبدالكريم إلى شقيقاته ليتحملن جزءا من مسؤوليتهن تجاه وضعه الجديد، عندما انهار عصبيا تحت دوي قصف الحرب الجوي وحولته الصدمة إلى منظر سياسي رأى خلاص البلاد في عملية تنويم مغناطيسي للساسة عن طريق التلفزيون، من أجل القاء القبض عليهم وهم نيام وايداعهم السجون واراحة البلاد منهم واعادة وريث العرش إلى قصر الزهور وحفيد نوري السعيد إلى الوزارة لتعود الامور إلى نصابها ويتخلص الناس من شيوعية صدام التي كان يسميها الاشتراكية البعثية. وتحت ضغط والحاح تفكيره بصوت عال بتلك الرؤية وخوف سعاد

خانم من أن يسمعه أحد الرفاق، أعضاء الحزب الحاكم - الذين كانوا يمثلون جهازا رقابيا على ضمائر الناس - ويشي به إلى سلطات الأمن، التي تصل آذانها إلى حمامات وغرف نوم البيوت، وافقت على فكرة شغف وشحنته في صبيحة يوم جمعة رمضانية في حوض شاحنة لنقل الخضار إلى البصرة، ليطغي صوت ضجيج محركها على صراخ تفكيره العالي. الشخص الوحيد الذي عارض فكرة ابعاد السيد الوزير تلك كانت الصغيرة بابيون الرقيقة، كما كان يدعوها الجميع، ومعارضتها لم تكن من حرص على وضع والدها أو خوفا عليه من مصير مجهول، وإنما جاء نتيجة لنبوءة فاشلة المعايير وسرعان ما كذبتها أشباح ابنة أخيها شغف الثالثة بقولها، على لسان كبير أشباحها ((صورة موته لم تتقرر بعد ولأسباب ليست بعيدة عن الدوائر السياسية كما أرى))! ورغم أن ذلك الترحيل الدرامي لم يترك فراغا في أي من شؤون العائلة أو مواضع القصر أو يشكل عبئا على الضمير الأخلاقي لأي من أبنائه، إلا أن بابيون الرقيقة حدثت شقيقها غازي عن تفاصيله وهي تداعب لوامس فراشتها، وختمت روايتها لتفاصيل الحدث بقولها ((ربما أعادت قروية عماتي ذاكرة أبي إلى عهد ما قبل الثورة الصناعية أو يقفزن بها إلى برنامج ثقافة العسكر))، فسألها غازي بدهشة ((وأين تعلقيه أنت اذن))؟ فقالت وهي تعود لمداعبة لوامس فراشتها ((لا أظن انه كان معلقا في مكان بعينه أراه فيه))! وعندما نقلت شغف الرابعة تفاصيل عملية نفي جدها لخالتها شغف، كانت

الأخيرة تسبح في قلب شرودها الملائكي فقالت ((أوه! أظن أن كلمة نفي من القاموس السياسي)) فردت شغف الرابعة ((نعم لأن والدي يستخدمها)) فسألتها الخالة بدهشة هذه المرة ((والدك؟ هل حدثتني بأمره من قبل))؟ أثار هذا التساؤل قلق شغف الرابعة على مصير خالتها فطلبت من شغف الثالثة أن تستطلع رأي أشباحها حول مصيرها واذا ما كانت في طريقها لفقدان ذاكرتها تمهيدا لموت قريب، فردت شغف الثالثة كالمخدرة وكأنها تتلقى الهاما ماورائيا ((العمة شغف تقرر موتها بنفسها ولم يعد لها نجم ليلبد لها قدرها)) ؛ وهذا ما كنت أقدره أنا الآخر من خلال قراءتي لارتهانات شغف واصرارها على الوقوف على المسافة نفسها مما يلي خط الاستواء وعلى القدم عينها، وهذا ما كان يخالف قناعتي بعدم جدوى وجود ملائكة على الأرض؛ لا لعدم قدرةالانسان على تمثل طريقة تفكير وذائقة الملائكة، وإنما لأن وجودهم بيننا سيفسد الكثير من طقوس رهاناتنا.. وهذا ما حرضني أكثر على تقويض خريف نبوة شغف الثانية الشاحبة؛ إلا أن فترة انغلاقها التي تبعت محاولة اقترابي منها امتدت لحقبة بلا أحلام، كان عليّ أن أحتملها بصبر نبي أو ذئب بوادي... ولم أكن أي منهما لأني، في حقيقة الأمر، لم أكن أكثر من مهوّم أمام جدار الأحلام الخلفي. وهذا ما قرأته شغف الثالثة في عينيّ عندما وجدتني أنظر إلى شباك غرفة نوم عمتها، بقولها ((أنت تقف على ساق ألمك أيها الحارس النائم.. ولكن ما الضير، فكل يصنع لنفسه أوهامها الجميلة)). كانت تلبس بنطالا

رماديا وبلوزة زرقاء داكنة زادت من ضراوة جمالها ومساحة حضورها كأنثى تعيد رسم خارطة وجع الرجال وفق مقاساتها الخاصة، فتأكدت من أني مسكون بمرض إمتلاك الأنثى، وبتحديد أدق: شبق امتلاك الجسد الأناني.. وهذا ما أكدته غيرتي القاتلة بعد ساعة واحدة عندما صادفت بابيون الرقيقة وهي تقف ببوابة القصر لترقب العابرين وترد على نظرات شبقهم بابتسامة بلا هواجس، وكأن الأرض مزرعة فراشات تسقفها سماء من بلور بلا نوازع أو ضغائن. كنت أفكر وأتصرف كأي جمهوري، كما وصفتني سعاد خانم، بعد منتصف تلك الليلة، وهي تحاول تلقيني آليات إعادة ترتيب دمي الجمهوري (القروية في حالتي طبعا) على سرير الخدمة الارستقراطية في قصر الباشا والدها، والذي حولته من تلك الليلة إلى مخدع (يليق بأرستقراطيتها بدلا من غرفتي البائسة التي لا تليق إلا بقروي مثلي) لممارسة جنون شبقنا. بعد أن بلغنا حفافي المياه الدافئة وهدأت أنفاسنا، وكعادتها، لم تلق سعاد خانم برأسها على صدري وتسترخي في حضني كأي أنثى تخفر إلى حيائها الفطري عقب نشرها لأهم أسرار أنوثتها، بل انتصبت جالسة على ركبتيها بكامل عريها، في وسط السرير لتقرأ عليّ قائمة مزايا دمها الأزرق وامتيازات ارثها الارستقراطي التي طوحت بها عنجهية صبية العهد الجمهوري الذين لم يكن اغتيالهم للعائلة المالكة سوى حقد طبقي أعمى ممن تربوا على فكرة عداء كل ما هو أصيل وأنيق لا يملكون أهلية استيعابه! واختتمت انفجارها ذاك

بتحذيري ، وبلهجة آمرة، من استمراري في الدوران في ذلك الفلك الذي يعمل على تصفية كل ما هو جميل في البلد، من قطرة الماء التي تجري في نهر دجلة وحتى نجوم السماء التي ترصع سماء بغداد! ثم عطفت على موضوعها الأثير لتختتم به ذلك الانفجار، كدرس تربوي لقرويتي وأصلي كعبد ((وحذار أن تقول لي أن الباشا نوري السعيد (رحمه الله) كان عميلا لأحد، لأن العميل هو من تآمر على شرعية الدولة وسيادة القانون ونزاهة القضاء بسرقة الدبابة، (التي كان من المفروض أن يحمي بها الوطن، ليقتل بها كل هذا في الغرفة الخلفية لوزارة الدفاع أو أحد جحور القصر الجمهوري، التي أتحدى ساجدة خيرالله طلفاح في تحديد موقعه على خارطة الشاطئ الغربي لنهر دجلة وهي تعيش في جحر مجاور له)، لا من كان يقطع المسافة من داره إلى سراي الحكومة على قدميه دون حماية أو صافرات إنذار تفزع المارة وليس في يده غير سدارته! ولكي أضع حدا لكلامها المرعب هذا أمسكت رأسها بكفي وأمطرت جبينها وعينيها وشفتيها بسيل من القبل المحمومة إلى أن هدأت وأنبسطت أساريرها وألقت رأسها على صدري وقالت بغنج ((اركبني كالحصان فالشاة فيّ بحاجة للسلخ)). عندما بلغ حصان سعاد خانم مدى قفزته وعادت قوائمه إلى الأرض لتستسلم لتعبها اللذيذ، همست لي وأنا أغمر عنقها وكتفيها بقبلي ((لا تترجل يا فارسي الجميل، بل تمدد وألقي ثقل جسدك على ظهري ودعني أستمتع بلحظة الدفء هذه التي لا يمتلكها إلا الفقراء))!

تلك الليلة مازالت حية ناصعة في ذاكرتي، لأنها كانت المرة الأولى التي تنزل فيها سعاد خانم من برج مجدها الارستقراطي إلى برج انوثتها البشري وتغمرني بدفئه وتشعرني أني أكثر من من مجرد وتد تقهر على جلده حمى شبقها. فبعد أن نفثت آخر ارتعاشات جسدها تكورت في حضني كقطة صغيرة وحدثتني عن شؤون قلبها الذي طالما طوحت بها رياح الشمال الباردة؛ وعن شؤون العائلة المتكلسة كماكنة حراثة مهملة في عراء حقل مهجور.. كما حدثتني عن يأسها من مصير آل الحافظ، والذي بدأ بنبوءتها عن مصير الباشا نوري السعيد، والتي ربما لن تنتهي بنبوءة تبددها – العائلة - في صقيع الوقوف على ساق واحدة. سألتها عن أغلب شؤون أفراد العائلة وعناوين هزائمهم، ولم تعترض على توصيف هزائم وإنما أقرته دون أن تجد له تفسيرا لدراماكية اشتغالاتها غير تواطئ قدر أسود النوايا، رغم أن عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف وصدام حسين لم يكونوا ليغيبوا عن قراءتها السياسية لمنطق ذلك القدر. وعندما حاججتها على قراءتها القدرية تلك بمنطقي العقلاني أجابتني بخبرة أم طاعنة في المرارة ((أنتم تجردون الأشياء من منطقها المعقول يا ولد؛ ماذا عن حركة النجوم وعواء القدر في وجوهنا عندما يجلس في منتصف الطريق إلى أحلامنا ويمد لسان سخرية قمع تلك الأحلام لنا))؟ ثم اتكأت على كوعها الأيسر لتنظر في وجهي وتداعب أنفي بسبابتها وقالت ((ألم تقرأ القرآن ياولد؟ ألم تقرأ قسمه بمواقع النجوم ووصفه له

بأنه قسم عظيم؟ أنا أؤمن بأن تلك المواقع جزء من منظومة التحكمات التي لا أجد لها تفسيرات مقنعة))! ثم عادت لتتوسد ذراعي.. وبما أن كل هذا كان مؤجلا أو فقد أهميته وأنا في حضرة جسدها، ضممتها إلى صدري لأستشعر رجع أنفاسها على عري صدري.. وسرعان ما غفت تحت مداعبات أصابعي لخصل شعرها... ولكني لم أستطع أن ألحق بها إلى عالم الحلم بنفس السرعة، لأن وجه حفيدتها شغف الرابعة طالعني من قسماتها المنبسطة مباغتا كذكرى جرح يرفض أن يندمل. عندما صحوت كانت الشمس تتربع كبد السماء وكانت الخانم قد سبقتني إلى القصر دون أن توقظني.. وقدرت انها عندما صحت وتذكرت كل أحداث ليلتنا التي ألهتها عن العودة للنوم في غرفتها، أنفت أن توقظني لأنها ستبدو أمامي بمظهر العشيقة التافهة أو الزوجة المطيعة التي عليها أن تذكر زوجها بمواعيده المهمة أو ساعات عمله... وكان علي أن لا أنسى وضعي كعبد سابق حتى وأن استخدمتني الخانم كوتد يطفئ نار شبقها. ارتديت ملابسي وتسللت كعادتي من خلف طوقيّ أشجار النارنج التي تحرس حديقة القصر باتجاه جحري.. كانت سعاد خانم وعشيقتها شغف تتناولان الغداء في وسط الحديقة الأمامية بهدوء لا يلائم ميزاجي ولا عقدي النفسية! وعندما صرت في ظل شجرة اليوكالبتوس التي تحرس غرفتي تنبهت لوجود شغف الرابعة وهي تنتقي من حوض زهور جدها الوزير ألوانا لباقة تملأ كفها الأيسر. ورغم أنها كانت تبتسم لزهورها ووجهها خاليا من أي تعبير درامي إلا

أني أحسست بعزلتها المتوطنة.. عزلة أل الحافظ الراكزة في تلافيف حيزهم الروحي. ورغم الحاح رغبتي إلا أني لم أقترب من تلك الفراشة البرية كي لا أفزع حضورها الذي تخلل عزلة المكان الفاغمة كرائحة صيف مرابط. ربما مضت ساعة قبل أن تستدير إلى زاويتي الغائمة وتلحظ وجودي في غيبة المكان فأشرت إلى جحري المطمور في زاوية اهماله وأوضحت لها سبب وجودي فيه كحارس لصمته فردت عليّ بابتسامة مشككة، من تلك التي تملأ خواطر سكان الحواري المهملة وسألت بشك أكثر من استفهام ((حارس))؟ فأومأت برأسي ايماءة استهانة بقدري وأنا أركز عينيّ في عينيها.. كانت صفرتهما مشوبة بتلك الخضرة الجارحة التي تميز عينيّ أمها وجدتها، إلا أنها لم تكن بآفاقهما التعبوية ولا التحريضية.. كانتا مستسلمتين لزاوية بلا نوافذ.. وفكرت انها حتما من إرث أبيها، ضابط المخابرات الذي تعوزه، كأمثاله، الأناقة في كل تفاصيله، من بلاهة كفيه إلى طريقة أخذه للحياة.. وقدرت أن جمالها الصارخ، كجمال نجمة سينمائية من أصول فقيرة، كان مصدره الطفرة الوراثية لوسامة أبيها البدائية والتي تفتقر للأناقة.. ولكنها كانت، وفي كل الأحوال، وليمة في غاية الدسامة، وان أتخمت متذوقها بلقمة واحدة لرسوخ جيني راكز في صلب شخصها. وفي طريق عودتها إلى داخل القصر صرت في طريقها ففاجئها اقتحامي الجريء..، ودون تفكير في الأمر وجدتني أسألها عن أهدافها وما إذا كانت تفكر بحياة أخرى خارج القصر فقالت بدهشة رضى

((أنت تسأل بلا هوادة.. تنطلق كرصاصة من يد صدام))!
أجفلني التشبيه بغرابته وجرأته، فصمت ببلاهة صبي فوجأ وهو يرتكب الخطأ عينه الذي حذر من إرتكابه أكثر من مرة. وفكرت أنها ردعتني لأن ليس من مشتركات بيننا.. فأنا كنت مسكونا بوجع الجمهوريين، كما كانت تسميه سعاد خانم، والذي لا يتعدى كونه اقتحام مكنونات الصمت من حولي، وأولها، إن لم يكن أهمها، أسرار غرف فراشات القصر، وهي كانت مغلقة كمزنة آذارية قد تنطوي على مطر غزير وقد تمر برعدها المزمجر دون ماء حقيقي.
حدق كل منا في الآخر مستطلعا دون أن يجد أي منا ما يقوله للاخر فانسحبت هي وإستدارت لتكمل طريقها إلى الباب الخلفي للقصر.. ولكن، وقبل وصولها ببضع خطوات عادت لتقدم إلي باقة زهورها بتلك الأناقة القاهرة التي تميز نساء القصر... ولكن بظل ابتسامة مشابهة لإبتسامة الموناليزا في إدغامها وتسترها وسرية مقاصدها، إلا أن نظرتها المتسائلة أشرت لشيء لم أفقهه ولكنها كانت إشارة حقيقية. قدرت لحظتها انها ماتزال في منتصف طريق عودتها دون أن أتمكن من تحديد إتجاه تلك العودة؛ وربما كان هذا هو سبب غربتها عن باقي (شغفات) العائلة، بما فيهن عشيقة جدتها.. بل إني حتى لم أجد لها صلة بخالها غازي، الذي لا أكاد أقبض على صورة ثابتة لشخصه.
وأذكر الآن اني سألتها فيما تلى ذلك من أيام تعارفنا عن أمر غازي فأكتفت بإبتسامة حيرة وصمتت، وقدرت حينها من طبيعة تلك الابتسامة أنها هي الأخرى تعاني من انقسام

غازي على عدة صور مازالت تنتظر التحميض والطبع ((ليعرف المرء ماذا يأخذ منها وماذا يدع لذاكرة غير ذاكرته)) كما قالت.. ولكن الذي أنا متأكد منه، وهو ما وافقتني عليه هي فيما بعد، أن صورة الثائر الساعي إلى قلب نظام الحكم، التي حاولت شغف الأولى تحريضه عليها بأفكارها الشيوعية، لم تكن من بينها أبدأ، لأن أفراد هذه العائلة مقتنعون أن السلطة هي التي تسعى إليهم عندما لا تنحرف حركة نجومهم عن مقاصدها بفعل فاعل، كما كانت تقول سعاد خانم. تلك الفترة كان غازي يعيش مرحلة تيهه الكبرى، وهذا لم يكن بسبب إغلاق صدام حسين للملاهي والنوادي الليلية، تحت شعار حملته الايمانية التي فرضتها عليه تكتيكات تعبئة حرب الثمان سنوات، ولا بسبب زواجه من احدى راقصات كتاب فنانات بغداد وتحوله إلى رب أسرة تحكمه التزامات هذه المؤسسة المتخلفة النوايا والأهداف، كما كان يتندر، وإنما بسبب تشابه الأيام وطول تكرارها لتعطل أقدار بغداد وهي ترزح تحت بلاهة عهدها الجمهوري: بلا فيضانات ولا طواعين ولا وزارات تستقيل وبلا إرادة ملكية تضفي ألوان البهجة على رتابة الحياة التي لم يعد في فاترينتها غير وجه صدام. لذا فإن أوقاته قسمها مزاج ساعات يومه بين حضن زوجته الراقصة وفرضيات شغف الأولى السياسية وممازحات ولعبة أشباح ابنته شغف الثالثة، وارتحالات حفيدة شقيقه حافظ، سولافة، في متاهات تاريخ لم تقع أحداثه، ومراسلاته الحالمة مع شقيقه مكي، الذي اختار تلك الفترة ليرسل للعائلة ولده الوحيد من

غربته، من أجل أن يموت تحت مظلة أقدار العائلة. أرسله بصحبة المس جين (صديقة المس بيل)، التي عانت في تلك الفترة حنينا انطلوجيا إلى أيام شباب غازي التي نسيها هو من يوم محاولة اغتياله الأولى.. ولذا فإنه وجد صعوبة كبيرة في تذكر المس جين وآليات تقبله لها، رغم أنها حافظت على شباب أيقوني جارح، كأمه سعاد خانم.
وبوصول الصبي إلى القصر عادت مشكلة اختيار اسم جديد لفرد آخر من أفراد غربة العائلة لتطفو على سطح ركود غرفة طعام القصر.. وفجأة وجدت سعاد خانم نفسها أمام فراغ إرتكاسي مفزع بسبب عبث الموت بأفراد عائلتها وخطفه لهم دون هدف منظور.. فلولا الموت لكانت الآن ليز الجميلة بينهم، لتصل بحسها الاستقرائي لإسم يناسب تكوين الصبي البارد وضبابية تفكيره وحذره اللامبرر. سألته عن شهادة ميلاده فأكتفى بهزة نفي من رأسه عبر غلالة صمته الحجري الذي ذكرها بصمت العامل الانكليزي، والذي ذكرتها ذكراه بصمت ابنتها شغف وعزلتها القرميدية، فخفت إليها لتطلب منها المساعدة في ايجاد اسم يناسب توحد الصبي وإرتهانه الروحي لقدر بلا اسم. وجدتها تجلس إلى نافذة غرفتها بصمتها الملائكي الذي لا يقبل المساومة.. ودون أن تلتفت إلى أمها قالت ((لا أظن أنه سيحتاج لمثل هذه الخدعة الباردة.. دعيه يمضي من دون توكيدات)). ثم ابتسمت للصبي وسألته ((هل هذا يناسبك أيها الولد العتيق))؟ فسألتها سعاد خانم ((وهل كنت تعرفينه))؟ إلا أن شغف عادت لصمتها وعادت عيناها إلى المجهول الذي كان

ينتظر نظرتها الشاردة منذ فجر الخديعة. من يومها عرف الصبي بالولد القديم، إذ استبدلت كلمة عتيق بكلمة قديم لتسهيل التداول لا لتخفيف ثقل صمته. الغريب أن المس جين ذاتها لم تذكر له اسما وأخذت تناديه بهذا الوصف كأي فرد من أفراد العائلة؛ ربما بسبب الاحباط الذي أصابها إذ وجدت غازي يدلف إلى ذاكرة نملية باستسلام عجيب.. إذ طلبت منه مرافقتها لزيارة قبر قريبتها العتيقة، المس بيل، فرفض بحجة أن المقبرة الانكليزية قد آلت مرجعيتها، ومنذ عام ١٩٧٥ ، إلى الوقف السياسي للحزب القائد باعتبارها ((إرثا استعماريا بغيضا))، كما وصفها بيان الحزب الذي نشر في جريدة الحزب الداخلية حينها، وان السفارة البريطانية لم يعد لها حضور في تلك المقبرة حتى في شخص الحارس الذي كانت تدفع راتبه الشهري ((لأن عمله لم يكن وطنيا))، كما جاء في شرح البيان للاسباب الموجبة لذلك القرار. ولأن كلامه لم يكن معقولا بالنسبة لها، أوعزته إلى حالة انغلاقه التي خيبت آمالها. في صباح اليوم التالي اصطحبت الولد القديم واستأجرت سيارة اجرة إلى المقبرة لتجد الاهمال قد عاث في كل رموز هيبتها وثقلها الروحيين، وإنها قد تحولت، بموجب قرار الحزب ذاك، من مقبرة انكليزية إلى مجرد مقبرة من المقابر التي تزاحم سكان بغداد بعدم رصانة موتها وكابة وجه تمظهره فيها. بحثت عن بيت الحارس فلم تجده ووجدت قرب مكانه شابا أنيقا ببدلة رمادية وربطة عنق سوداء، تدور عيناه في كل اتجاه، كالأحول، فسألته عن الحارس فأجابها بعصبية تدلل على

زخم روحه الوطنية ((وما حاجتك لحارس مقبرة استعمارية؟ ولماذا يحرس البريطانيون قبور موتاهم؟ ألكي لا يذهبوا إلى الجحيم أم من أجل أن يذكرونا أنهم مازالوا هنا))؟ فأجابت بحكمتها الانكليزية ((بل من أجل أن لا يزعجني أمثالك عندما أزور قبر صديقتي فقط))! وهنا خرج الولد القديم من صمته ليسألها وصوت تكسر قطعة خشب جافة يصدر من بطنه ((ماذا تفعل قريبتك هنا؟ هل كانت من أهل الحي لتدفن هنا))؟ فردت عليه بغضب مكبوت ((قل لي ماذا يتكسر في داخلك قبل هذا))؟ إلا أن الولد القديم عاد لصمته تداركا لفضيحة ذلك الصوت المخزي الذي كان يرافق كلماته. عندما عادت المس جين والولد القديم إلى القصر عصر ذلك اليوم، استوقفهما ثمانية مسلحين ببدلات رمادية على بوابة القصر ليأخذوا الولد القديم في احدى سيارتي الجيب التي تقلهم وليمضوا به دون أي ايضاح. وبعد ثلاثة أشهر وعشرة أيام عادت احدى السيارتين لتلقيه أمام بوابة القصر مع ملف كامل عن حياته من لحظة سفر والده، مكي عبدالكريم رستم، إلى لندن إلى لحظة دخوله العراق برفقة المس جين. أوضح ذلك التقرير أن الولد القديم قد ولد قبل ولادة سولافة بشهر واحد فقط، وأن أمه المدعوة (ماريا براون) محامية من بورتسموث، إلتقاها مكي عبدالكريم رستم، عندما كانت في الثلاثين من عمرها وهي تبحث عن شهود على أحداث الاحتجاجات التي اعترضت على توقيع معاهدة بورتسموث التي وقعها رئيس الوزراء صالح جبر مع الجانب البريطاني عام ١٩٤٨ ،

والتي كان أحد ضحاياها والد موكلها الذي سحقته سنابك حصان أحد ضباط الخيالة الذ ين شاركوا في قمع تلك الاحتجاجات التي أسقطت تلك المعاهدة. ورغم أن مكي لم يكن أحد شهود تلك الاحتجاجات، ورغم أنه لم يؤمن بأن جهود ماريا ستنتزع حقا من إرث وزارة المستعمرات البريطانية لصالح ذلك المهاجر، إلا أن ماريا أحبت لون عينيه الذي ((لا تتمتع به إلا أميرة شرقية))، وسعة آفاقهما التي لم تكن تتوفر لأمثالها من ذوي الاصول العمالية. في بداية لقائهما في أروقة المحكمة، أنفقت شهرا كاملا لاقناعه في أن يكون شاهدا عاما على تفاصيل آثار تلك الاحتجاجات، إلا أنه رفض لأنه كان صغير السن حينها ولا يتذكر من تلك الأحداث إلا ما كان ينقله جده وأبيه عن تفاصيل تلك الاحجاجات في أحاديثهما العابرة على مائدة الغداء.. ثم أضاف وهو يغمز لها تأكيدا على نزاهته ((وبالتأكيد لن يكون رأي وزير في احتجاجات تهدد مركزه منصفة أو حتى محايدة)). إلا أن مكي وافق على دعوة عينيها وفتح لهما آفاق عينيه لترمم على أطرافهما مرارة أصولها العمالية. على مائدة عشاء تلك الليلة رفضت التصديق أن يكون والده الوزير من أصول فلاحية لا ترتقي ثقافته إلى ثقافة والدها عامل سكك الحديد، وأن جهود أمه وحدها هي التي حولت بندقيته، كأحد ضباط الجيش إلى صولجان وزاري، وإلا لكان الآن أحد مساعدي الضابط ستار سبع العبوسي الذي أباد العائلة المالكة في حديقة قصر الزهور في صبيحة الرابع عشر من تموز/يوليو عام

١٩٥٨.. ثم أضاف ((وكل هذا طبعا من أجل أن تحصل الماما على زوج يليق باصولها الارستقراطية.. وحسن فعلت إذ خلصت البلاد من هيكل ضابط كان لن يصلح لأكثر من أن يكون قائدا عسكريا يقود الانقلابات))! لم تعنها تلك التفاصيل بقدر ما عنتها عينيه فاصطحبته بعد العشاء إلى شقتها، ولكن ليس لتسمع منه المزيد من اعترافاته الصريحة أو ذكرياته الغائمة عن ملابسات معاهدة بورتسموث غير المنصفة، وإنما لتغرق في آفاق ما أسفل نظرة عينيه التي قهرت دفاعاتها وأستحلت قلعة أنوثتها من أول لقاء.. وكان الولد القديم ثمرة تلك الليلة الدافئة التي نسيا أن يوقدا فيها نار المدفأة. أتقن الولد القديم اللغة العربية ولغة الاستعمار في آن واحد، بسبب اصرار مكي على أن لا يستعمر أبنه عرقا ولغة. كما أكدت احدى فقرات التقرير على خضوع الولد القديم لعملية ختان (أثناء فترة اعتقاله)، في مستشفى مدينة الطب في بغداد لمنع تشابهه، عضويا وعقائديا، ببنية نشأته الاستعمارية، وتحسبا من أن يورثه الأمر حنينا مرضيا إلى نصفه الاستعماري البغيض ذاك. إلا أن التقرير أخفق في تحديد أسباب القرقرة التي كانت ترافق كلامه وتطغي عليه بصوت يشبه صوت تكسر أخشاب جافة، فقد رجح أن تكون ناتجة عن اصابة مبكرة بداء استعماري مريب. في حين أكد تشخيص رعيل أشباح شغف الثالثة أنها تعود لصوت تكسر عظام جد أمه الذي خطفته احدى ملكات الجن بعد تسلقه لاحدى قمم جبال هملايا وحجزها له كعشيق لنفسها.. ولكن، وبسبب حنينه

المرضي لأهله، حكمت عليه تلك الملكة بالتعليق من قدميه في وجه الرياح المتجمدة التي تقر عظامه مع كل هبة ريح باردة. الوحيد الذي أرجع عائدية هذا التقرير إلى جهاز المخابرات كانت شغف الاولى، بحسها السياسي الذي لا يخيب، فعلقت المس جين بدهشة ((لم لا يكون لكم خبراء ومهندسين بمثل هذه الدقة في المجالات الزراعية والصناعية؟ لو كان لكم خبراء في هذه الحقول بمثل دقة هذا الحساب لكنتم الآن من بين الدول الأكثر تقدما في العالم)). الفقرة الوحيدة التي أخفقت المس جين في الوصول إلى أسبابها من بين فقرات التقرير غير المكتوبة، كانت بقع الدم والآلام المبرحة التي عانى منها الولد القديم لشهور طويلة في نصفه الأسفل، والتي رفض تحديد مكانها أو التصريح باسمها بسبب خجله اللاهوتي.. وبعد طول تفكير وملاحظة دقيقة أرجعتها المس جين لتعرض الصبي لعملية اغتصاب جنسي؛ ورجحت أن يكون من استخدمه جنسيا رجلا ساديا عنيفا ما أورث الصبي جروحا غائرة يخجل من التصريح بها أو تحديد مكانها. إلا أن الفحص السريري الذي أجراه أحد أطباء العائلة (بعد استفحال شدة الألم على الصبي وبلوغها حد عدم الصبر على احتماله لها)، أثبت ذلك الفحص وجود جروح غائرة في منطقة ما لا يسمح الخجل التربوي بالتصريح بإسمه، ووجود قطع صغيرة من الزجاج الغائرة في تلك الجروح، ما رجح أن يكون مصدرها ومصدر التقرير جهاز المخابرات العام، لأنه كان الجهاز الأمني الأكثر استخداما لكرم ضيافة معتقليه

على قناني المشروبات الغازية مكسورة الرؤوس! بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ، داهمت قوة مسلحة من أربعين رجلا قصر سعاد خانم لتعتقل المس جين بسبب تجاوزها على مدة تأشيرة الدخول ليومين كاملين من دون تثبيت موقفها أمام دائرة الاقامة والهجرة واقامتها في البلاد بصورة غير شرعية. الوحيد غازي الذي أسف لنهايتها تلك، وعلق عليها في ختام جلسة تذكر لمناقبها مع شغف الاولى ((لقد اختارت التوقيت الخاطئ لتصفح أدراج ذاكرتها))، فعلقت شغف الأولى المتداعية إلى جانبه ((كلنا نفعل ذلك)).
وصمت الاثنان ذلك الصمت المناهض الذي لا يقبل المواساة.. وفي لحظة بديا لي كممثلين استنفدا جميع حيل خزينهما ولم يبق أمامهما غير رحمة المخرج الذي استسلم لقيلولة غير مبررة في ذروة العمل.. واستمر صمتهما حتى ظننت أنهما لن يفيقا إلا بإفاقة ذلك المخرج الذي نسي جميع مواعيد عمله، لولا اطلالة الفتاة البحرية، الصغيرة بابيون، بنبوءة نهاية حرب الثمان سنوات في منتصف ليلة ذلك اليوم، والذي قالت أنه سيصادف موعد قدر زواجها، فسألها غازي معابثا ((وهل فرغت الأقدار من تنظيم شؤون البشرية المعلقة، منذ حكاية التفاحة الأولى، ليكون لها فائض وقت للتدخل في رسم تفاصيل زواجك))؟ فردت الفتاة البحرية بحيرتها البحرية المعهودة ((لا بالتأكيد، ولكن هو الأمر هكذا دائما.. كأن الأقدار مصابة بمرض ما أو عمى الألوان))! في منتصف تلك الليلة، وفي لحظة اعلان وقف اطلاق نار حرب الثمان سنوات، وصل سائق شاحنة،

سرابي المقدرات، يحمل في حوض شاحنته المتعبة، الوزير عبدالكريم رستم مثقلا بحنين مرضي إلى معتكف فضائح سلسه وأقفاص طيوره المهجنة وحيواناته الداجنة. كان السائق شابا منسيا لإصابته بعتمة الحرب وبلا خطوات.. ورغم أنه كان سائقا فقط، إلا أنه كان يرتدي بدلة عمل رمادية، ذكرت العائلة بالعامل الانكليزي، إلا أنها كانت تفتقر إلى فصاحة ذلك العامل فيها وملطخة بظلال حلم ثقيل أحالتها إلى ما يشبه منديل فراق متصابر. لم يكن مظهر السائق حزينا، إلا أن هالة الصبر التي كانت تحيط برأسه، كانت تظهره بمظهر قديس حزين. وعندما أطلت الصغيرة بابيون واستباح حضورها البحري صالة الجلوس، نهض لينزع من رقبته سلسلة عتيقة تتدلى منها منحوتة متسلطة على شكل غيمة من حجر بحري كامد وألبسها إياها وهو يقول بلهجة عراف حاذق ((ها أنت هنا أيتها الغيمة الصغيرة)). ومن تلك اللحظة وقع كل في حب الآخر ولم يفترقا إلا بالموت، رغم كل حروب سعاد خانم الطبقية. كان يمضي يومه في نقل المكائن الزراعية المستوردة من الهند وقطع غيارها، ويأتي مع غروب الشمس، تفوح منه رائحة الصبر، ليصحب الصغيرة بابيون في نزهات مسائية في شوارع بغداد المزدحمة ليمرحا ويأكلا سندويشات الهمبرغر من مطاعم الوجبات السريعة، رغم غضب وتهديدات سعاد خانم واحتجاجاتها الطبقية على أصله العمالي. ولتضع بابيون البحرية حدا لاحتجاجات سعاد خانم تلك، تركت دراستها الجامعية وارتدت بدلة عمل رمادية مماثلة لبدلة

حبيبها وقالت متحدية ((لنرى الآن إن كان ما سيلطخها رائحة الصبر التي تفوح منه أم بقع دمك الأزرق))! وبعد ستة أشهر من حب مطري عابق بروائح كل البحار العاصفة، أعلنت بابيون المطرية بصوتها البحري الهادر أنها ستتزوج من السائق ذو هالة الصبر عندما ينهض القمر من رقدته على ظهره ليواتي حس نجم لقائهما. إلا أن تلك الرقدة طالت، لأن جميع الاكتمالات القمرية التي توالت لم تواتي حس نجم لقاء الحبيبين؛ فشغلا أوقات انتظارهما في الغرق في حب بعضهما إلى أقصى جذور خياليهما، وتفانيهما في حصر مساراته، ليوافق حس بابيون المطري المحافظ، في القبل، التي كانت ستقودهما أكثر من مرة إلى السجن، بسبب عرقلتهما لإنسيابية المرور في شوارع الأحياء الراقية، التي كانت عوائل رموز السلطة تتبضع من أسواقها ويسهر رجالها في بيوت دعارتها السرية، مما وضع تسكعاتهما موضع شك دوريات شرطة النجدة وجهاز الأمن وجهاز المخابرات الحارسة لأمن تلك الشوارع، بسبب ارتداء بابيون لبدلة العمل الرجالية، مما جعل أكثر من دورية تشك في أن تكون تلك القبل مثلية تتم بين عاملي ميكانيك متواضعي الاصول. ولأن رقدات القمر، على ظهره، طالت لمدة تجاوزت حدود توقعات بابيون وأجبرت العاشقين على اطفاء لهيب عشقهما بجولات قبل مضاعفة، قادتهما في النهاية لقطع السير على أحد المسؤولين الكبار، ووقوعهما في يد رئيس الفريق الأمني المسؤول عن حماية تلك الشخصية المهمة، والذي فسر الحادث، وفق منطق

تعاطيه مع الأحداث، على إنه ذو دوافع سياسية تم بتوجيه وتمويل احدى القوى الاستعمارية الكبرى بهدف إفساد الأخلاق العامة، والذي سيقود، بالضرورة، إلى الاخلال بالأمن العام.. فألقى القبض عليهما ليحالا، بعد عام كامل من التحقيق، إلى محكمة أمن الثورة بتهمة التخابر مع القوى الامبريالية والعمل على قلب نظام الحكم. وطوال فترة اعتقال العاشقين، لم يتمكن أي من أفراد العائلة من زيارة بابيون البحرية.. بل إن ذلك الاحتجاز إعجز بقتامته رعيل أشباح شغف الثالثة ذاته، ولم يتمكن أي من أفراده من الاتيان منها بخبر.. كما أن هوله أخرج شقيقتها شغف من صمتها الملائكي وأعادها إلى دائرة القلق البشري، فأخذت تدور في أرجاء القصر لتحدث الجميع عن مرض فراشة الصغيرة بابيون وحزنها لغياب بابيون. وعلى عكس جميع مواضعات الفلكيين والروحانيين، تمكنت شغف الثالثة من الاتصال ببابيون، في ليلة غاب قمرها، لتخبرها أن ثمة قدر بلا وجهة يترصد مصيرها - بصفتها أحد أفراد آل الحافظ – ويمسح في كل مرة نقطة إلتقاء خطوطه..، وهذا ما منع زواجها من السائق ذو هالة الصبر، رغم أنه كان مقطوعا بأمره من لحظة ولادتها. كما أن هذا القدر التائه كان هو المسؤول عن دفع دورية ذلك المسؤول المهم في طريق عشقها لينتهي بها إلى السجن ولمواجهة تهم بأقدار غادرة.

*** كسر غياب بابيون الرقيقة الكثير من قوالب حياة القصر وأغلب هالات إنطوائه. فسعاد خانم الضاجة بكل لغات حسها، ركنت كبريائها إلى حالة إستسلام لخيبة الكلمات.. والولد القديم لجأ إلى كنيسة منعزلة، في منطقة باب المعظم، (متخصصة في الإستجابة لتضرعات ونذور النساء العوانس والأرامل)، ليتمرن على طريقة صوفية لترويض الجسد، ساعدته في النهاية على السيطرة على صوت تكسر الخشب الجاف الذي كان يطغي على صوت كلماته.. وخادمات القصر، اللائي شاخ أغلبهن وأثقل الحزن خطواتهن، درن بلا هدى حول زوايا إهمال العائلة بحثا عن ظلال فتاة البحر ورائحة المطر التي تفوح منها وتهدي العصافير والفراشات إلى شرفة غرفة نومها.. ووالدها الوزير، العائد من خيبة ركنه في بساتين البصرة، فقد إحساسه بالأشياء من حوله وجلس في زاوية الحديقة القصية ليستسلم لحالة صمت كاملة، ولدفق سلسه، الذي طغى على مشاعر خجله التي لم يعد يراها.. وشغف الرابعة توحدت في حالة ذهول خالتها، مازاد الشبه بينهما حد الفزع، ولم يعد يفرق بينهما غير ملبسهما، لأن الخالة

شغف تمسكت بفستان ذهولها وعزلتها، فستان حدادها الأبيض الذي كانت تلبسه في يوم إنتحار العامل الانكليزي وإعتكفت في صمته من يومها دون أن يتسخ أو يبلى أو يفقد خطوط كيته الاولى.. أما شغف الرابعة فقد داومت على لبس زيها المعتاد، والمحصور بين بنطال الجينز الرمادي والبلوزة الزرقاء طويلة الأكمام، واللذين صارا كعلامة فارقة لكل منهما وهديتا أفراد العائلة للتفريق بينهما. وحدهما شغف الثالثة وسولافة اللتان شذتا عن هذه الحال لماورائية تلقيهما وتعاملهما مع الأشياء من حولهما بفطرة ما قبل الحضارة، رغم عجز رعيل أشباح شغف وتلقيات سولافة الغيبية عن فك حصار أقدار جهاز المخابرات السياسية عن مصير العائلة. وفشلت جميع محاولاتي لكسر صمت أي من سكان القصر، بما فيهم الخادمات الهرمات والوزير المتداعي، الذي أهمل أحواض زهوره وأقفاص طيوره وحظيرة حيواناته المهجنة التي أجبرها الجوع والعطش على التصريح بأصواتها الجديدة، التي لم تطابق أحلام السيد الوزير.. وعمت فوضى الاصوات المهجنة فضاء الحديقة بتغريد الحمام المبحوح ونواح البلابل الذي شابه نعيق غربان المزابل وعفطات الببغاء الجهورية التي صمت أذنيّ كل من مر بها وإن كان في فورة ذهوله الغيبية. كما إن تبادل الحصان والكلب (اللذان كان السيد الوزير قد أهداهما لأبنته الذاهلة شغف ذات يوم حرب بارد) لأصواتهما وضعهما في حالة مزرية من هول مفاجأة وضعهما الجديد، فصار الحصان ينبح بسعار من جوعه

والكلب يصهل وهو يقلد خبب الحصان من عطشه، وربما هذا ما أجبر الببغاء الوقح على ترك الكلام والتفرغ لعفطات السخرية للاثنين، وهو يراهما يدوران حول فزع أصواتهما دون هدى. وأمام نتانة روائح مخلفات تلك الحيوانات والطيور التي أهملت دون تنظيف، لم يعد أمامي غير إطلاق سراحها للتخلص من إرث وجودها الواقعي، فحدثت سعاد خانم المستسلمة لوجع أمومتها وصمت لم يشبهها يوما، فأشارت لي بيدها أن افعل ما تراه بعيدا عن صمتي. إلا أن المفاجأة جاءت من رد فعل تلك المخلوقات تجاه فعل الحرية الذي منحت إياه بغفلة من أقدارها؛ لأن أغلبها رفض مغادرة أقفاص حبسها أو نست كيفية التعامل معه.. وعندما أجبرتها على مغادرة تلك الأقفاص تحركت بكسل مريع لتشارك راعيها الوزير صمت خذلانه المحصن بضرائب الزمن وفساد الحكومات الجمهورية. مع دخول موسم المطر ثقل حجم الصمت ليشمل زمن العائلة إلى أقصى عروق ماضيه، وافترشت كثافته أفق تطلعات القصر المسكونة بصدى إرتجاعة لم يعد يخترقها صوت. وبتوالي الأيام، عشش ثقل المطر في صباحات القصر وأماسي برده حتى استحال إلى ذاكرة من هواجس الركود والخوف غير المعلن: الخوف من خبيئة تفترش المساحة بين شطط المجهول ووجه الله الغائب أبدا عن سماء بغداد. جهد المطر ليحضر لنفسه تاريخا ذكر سعاد خانم بفيضانات نهر دجلة واغتصاباتها لفسحة الصباحات من عيون الناس، ولفسحة الانتظار من سقف وجعهم. لأيام وليالي تكدس

المطر في كل زاوية غاربة، كذاكرة رمادية لا تمل الطراد. تكدس في العيون وفي أشباح زجاج النوافذ وفي ظلال الستائر وفي هواء الزفير وتحت مصاطب الخاطر..، فبات كل ما حول أهل القصر لا ينضح إلا ثقل المطر وكآبة غمره، حتى تمكن من كامل أغوار فزع الحزن الرابض في مجاهيل الأنا المعتمة.. بات الجميع ينام ويصحو بتعابير الجهامة ذاتها وألوان الصمت عينها، ولا يتبادلون من أحاديثهم اليومية إلا بعض الكلمات المقتضبة التي تضطرهم إليها الحاجة الفعلية.. وكنت آخر من إنطوى إلى صمت جحره لولا تدخل أشباح شغف الثالثة وايحاءات سولافة التليابيثية ووضعها حدا لذلك التداعي ببثها لفكرة نسيان المطر في ثنايا القصر، كشعور طقسي، كالشعور بالدفء الذي عادة ما يلازم المطر.. وقد جاء ذلك العلاج بهيئة عرافة شابة رقيقة، دخلت القصر في صباح خميس دافئ، لتقرأ طالع الجميع عبر خطوط الكف، ولتبث شعور النسيان فينا عبر ملامستها لأكفنا الباردة، وهي تمسك بها بحجة قراءة تقاطعاتها ورموز إشاراتها. كان أول من تجاوز الحالة سعاد خانم، التي تذكرت فجأة زوجها المنسي على قارعة المطر في وحدة حديدية قاهرة. سحبته من يده، كصبي في السادسة وأدخلته الحمام لتسقط عن كاهله أوحال الصمت وهواجس المطر؛ ثم حفضته وألبسته احدى بدلات مجده الوزاري وأرقدته في دفء سريرها لينام وينسى فداحات صمت المطر. ولم تمض إلا ساعة واحدة حتى افتقدته حيواناته وتقاطرت إلى صالة الجلوس، بكامل حزنها

المطري، لتبحث عن غيابه الذي لم تهتدي إليه بسبب تجاوزه لمحنة حزن المطر، فتكدست في الصالة بصمت رهباني أحال صالة الجلوس إلى فوضى من الأوحال والروائح المضللة. واستنفدت الخادمات الهرمات كل حيل الاغراء بالطعام البشري والمعجنات وحلوى الشوكلاته والأعلاف الحيوانية لسحبها إلى الحديقة دون فائدة، الأمر الذي اضطر شغف الثالثة للاستعانة برعيل أشباحها، والتي أضطرت للتنكر في هيئات حيوانية مماثلة ورطنها بنفس أصوات تهجين تلك الحيوانات لتكلمها بلغاتها الجديدة وتقنعها بالعودة إلى أقفاصها التي أسرعت الخادمات الهرمات لترتيجها وسدل الستار على آخر أعراض مرض المطر الصامت. شغف الثانية، ورغم شرودها الأثيري القريب الشبه بحزن المطر، إلا أنها كانت من بين أول الخارجين من ثقل ذلك الحزن الصامت، وبكامل وقارها الملائكي. ففي اليوم التالي عادت للتنزه في حديقة القصر بفستان صمتها الأبيض القاني وفراشة بابيون تقف على كتفها الأيمن بحزن مطبق. كانت المرة الأولى التي أرى فيها شعرها مطلقا ومنسرحا على ظهرها ليجسد كامل جلال أنوثتها وجلال عزلتها المقدسة. كل شيء فيها كان يوحي أن هذا الكيان المعجون برفض البداهات، لا يليق به إلا موت اختياري لا يخلف الحزن، كما تنبأت ليز وشغف الثالثة لها. لم تكن منحسرة ولا تعيش خيبة خذلان قدرها أو نكوص نجمها، كانت تطفو على صيف زمنها ببسالة ملك تنازل عن عرشه من أجل عيني حبيبته. مر والدها بجانبها

وهو في طريقه إلى زاوية معتكف مداراة خيبته، بعد إفاقته من صمت المطر، بخطوات أثقلها حمل حفاضته، فإبتسم لها وحياها، فردت على تحيته بحيادية أفزعته، فسألها إن كانت تتذكره فأومأت له برأسها وهي تبتسم بنفس الحيادية، ومضت إلى داخل القصر بخفة فراشة لا يثقلها احساس الأشياء من حولها. مع دخول المساء، فرغت نفسي لانتظار زيارة سعاد خانم، بعد غياب حقبة الصمت تلك. كنت متلهفا لإطفاء غضب جسدي في حمى اكتناز سطوة تعاليها ومجد ارستقراطيتها الجارح كنصل سكين. كنت بحاجة للنيل من مغاليق سرها الملكي من جديد، وإنتهاك قدسية حرم أناقتها وكرم اهابها بحنين يشعرني بالدونية ويتوق إليه أمثالي (هل عليّ أن أقول من ذوي الأصول المتواضعة؟؟!) بروح الثأر والانتقام... كلا! كلا! ما كنت أتوق إليه فيها، بلهفتي التي تصل حد المرض المعذب، هو ذلك الاكتناز الأنثوي الموجع، الذي يسبكه فيها ترف العيش... وقبل ذلك، ذلك التسلط الأصيل في شخصها، وسطوة الحضور التي تمكنها من بسط نفوذها على كامل حضوري وهي تمنحني غضب جسدها الذي يتعدى حدود إبهار جمال أميرات الفاترينات ونجمات السينما وأغلفة مجلات الدعاية الاعلانية. لم يكن إنتقاما ولا روح ثأر بالمرة... وأنا متأكد من هذا تماما! كانت تقود حروبها بنفسها؛ وتقتحم وتستبيح ما يناسبها من قفار رهاناتي، لتتمدد على مساحاتها وتدلي ساقيها وتسترخي حتى أخر قطرة في حوض تلك الرهانات. ولكن، وعلى عكس توقعاتي، كانت شغف الرابعة من إقتحم شتاء

جحري تلك الليلة.. دفعت باب الغرفة ودخلت دون إستئذان، وهي ترتدي زيا أميريا بإمتياز: فستان سهرة أسود بلا أكمام وعليه جاكيت رمادي داكن يصل إلى ركبتيها. أغلقت الباب وأدارت المفتاح في قفله بهدوء، وأسندت ظهرها إليه ورمقتني بنظرة إستهجان طالت حتى ظننت أنها لن تنتهي، فقلت بهدوء أبوي ((أرجوك إفتحي الباب))، فسألتني بإستخفاف شامت ((لماذا؟ هل أنت خائف أم تنتظر أحد))؟ فقلت دون أن أتحرك ((بل أنا أستمتع ببرودة هواء المساء)). وبدل أن تفتح الباب فتحت أزرار الجاكيت وخلعته لتقذفه في وجهي، فسقطت إحدى حمالتي فستانها لتكشف عن أعلى نهدها الناصع كقطعة عاج، فأعادت الحمالة إلى كتفها ببطء وهي ترمق حريق عيني بشماتة وإنتصار، فقلت بنفس الهدوء المصطنع وأنا أمشي بإتجاهها ((أرجوك إفتحي الباب...)) فقاطعتني بحقد هذه المرة ((لمن تنتظر وتخاف أن يفاجئك الآن))؟ فقلت وأنا أقترب منها ((ولم تظنين هذا))؟ دفعتني في صدري بقوة لتعيدني إلى السرير وهي تقول بلهجة آمرة ((إجلس في مكانك وأخبرني إذن كيف ولم تقضي لياليك في مثل هذا الجحر المنسي؟ هل تستمتع بإهمالك هنا))؟ فسألتها بإستفزاز ((ممن تعنين))؟ فردت بتحد أنثوي ((أنت فهمت قصدي تماما)) فسألتها بلهجة الاستفزاز عينها وأنا أتمدد في سريري وأسترخي ((ماذا يشغلك في أمري بالضبط))؟ فاجأتها جرأة سؤالي فصمتت وإبتعدت عن الباب بما يسمح لي بفتحه، فنهضت لأفتحه؛ إلا أنها، وقبل وصولي إليه

عاجلتني بضربة من ركبتها بين فخذي فتهاويت على ركبتي من قسوة الألم .، وخطت هي بإتجاه السرير، وإبتسامة كامدة ترتسم على نصف وجهها الأسفل، من دون عينيها، لتخطف الجاكيت الرمادي ولتمضي دون أن تلتفت إليّ. أول ما تبادر إلى تفكيري، بعد إفاقتي من ألم تلك الضربة هو تساؤل ساذج كملح فاسد ((كيف لإمرأة تشبه شغف الثانية أن تصنع ألما))؟ ورغم أني أعدت ذلك، بسذاجتي الطبقية، إلى ما ورثت من حذر وشك النزعة القروية التي ورثت عن فهمي مراد، إلا أني سرعان ما عدت وتجاوزت هذا الفرض السخيف إلى تفسير أكثر إنسجاما مع عدم إبتسامة عينيها ((وقعت البنت على زاوية وجعها السري أيها الحارس المسكين)). أما لماذا عبرت عن ذلك الوقوع بهذا الاسلوب العنيف، فذلك عائد إلى أنها أرادت أن تستوفي مني ثمن انهيارها، إلى قاع رغبتها، وتضحيتها بسر أنوثتها على مذبحي المتواضع في وقت واحد. ولما عدت لأتحسس أثر ضربتها بين فخذي، حمدت الله انها إستوفت ثمن الاثنين بضربة واحدة لا ضربتين! ثم تذكرت سعاد خانم التي كنت أنتظر زيارتها بدل ضربة تسونامي المشاعر الفياضة تلك، فحمدت الرب مرة ثانية لظهور ما شغل سعاد خانم ومنعها من زيارتي تلك الليلة..، وكان ذلك بسبب خوفي من غضبها، الذي لن يكتفي بأقل من طردي إلى خارج خامة انتصاراتي على أمجاد أنوثتها الأرستقراطية. تقلبت تلك الليلة، وأنا منكمش الساقين من ذكرى ألم ضربة شغف الرابعة، حتى مل السرير تلك التقلبات وغفوت إغفاءة

المحموم، لتوقظني طرقات أكثر حمى على باب جحري.. نهضت متعثرا بظنوني وفتحت الباب لتواجهني شغف الرابعة، وهي ما تزال في ملابس الليلة الفائتة يلفها صمت شجرتي الحارسة كثعبان منتصب. وبنفس آلية الليلة الماضية، دخلت وأقفلت باب الغرفة وفي عينيها نظرة السؤال عينها. جاء رد فعلي سريعا ودون تفكير هذه المرة.. أنزلت سروال منامتي عني وقلت ((أظن هكذا تكون ضربتك أدق في تماسها مع موضع ألمي)).. مرت عيناها بشهوة فاضحة على موضع ألمي، قبل أن تعودا إلى عينيّ بنظرة التوسل... ولتتهالك على صدري وتغمغم ((بل اشطرني به نصفين يا غبي.. كم تظن أن تكون طاقة المرأة على المقاومة؟ لأكثر من مطلع الفجر؟ تكون بمنتهى الغباء لو ظننت أن ثمة أنثى بهذا القدر من قوة الكبح))! وفكرت في جزء من لحظة غامت تحت نصاعة البضاضة التي كشفت عنها حمالة فستانها المتهدلة ((رفضي الآن سيعني قتل هذه الدمية البائسة... وبالتأكيد أنا لست لئيما إلى درجة القتل))! عندما صرنا على مسافة شهقة واحدة من لحظة الإمساك بخيوط قوس قزح، غمغمت من خلف أسوار ضياعي إذا ما كانت راغبة في التضحية بآخر خطوط دفاعاتها الداخلية على مذبحي أم ستحتفظ بها لمذبح ألحشمة الاجتماعية، فغمغمت مغتاظة ((لا تكن غبيا إلى هذه الدرجة وتصرف بوحشية رجل.. انتصر على عبوديتك لأوهام سعاد خانم يا أبله))! وكانت الضربة التي طوحت بأوهام غرور رجولتي وحنوي الساذج... بل البائس على

حشوة تلك الدمية التي ظننت، قبل ذراع واحد فقط، أنها من قش... وكان علي أن أكون لئيما، وبحجم لؤم أي ارستقراطي من فصيلة سعاد خانم وشغف الرابعة، من أجل حماية حرم كبريائي، الذي سحقته لحظة تهالكي الوضيع على شهوتي، قبل مسافة الذراع ذاك.. كان غيري سيدعه، ممن هم أقل انصياعا لشهواتهم، خط كرامة أحمر.. ولكني ولدت بهذه العاهة! هل ثمة من ينكر، بين الرجال والنساء (على حد سواء) أنه شاذ على طريقته الخاصة؟ نعم، والجميع، باستثنائي أنا! هل إعترافي هذا فضيلة تحسب لي؟

على عكس إدعاء (كتاب الحكمة) عن فضيلة سرعة استفاقة الرجل، لم ولن أكون سريع الاستفاقة من لحظة سباحتي في حوض ألألم اللذيذ! ليس عنادا مني، وإنما لأني، أيضا، ولدت بهذه العاهة! وعندما أفقت، وجدت شغف ماتزال معلقة عند نقطة لا أراها، ما بدد زهو انتصاري في ذلك الفتح؛ لأني كنت أقاتل في ساحة حربها هي، ووفق معايرها هي... بل لست محاربا من الأساس..، ولن أكون! هل أدركت هذا هذه الشغف تحت سقف تلك اللحظة؟ أذكر انها ضمتني إليها وقبلتني في جبيني وقالت بحنو أم ((يا لطفلي الصغير البائس)). أفقت قبل إستيقاظ القصر، كعادتي، فأيقظت شغف من عريها بحياد، ودون أن تعصف بي نوبة هياج أمام فصاحة ذلك العري.. هل كنت في حالة شبع أم في حالة إرتكاس؟ نهضت شغف بتكاسل لترتدي

فستانها والجاكيت الرمادي وقالت وهي ترمق زهرة عفتها على ملاءة السرير بحياد ((غير هذه الملاءة أرجوك))، وخرجت كأنها تعود للبيت من واجب عزاء مفروض عليها.. كانت خائبة بإمتياز. الغريب، وهذا ما جاء على عكس توقعاتي، هو أني اشتهيت تلك الشغف، وشعرت بالحسرة لذهابها عني، بعد ساعتين من ذهابها فقط، وبحنين مرضي! ولم يخرجني من عتمة ذلك الحنين إلا اطلالة سعاد خانم في حديقة القصر الخلفية لتتمم على وضع زوجها الهارب إلى ذكريات مجده الوزاري القديم، ولتسترجع معي تفاصيل حزن المطر كذكرى خيبة مضافة لسجل خيبات العائلة ومنزلق تداعيها إلى هوة النسيان. كانت ماتزال تعيش مرارة فقد الصغيرة بابيون، وبيقين أنها لن تراها ثانية؛ إلا أن إحساسها ذاك كان أنيقا ككل مافيها ولم يأخذ شكل توجع النساء اللائي كنت أصادفهن في مآتم أحياء ماحول القصر وفي المقابر البعيدة وتحت سقوف أضرحة الأئمة والشيوخ القريبة من مستوى أحلام الفقراء. بعد جولتين من التسكع تحت أشجار النارنج، جلسنا على الدكة التي كنت أنفث عليها ساعات تحسري تحت ظلال شجرتي الحارسة، ولكنها بدل أن تسترخي في تلك الجلسة لتستريح، نهضت فجأة كأنها تلقفت إشارة من جهة ما، وأسرعت لتدخل جحري الصامت ولتقلب بعض موجوداته، ثم عادت لتتوعدني فيما لو فكرت بخيانتها مع أي كانت.. وأكدت على عبارة أي كانت وهي تقسم على وعيدها ((فأقسم بتراب ماما اني سأعلقك حيث تنسى اسمك)). سحبتها من ذراعها

بدلال وأنا أتظاهر بالبراءة وعدم الفهم ((ولكن ما مناسبة هذا الكلام يا صاحبة الجلالة))؟ فضربتني بقبضتها المضمومة على وسط رأسي وهي تقول ((لا تكن ببلاهة الجمهوريين ياولد.. اقرأ التاريخ وتعلم هدوء الرجال يا ولد)). فسألتها وأنا احاول تقبيلها فابتعدت بغنج ((وهل هذا تعلمه الكتب يا صاحبة الجلالة))؟ فردت بحزمها السياسي الموروث ((أبدا! بل هي طباع أصيلة كانت جزءا من ثقافة المجتمع ومحقتموها بثقافة الايدبولوجيات التي استوردتموها، أو ثقافة حرق المراحل الثقافية التي أقنعتكم بها الشيوعية والقومية السياسية التي فرضتموها كبديل لقومية الهوية من أجل أن يصل جنرالاتكم إلى السلطة)). فقلت وأنا إداعب أنفها ((ولكنك لم تجيبي على سؤالي..))، فقالت وهي تغمض عينيها نشوة ((انه احساس الأنثى عندما تهدد في أكثر نقاطها خصوصية.. فحذار أن يصدق هذا الاحساس ياولد)). فقلت مداعبا ((هل ستقتليني إذا ما صدق احساسك هذا))؟ فقالت وهي تبعد يدي عنها ((القتل ثقافتكم أنتم يا جمهوريين! نحن أكبر من أن نقتل ولو من أجل حماية مجدنا! وأظن أنك شهدت بإم عينك أن من قتل كان ستار عبدالكريم قاسم لا جلالة الملك فيصل الثاني ولا أحد وزرائه! ولعلك تعرف من كان ستار عبدالكريم قاسم ومن كان جلالة الملك فيصل الثاني ياولد))! ثم مرت لحظة أطرقت فيها كأنها تذكرت شيئا تناسته أو غافلت ضغطه لبعض الوقت، فسألتها عن الأمر فأوضحت لي أنها، ولأول مرة في حياتها تقلق على بكرها غازي، الذي مازال لم يفق

من أزمة خطف جهاز المخابرات للصغيرة بابيون وتغييبه لها، دون أفق ننتظر على ناصيته إيماءة لعودتها.. كما أنها كانت المرة الأولى التي أراها فيها تبكي كإمرأة..، فنهضت غاضبة ومشت باتجاه الباب الخلفي للقصر دون أن تلتفت إلي كي لا أرى المزيد من دموع ضعفها. غازي، الذي لم تستوقفه محاولتي إغتياله، ولا اعتقالات تحقيقات خيبتها؛ غاب مرحه الساخر وهجر بيت نجمة غلاف كتاب فنانات بغداد، وصار يقضي أغلب أوقات تيهه الجديد بالدوران حول نفسه في حديقة القصر وكأنه يطارد رائحة بابيون الرقيقة تحت ظلال الأشجار، دون أن ينتبه لوجود شغف الأولى التي كانت ترافقه في ذلك الضياع كظله.. وعندما كانت تنبهه لوجودها، كان يعود إلى أرضها ليقضيا أياما طويلة في فحص ثقوب عنجهية صدام بحثا عن منفذ سياسي أو أمني يهديهما إلى الجحر الذي يغيب فتاة البحر دون أمل؛ ليس بسبب رصانة استحكامات البيت الصدامي السياسية والأمنية، إنما بسبب تعطل حركة نجم العراق داخل مدار المقادير ماورائيا، وبسبب رصانة استحكامات الرعب التي نجح صدام في زرعها في التفوس، والتي مكنته من سوقها إلى سلسلة حروبه الشخصية، مفضلة الموت في تلك الحروب على عملية اعتقال أمني من قبل شرطة مكافحة الاجرام، أو سياسي من قبل جهاز مخابراته، أو عقائدي من قبل جهازه الحزبي الذي كان يحرس قدسية وحدانيته في سماء العراق. وعقب كل دوامة استغراق كان يعيد على سعاد خانم وشغفها السؤال عينه ((كيف تمكن هذا

القروي الأبله من تدجين هذا الشعب الذي كان يثور على نوري السعيد من أجل رغيف خبز أسمر أو من أجل إرتفاع سعر كيلو التفاح اللبناني فلسا واحدا؟ تصوروا أنه فرض عليه صوره الشخصية بدل عملته الوطنية في معاملاته التجارية وأرصدة عناداته الشخصية والشعب كالمنوم))؟ وفي كل مرة كان لا يركن، لا لإجابة سعاد خانم القدرية، ولا لإجابة شغف الأولى الممعنة في التشريح السياسي المؤدلج، كان يلجأ ألى والده الوزير، المعطل سياسيا وعضويا، والذي صار يقضي معه الكثير من ساعات عقابيل حزن المطر، وحقبة إجتياح صدام للكويت، على أمل تذكيره بأساس ثقافته كجنرال عسكري.. وفي كل مرة كان الوزير المعطل يعيد عليه إجابته الغاضبة عينها ((أنا ضابط حماية وطنية لا جنرال إنقلابات عسكرية يا ولد.. إن كنت بحاجة لجنرال انقلابات دموية فابحث عنه على أرصفة وطنيتكم الجمهورية)) ويأمره في كل مرة أن يتركه لعمله في حظيرة أحلامه التهجينية التي أنبتت، في احدى شطحاته المخبرية، الريش لجيل الكلاب الثالث، وفرو الكلب لأحفاد ببغائه، الذي لم يعد له من فصاحة غير العفطات، وهو يرقب تردي أحفاده في مهاوي الكلاب. ولكن، ومع فداحة كل هذا التردي التطوري، كان غازي يعود ليرتق فراغات تيهه بالحديث مع السيد الوزير، ولو في شأن ذكرياته الملكية أو شؤون حيوانته وطيوره التي تحولت إلى أشباح مخيفة، أو عن أحواض زهوره التي اختلطت ألوانها وتعددت في الزهرة الواحدة من أجل ((أن تتيح لأحفادي، عقب سقوط المطر،

الامساك بخيوط قوس قزح، بدل ألم الرقبة الذي تسببه لهم معاينة قوس قزح وهمي معلق بأذيال الغيوم)). تلك الجلسات، والحوارات العصبية التي تخللتها، كان لها الفضل في إعادة غازي لصلاته مع والده ورعايته له، كواجب أخلاقي قصر فيه طوال أعوامه السابقة.. فبدأ يهتم بشؤونه كاملة، من وجبات طعامه إلى أمر حفاضات سلسه المخجل. وفي أحد أيام تلك الرعاية اللاهوتية، جاءه بعلبة كبيرة مليئة بأكياس البول وقدمها له باعتباره البديل التكنلوجي المتطور لحفاضات تردي كرامته الانسانية؛ إلا أنه لم يستخدم منها سوى اثنين، لعجزه عن ايجاد مكان مناسب لإخفائها تحت وقار بدلات زهوه الانكليزية، والتي واظب على حفظ ما تبقى من وقاره الوزاري تحت أناقتها العتيقة، رغم أن حركته لم تعد تتجاوز حدود الدوران على أقفاص حيواناته الشبحية وأحواض زهوره الغريبة ومقعد وحدته الصامتة في أقصى زوايا الحديقة وأبعدها عن أعين المتنزهين من أولاده وأحفاده. وفي كل مرة كان يحدثه فيها غازي عن تغييب الصغيرة بابيون الرقيقة، في عزلته تلك، كان يغرق في ساعات من البكاء الصامت المتحسر وليقول ((البلد كله غيب وليس بابيون فقط.. هذا البلد غيب تماما عن رحمة السماء منذ لم يعد بمقدور شرطي صغير الوصول إلى مكتب وزير الداخلية في عقر وزارته ليحاسب الوزير رستم حيدر على خطأ، ربما لم يقترفه، دون أن يعترضه فصيل حماية الوزير، الذي لم يكن له وجود من الأساس.. في حين أنت اليوم، ممكن أن تلحق بالصغيرة

بابيون الرقيقة إلى حيث لا تهدتدي إليك أشباح ابنتك شغف لمجرد أن سيارتك تعطلت في نهاية الشارع الذي يطل عليه مبنى المخابرات العامة))! وعند هذا الحد، كان ينهض، في كل مرة، ليختفي خلف شجرة السرو التي تظلله ليغير حفاظته التي تفوح منها رائحة رعبه الأمني. تلك الحقبة، لم يكن غازي الوحيد الذي تذكر فيها ضياع الوزير المخذول وأدمن مجالسته فيها ومحاورته في شؤونه، التي هي أقرب ما تكون لغيبيات عتيقة، بل لحقت به شقيقته شغف التي بدأت تعاني من عدم جدوى وقوفها على حياد عزلتها الملائكية التي لا تقودها إلى شيء غير خيبة التكرار لدورة الأيام. كانت تترك فراشة الصغيرة بابيون، التي تداعت لهرم مضني، على طرف أحد أحواض الزهور، على أمل أن يساعدها هواء المساء على تجاوز محنة فقدها لبابيون؛ فيما تلثغ هي مع والدها المنسي في امور تختلط ألوانها كما تختلط ألوان زهور أحواضه التي ضيعت بوصلة انتمائها العرقي. عادة كانت تبدأ أحاديثها بقلقها من هرم فراشة بابيون وفقدان أجنحتها لنصاعة ألوانها.. ثم تعرج على ابن أخيها الاسكتلندي السكب لتمتدح صمته الأبيض.. وبعدها تقف مطولا عند الولد القديم، ابن شقيقها الغائب مكي، لتقول انه يعمل على ادخال الله إلى القصر بعد غياب لم نناقش أسبابه! وفي كل مرة كان الوزير يسألها السؤال عينه ((هل هو الولد الذي قلتي انه يدرس اللاهوت في الكنيسة))؟ فتومئ له برأسها موافقة فيقول هو بعدم ثقة ((فقط أرجو أن لا يأتي به من الكنيسة مسجى على نفس

الصليب ولا نسمع له كلمة يقولها))! إلا أنها كانت تواصل كلامها وكأنها لم تسمع أمنيته، لتصل إلى السائق ذو هالة الصبر لتكرر وصفها له ولبدلته الرمادية ولهالة الصبر التي تحيط برأسه، بعبارات متقطعة تتهجى كلماتها بصعوبة الطفل الذي يتعلم القراءة لتوه ليقاطعها الوزير بفرح وكأنه يسجل اكتشافا علميا كبيرا ((مادمتي تتهجين كلماتك فأنت إذن شغف ابنتي لا حفيدتي))؛ ولكنها لم تكن تتوقف عند مقاطعته هذه، بل تستمر ((أتعرف أن فراشة بابيون انقطعت عن الطعام))، فيرد الوزير المنحسر في ذاكرة متهاوية الجدران ((تعرفي أن فستانك هذا جميل جدا، وأنك لم تغيريه من وقت طويل)).. وكانت المرة الأولى التي أنتبه فيها أن فستان اعتكافها لم يكن يبلى، بل كان يتجدد زهوا وأناقة كلما تقادمت عليه الأيام. وكعادتها، لم تكن لتنتبه لملاحظة الوزير وتستمر بتهجي ما تبقى من صلاتها الدنيوية ((الفراشة ستموت في لحظة رحيل بابيون)) فيرد الوزير فرحا ((إذن هي مازالت حية))؟ ولكنها بدل الاجابة على تساؤله الوجل تقول ((ببغاؤك يعفط كأي انسان .. تعرف أن سولافة تكتب لذاكرتها أشياء...)) ولكنه، وكما في كل مرة، يقطع عليها سيل توقدها بسؤال أكثر قدما من ذاكرتها ((لم لا تتزوجين))؟ فتطرق صامتة وتنسحب لتحمل فراشة بابيون على طرف سبابتها اليمنى وتمضي إلى داخل القصر. وفي كل مرة كان يبكي الوزير وهو يخر إلى قعر بؤسه، ويلعن جهة لا يسميها وهو يجر خطواته إلى ما خلف لغط أقفاص حيوانته المبهم ليستبدل حفاضته، التي

أغرقها حزنه على ابنته التائهة في ملكوت يجهل قبلته. تلك الليلة، وبينما راحت الطائرات الأمريكية تقصف كل ما لا يمت بصلة لصدام، لاجباره على الخروج من الكويت، طرقت بابي شغف الرابعة لتوجه إلي أبشع الاهانات، وأحط كلمات التحقير.. ثم تقدمت مني لتصفعني على وجهي بجرأة أذهلتني وأفقدتني القدرة على تمييز لون ذلك الفعل. وأمام سكون المفاجأة التي سمرتني في مكاني صرخت بي متحدية ((ألن تثأر لكرامتك أيها العبد التافه؟)) إستبد بي غضب مجنون فلطمتها على وجهها لطمة فجرت الدم من أكثر من مكان فيه.. ومن بين خطوط الدم التي سالت لتغطي وجهها، لاحظت أنها تبتسم ابتسامة فرح سمرتني مفاجأتها في مكاني، فصرخت وهي تتقدم مني حتى كادت تلامسني بجسدها المنتفض ((يا لبؤسك! ألا تساوي كرامتك إلا لطمة واحدة؟)) ثم بصقت في وجهي... ولكن، وكما بدا لي لحظة توقف الزمن تلك وإنقلاب الأشياء وقوانينها على رأسها، كانت تعابير وجهها لا يحكمها غير سعار الشهوة المحضة، والرغبة في لحظة قمع وإذلال لظل راسب في قاع بدائيتها، الذي لن تتمكن من ترويضه أبدا، لا عراقة نسبها وإنتسابها إلى فخامة دم سعاد خانم، ولا حياة القصور العريقة، ولا قرون من التهذيب على يد مربيات الاستعمار الأنيقات، بل ولا حتى ألف عام من الدراسة والتدريب الحضاري في أكثر جامعات الاستعمارين الامريكي والبريطاني عراقة وعلمية. كان غضبي قد أفلت يدي عن سيطرة اصولي كحارس مهمل في أبعد زاوية لحديقة القصر وأكثرها عزلة، فوجهت إلى

وجهها سيل من اللطمات المجنونة وأنا أصرخ بصوت طغى على هدير الطائرات الأمريكية ووقع ما كانت تصبه من قذائف على البيوت ومقرات أجهزة الدولة: عاهرة! ساقطة! ثم سحبتها من شعرها المرسل على كتفيها، لأطرحها أرضا فدمدمت بفرح ((لفه على ذراعك وإسحبني لأجثو على أربع، ألا ترغب في إذلال محضيتك الآبقة يا مولاي))! ورغم أني لم أفهم مرادها من كل هذا العبث، إلا أني، وتحت إلحاح شهوتي غير البريء، سايرتها لأشبع رغبتها ورغبة كانت تغفو في أحد كهوف هارموناتي المنسية.. وبينما خرت هي إلى الأرض لتحبو على أربع، واصلت سحبها من شعرها بإتجاه السرير، وهي تتوسلني للمزيد ((هل أنا كاهنتك المدنسة؟ إلا تستحق هذه الكاهنة الساقطة أن تعاقب يا مولاي؟ أرجوك يا مولاي أسمعها ما تستحق من صفات إهانتها على ترديها وسقوطها...)) إلا أن الأمر سرعان ما أرهقني، لأنه ببساطة لم يكن يناسب ميزاجي المسالم ولا طبعي الحنون، إلا أن صراخها المجنون وتوسلاتها، هي من أجبرتني على ضربها هذه المرة، في لحظة من غياب الوعي وسيطرة الرغبة على كياني، لكي أسكت ذلك الصوت المنفر ((يا لهذه الكاهنة الآبقة والمتمرغة في وحل الخطيئة... أشبعها اذلالا يا مولاي ومرغ أنفها في وحل هزيمة تذلها يا مولاي))! ورغم أن جسدها العاجي كان مكشوفا أمامي، إلا أن ميزاجها الشاذ بدد رغبتي، رغم أن شهوة أخرى كانت قد أحكمت حصارها لصوت آخر في داخلي ولم تترك لي منفذا كافيا لهزيمة كنت أحن إليها بكل

رغبتي المتبقية! كان علي أن أمعن في ضربها لأتقي ضرباتها، إلى أن أبكيتها واستسلمت لجنون، لا أدري في أي صفحة كان يختبئ في تاريخ السلالة البشرية. وعندما تهاويت من قمة صهيلها – الذي طغى في أذني على صوت قصف الطائرات التي كانت تسدد صواريخها بروح انتقامية مفضوحة – وتراخت برضى مقلق، أفزعني منظر الدماء التي كانت تغطي وجهها وأغلب جزر جسدها البركانية، فندمت على مسايرتي لها وأخذت احدى مزق فستانها لأمسح الدم عن وجهها، فانتفضت غاضبة وصرخت ((أيها الغبي، لا تحرمني من لذة هزيمتي بهذا الحنو الساذج))! بصقت بإحتقار ونهضت لتلملم مزق فستانها وخرجت وهي تشتم غبائي وسذاجتي وهي بتمام عريها، فتبعتها ببرنس حمامي، إلا أنها دفعتني في صدري بقوة وهي ترمقني بنظرة إحتقار ممض ((يا لبؤسك وجبنك))! وخطت إلى قلب ظلمة الحرب، دون أن تلتفت لأصوات إنفجارات القصف الجوي، التي كانت تغطي كامل سماء بغداد وأرضها والقادم من أوجاع ذاكرتها. ندمت ولمت نفسي لأني إستجبت لشذوذها.. كان عليّ أن أكون أكثر إحتراما لذاتي ووفاء لطباعي التي ترفض صناعة الألم.. كلا! لم يكن استفزازها وحده هو سبب انسياقي لتلبية رغباتها، إنما رغبتي الغبية في استحصال (حقي) في كيانها كأنثى!، وهذه الرغبة لم يكن ينحصر مداها في أنوثة القصر فقط، ولم تكن أسبابها عدائية أو إنتقامية، إنما كان هدفها إشباع رغبة محمومة تجري في دمي من يوم ولادتي.. ولكن رغبتي هدفها إشباع

الحاجة، من دون ذلك السعي المحموم الذي يحكم إندفاع غيري.. وأيضا ورغم إتقاد رغبتي حد الاستحواذ والغيرة الممضة، إلا أن نظام عقدي النفسية، بلغة علماء النفس، ونظام قيمي السلوكية، بلغة التربويين، كانا يقومان على مبدأ حفظ كرامتي وانتظار سقوط طريدتي إلى ما قبل آخر نفس في رغبتها، في أغلب الأحيان.. وربما هذا ما أجبرني على قبول ظهور مقتحمين غيري لأنوثة القصر، كفهمي مراد الذي خطف سؤدد، والاستاذ الجامعي الذي إغتال مساحة صبر ليز، والسائق ذو هالة الصبر الذي غيّب فتاة البحر ورائحة مطرها، وإن على الرغم من جموح رغباتي، وتحت خيمة هزيمة، كالخيمة التي وقع تحت سقفها ضباط صدام وثيقة إستسلامه لوقف تقدم القوات الأمريكية إلى جحر هزيمته، الذي يمتاز عليه جحري المهمل في كونه يربض في زاوية معلومة وعلى أرض ثابتة!، وهذا ما هدى عبدالكريم رستم إليه، عقب هزيمة صدام تلك، ولكن بصفته جنرالا سابقا لا وزيرا للعدلية، ليصب على رأسي تحت سقفه، تقييماته الستراتيجية لمفاعيل ونتائج تلك الهزيمة، والتي لم تكن، بحسب رأيه، إلا بسبب غباء صدام الذي لم يتعلم بعد الجلوس على كرسي الحلاق، إن كان قد تعلم، خلال فترة حكمه، دخول الحمام قبلها . صمت وهو مطرق حتى ظننت انه لن يتكلم مرة أخرى؛ إلا أنه رفع رأسه فجأة ليقول بلوعة ((أتعرف أن هذه الحرب خيانة وطنية بامتياز! وانها كانت مؤامرة قذرة لتصفية البلد، شعبا وتاريخا ومقدرات وتبديده ككيان؛ وأن هذه المؤامرة بدأت بإيصال

الأمريكان – الذين أوصلوا قبله عبدالكريم قاسم إلى السلطة للاستحواذ على العراق من الهيمنة البريطانية بعد ضعف بريطانيا عقب الحرب الكونية الثانية – لصدام إلى السلطة؟ وأن هدفها المبطن بهذا الحصار الاقتصادي القاتل إيصال المواطن إلى حالة اليأس التام وكراهية البلاد؟ وتعرف انهم نجحوا في هذا تماما للأسف الشديد))؟ كان حزينا حتى آخر حدود إحتماله وبحاجة لعودة إلى جهة بيضاء.. وكدت أكلمه في هذا لولا انه نهض وخرج بثقل حزنه ذاك وكأنه يسير إلى حتف يراه ولا يبعد عنه إلا مسافة رؤيته. في الصباح التالي وجدته الخادمة التي تأتيه بفطوره جالسا على دكة ذلك الحتف وليس على وجهه غير ثقل حزنه. الشخص الوحيد الذي فجع بموت الوزير هي إبنته شغف.. زارت جثته تحت شجرة السرو التي كانت تظلل عزلته، لتقف أمام حزنه بكامل صمتها الملائكي الأبيض لتقول ((مات من الحزن لا من قدر موت كما يموت غيره)). وفي المقبرة علقت على تلقينات وأدعية رجل الدين المخضرم في شؤون موت العائلة ((هذا العجوز مثل صدام، لا يكل من ممارسة لعبة الحياة..، ومثله أيضا في إمتناعه عن الإقتناع بأن زمن المعجزات قد ولى)). ومثلما فعلت مع جثث أولاد غازي، أصرت أن يدفن والدها بتابوته الأبنوسي حفاضا على هيبة موته وأناقته، رغم إعتراضات رجل الدين الذي إتهمها بالحاد الشيوعيين وتماديهم، بسبب ركوب الشيطان على قلوبهم. بعد عودتنا من المقبرة طلبت مني شغف مساعدتها في إطلاق سراح حيوانات وطيور والدها؛ وقالت وهي تفتح

قفص طيور الكناري، التي مسخت ألوانها إلى ألوان غربان المزابل ((أرجو انها ستتذكر عاداتها وآليات غرائزها الأولى))، ولكن تلك الطيور لم تتذكر أكثر من تشبثها بأراجيح القفص ومطاردة بعضها البعض كالجراء الصغيرة وهي تنعق كالغربان. لحظتئذ بدت لي شغف كتلك الطيور التي نسيت عاداتها وآليات غرائزها... وإنها كانت بحاجة إلى معجزة بيضاء، تشبه معجزات القديسين، لأنها فعلا كانت بلا صيدلية ولا مكتبة تخفيها عن أعين زوارها، كما إقترح رولان بارت. هل كانت تخفي حزنها خلف صمتها الحجري هذا؟ وهذا ما سألت سعاد خانم بشأنه، في إحدى ليالي قنوط ما بعد حرب الخليج الثانية فأجابت بكلمة قاطعة ((ومن أين لامرأة أن تعري نفسها أمام مرآتها؟ ليس من أنثى قادرة على أن ترى وجهها كالحا ولو كان بدرجة وجه شغف))! كنا قد بذلنا جميع حيلنا لإطلاق سراح حيوانات وطيور الوزير الراحل دون أن نحصل على أكثر من عفطات الببغاء الساخرة من سذاجتنا، فاقترحت شغف في النهاية أن نترك أبواب الأقفاص مفتوحة لتحدد الطيور والحيونات خياراتها بنفسها. أما سعاد خانم فقد إكتفت بثوب حداد أنيق من الجورجيت والعودة إلى أوراق ذاكرتها التي تؤرخ لقصة لقائها بذلك القروي، الذي لم يكن يملك أكثر من وسامته ووجاهة قوامه المفتول الساحر، والذي مثل أحد وجوهها الكالحة بسبب عدم قدرته على تجاوز قرويته، رغم أنها رفعته إلى مستوى وزير.. ولكن، والكلام لأحدى امسيات فضفضتها في حديقة القصر الخلفية ((هو كان

دواء لابد من تجرع مرارته.. فلولاه لمت في الخمسين بسرطان الثدي، كمعظم عوانس العوائل الأصيلة، أو بسرطان حرمان الرحم، كالملكة عالية والدة جلالة الملك فيصل الثاني. ولكن، ومع كل هذا، فإن زواجي منه كان خطئا مشابها لخطأ الاستحمام في قيظ الصيف بماء ساخن، فربما ينظف الجسد ولكنه لا ينعش دمائه)).. وكان هذا أول وجوهها الكالحة. أما ثانيها فتمثل في إهمالها لأمر ابنتها شغف ((التي تحولت إلى راهبة حزينة من دون غطاء كنسي))، وعدم بذلها ما يكفي من الجهد لإعادتها للعيش داخل مواصفات الحظيرة الانسانية. أما الوجه الثالث فتمثل في سماحها لسؤدد بالزواج من الجمهوري المأفون، فهمي مراد، الذي لا يفرق بين رأسه وعجيزته! ولكن، والكلام لها ((هل كان لوجاهة أمير ربيعة حماية الوصي عبدالاله من بطش بندقية ستار سبع العبوسي التي زرعها البريطانيون؟ دائما ثمة ما يخذل توقعات خبراء الأنواء الجوية ويستبدل وجع الخاطر بصحو الأقدار النائمة... وهذا الخذلان عينه هو من كان وراء إتباعي لشهواتي والتفريط بأسرار مجد وثروة العائلة وقادني، كشاة حولاء، لأكون آخر أوراقها)). كنا نجلس لحظتها تحت شجرتي الحارسة، وهواء المساء البارد يبعث في أجسادنا تلك الارتعاشة اللذيذة عندما سألتها مشاكسا ((هل أنت نادمة))؟ فردت بحزمها السياسي الخانق ((الآن؟ بالتأكيد! فما معنى أن أجلس في خلية نحل بلا عاملات لأرعى بيوضا لا تفقس إلا عن ملكات عاقرات وذكورا عقيمة))؟ ونهضت لتدخل خلية نحلها المهجورة،

ولتتركني في مواجهة خزانات صيدليتي المثقلة ورفوف مكتبتي الفارغة. في ظهيرة اليوم التالي أعلن الولد القديم أن الأحد القادم سيكون موعد عماده في كنيسة نذور اليائسات من أجل أن يدرس اللاهوت الكاثوليكي. كانت سولافة، حفيدة حافظ (ابن سعاد الثالث)؛ والتي بدأت باعلان أول دلالات شبهها بملكات خلية النحل العاقرات، أول المعلقين على ذلك الاعلان ((حقا؟ ولكن ما الذي يجبرك على هذا؟ أنا لا يجبرني شيء سوى حرارتي على التخلص من ملابسي التي تجبرني جدتي على لبسها دون سبب معقول))! أما غازي فغرق في واحدة من ضحكاته الساخرة التي نسيها القصر ليقول ((أوه، هذا ما كان ينقص هذا القصر: قس يلقي عظاته للجدران))! وأمام تلك السخرية الجارحة، لم يملك الولد القديم غير أن يلوذ بعمته شغف الصامتة كملاك تائه، فقالت له عبر غلالة شرودها الأبيض ((أوه نعم، يحدث هذا يا صغيري)).. ثم عادت سولافة، التي بدأت تلملم نصيبها الشخصي من أقدار العائلة لتقول للولد القديم ((آمل أن تمكنك دراسة اللاهوت من إقناع جدتي بأن هذه الملابس تخنقني بحرارتها))! لم تكن حينها قد أتمت الثانية عشر من عمرها، إلا أنها كانت قد سجلت مجموعة من المواقف التي جعلت خادمات القصر يتوجسن منها ظنا منهن أن شيطانا يتلبسها.. وحقيقة الأمر هي أنها كانت تبدي إحتجاجاتها، بطريقة فهمها الجسدي، على مضايقة أقدار العائلة لحرارتها الداخلية التي كانت تجبرها على التخفف من ملابسها والترويح لنفسها بمروحة للتخلص من

حرارتها الزائدة. كانت طفرة قدرية – كما وصفتها سعاد خانم – في دم العائلة، لأن سعاد خانم لم تجد أي شبه يجمعها بأي من أفراد العائلة، فقررت، ولأسباب ميتافيزيقة صرف، انها لا تشبه إلا نفسها. وهذا ما وافقتها عليه شغف الثالثة وهي تحاول فك شفرتها القدرية عبر خطوط كفيها، التي وجدتها مسطحة وبلا تضاريس، ولا تقود متتبعها إلا إلى فراغ شاسع بلا لون. كما أن عيينيها اللازورديتين، لم تفصحا عن أي إشارة جنسية، ما دفع نساء القصر للشك في إختلاط جنسها، رغم أن مثلث فخذيها قد أكد العكس، بتلطيخه لشراشف سريرها وملابسها الخارجية (لأنها لم تكن تطيق إرتداء الملابس الداخلية لأنها تخنقها وتزيد من حرارتها الجوانية وتمنع عنها تيارات الهواء الباردة) بلون الشوكولاتة، منذ أول شهر لدخولها الثانية عشرة من عمرها. ورغم أنها لم تذهب للمدرسة (ولأسباب فضائحية صرف تتعلق بتخففها من ملابسها ، في غياب رقابة سعاد خانم، دون التفاتها لغربة المكان أو عدد العيون المتلصصة) إلا أنها كانت تعرف القراءة والكتابة بالفطرة. كما أن فقدانها الاحساس بالأشياء من حولها وفهمها الخاص لأولويات الحياة وحرص سعاد خانم على عزلها في غرفة نومها، إتقاء لفضائحية تخففها من ملابسها، مكنتها من التفرغ لفك رموز وطلاسم مذكرات جدها حافظ التي كتبها في موته الأول. عندما دخلت سن السادسة عشر من عمرها، تقدم لخطبتها حفيد أحد وزراء العدلية السابقين فوافقت على خطبته، بناء على نصيحة والدة جدها سعاد

خانم، رغم أن فكرتها عن الزواج لم تكن تتجاوز حدود التسكع في شوارع المحلات الراقية وأكل الآيس كريم في أماسي الصيف اللاهبة. ولكن باقتراب موعد الزفاف، أضطرت سعاد خانم أن تشرح لها حقيقة مضمون وأهداف الزواج وما سيرافقه من ملابسات ستحيلها إلى فرس ركوب، فإعتذرت لخطيبها بقولها ((هذا أكثر مما أحتمل يا بني؛ لأني لا أحتمل ثقل الفستان الذي تحشرني فيه جدتي ويحرمني من الترويح لحرارتي الداخلية بمروحتي، فكيف سأحتمل ثقل وحرارة جسدك على ظهري المسكين))؟ ولما تدخلت جدتها وخففت لها من آثار تلك المصائب بأنها ستتجاوزها تحت سحر اللذة التي ستحصل عليها مقابل إحتمال ثقل ذلك الولد، سألتها عن عدد المرات التي ستضطر لإحتماله فيها، فردت الجدة بتحايل ذكي ((هذا يتوقف على رغبتك أنت في تلك اللذة))، فردت عليها بإخلاص ملائكي ((وأنا متأكدة من اني لن أرغب في لذة تحولني إلى فرس تستمتع بشم مؤخرتها))! وبهذا ختمت نقاش هذا الأمر إلى يوم موتها، الذي ختمت به سياج وحدة سعاد خانم، تمهيدا لتلقيها الرصاصة التي ختمت حياتها. كانت تقضي فصول الخريف والشتاء والربيع في غرفتها منقطعة لفك شفرات وطلاسم مذكرات موت جدها وهي لا تلبس غير فستان معتم اللون، أمرت سعاد خانم بخياطته واسعا وفضفاضا لتسريب حرارة جسدها التي كانت تلهبها حرارة طلاسم تلك المذكرات. أما فصل الصيف فكانت تقضيه ممددة في وسط سريرها، وهي تفرد ذراعيها

وساقيها لآطفاء حرارتها ببرودة مكيف الهواء. ورغم شكوى الخادمة التي كانت تقوم على خدمتها من فداحة عريها، إلا أن سعاد خانم غضت النظر عن ذلك، مادامت صالة الجلوس محمية من ذلك العري. الشيء الوحيد الذي تدخلت فيه سعاد خانم هو منعها من النزول إلى غرقة الطعام في أيام حيضها واجبارها على تناول وجبات طعامها في غرفتها، رغم ما كان يسببه، عدم ارتدائها للسراويل واستخدام الحفاضات، من إشمئزاز وغثيان، بما كان يخلفه من تدرجات لونية على شراشف السرير، تمتد من اللون الزهري ألى لون القهوة البرازيلية، وتبعا لتأثير الحرارة فيها ولساعات إنقطاع التيار الكهربائي عن مكيف الهواء، ترشيدا لأستهلاك الطاقة الكهربائية الذي قررته حكمة القائد الضرورة. وفي يوم سألها غازي عن كيفية قضائها لفصل الصيف مستلقية في سريرها دون حراك أو خروج، ردت عليه وهي تضحك ((أروي لنفسي النكت))! وفي يوم عماد الولد القديم في كنيسة نذور اليائسات، أصرت على حضور ذلك الطقس بنزق طفولي، أجبر سعاد خانم على أن ترسلها تحت مراقبة شغف الثالثة والرابعة، تلافيا لما قد تسببه للعائلة من فضيحة، فيما لو سخن جو قاعة الكنيسة وأجبرها على التخفف من ملابسها للترويح لنفسها، رغم أنها إحتاطت للأمر بثلاث سواتر دفاعية، بأن ألبستها حفاضة وسروالين صوفيين تحت بنطال الجينز لنصفها الأسفل، وبلوزتين محكمتي التزنير وكنزة جلدية لنصفها الأعلى، مع سيل من التهديد والوعيد بصنوف من العقاب

فيما لو فكرت بإرتكاب حماقة تجلب العار للعائلة. إلا أنها، وخلافا لكل المخاوف والتوقعات، حافظت على انضباطها طوال فترة الصلوات التي سبقت طقوس التعميد وما بعدها أيضا، وهي تمسك بيدها شمعة طويلة، حافظت على بعث نورها حتى نهايتها. وللتخلص من عقب الشمعة المحترقة، كان عليها الذهاب إلى موقد الشموع، والذي يمر بجانب المذبح، فتوقفت لتسأل الأب الذي أجرى طقس العماد، وهي في طريقها ألى الموقد ((ما غاية هذا الطقس أيها الرجل الطيب))؟ فأجابها الأب بوقاره الكنسي العريق ((انه للتطهير يا إبنتي.. هل ترغبين بمثله لتكوني متهيئة للمثول بين يدي الرب))؟ فردت بثقة فاقت في سخونتها حرارة دثار وقاره الكنسي ((كلا، لأن جدتي قد تغضب مني))، فقال الأب بصبره الموحش ((وألا يهمك غضب الرب منك))؟ فقالت بنفس الدرجة من الصبر ((ولم يغضب مني وأنا لم أنزع ملابسي رغم حرارة هذه القاعة الخانقة))؟ عند هذا الحد نهضت شغف الرابعة لتعتذر من الأب الصبور ولتسحبها من يدها وهي تأمرها أن تلزم الصمت فقالت لها ((فقط كنت أحاور الرجل، ويبدو انه أكثر تفهما من جدتي لموضوع تخلصي من حرارة جسدي الزائدة))! في مساء ذلك اليوم، نزلت سولافة بثوبها المعتم، لتناول عشائها.. وأثناء مرورها بالولد القديم للجلوس إلى جانب جدتها، توقفت أمامه لتتفحص خطوط عماده ومسارب حزنه الكهنوتي فقالت ((أنت حزين كأنك لا تثق بإلاهك))! أمرتها سعاد خانم بالجلوس في مقعدها وأن تلزم الصمت، فجلست

إلى المائدة وحسرت ثوب حدادها المعتم عن ساقيها ليمر الهواء البارد إلى حرارتها الداخلية من تحت الطاولة. ولأن الولد القديم حافظ على وقار صمته الحجري، فإنها نظرت في عينيه ثم سألته ((هل أنت سعيد بقلبك الامور على رأسها؟ لا تثق بإلاهك من جهة وتريد أن تصير نائبا له من جهة أخرى))؟ بعد منتصف تلك الليلة، داهمت القصر قوة مسلحة بأربعين بندقية كلاشنكوف، روسية الصنع، لتعتقل الولد القديم بتهمة الإرتباط ببلد استعماري وتحريض الشعب على الخروج من الملة. ورغم أن تلك القوة قد تمكنت من إعتقال الولد القديم من أول لحظة إقتحامها للقصر، لأنها وجدته جاثيا على ركبتيه يصلي في صالة جلوس القصر، إلا أنها أصرت على تفتيش جميع غرف القصر، بما فيها غرفة سولافة. إعترضت طريقهم سعاد خانم راجية أن يمنحوها بعض الوقت لتستر عري حفيدتها التي تعاني من مرض يجبرها على البقاء عارية. إلا أن قائد المجموعة ، وإنسجاما مع تربيته الايديولوجية، فسر الأمر على انه خدعة تستر، فأمر مجموعته بإقتحام الغرفة لمنع من فيها من إخفاء وثائق إرتباط الولد القديم بدولة الاستعمار التي حرضته على بث روح التمرد على دين الشعب. وبما أن الباب لم يكن مقفولا من الداخل، فقد تدحرج الرجل الذي تصدى لعملية كسر قفله بقوة كتفه فسقط على الأرض أسفل سريرها الذي كانت تتوسطه بهالة عريها وهي تكتب قصاصات ورقية بحروف غير مترابطة فقالت له، ودون أن ترفع رأسها عن الورقة التي كانت تكتب فيها ((أغلق الباب

أرجوك، لأن جدتي ستغضب إن وشت بي احدى الخادمات وأنا بحرارتي هذه))! وتحت صدمة عريها اللاهب، سألها قائد المجموعة بصوت مبحوح عما تقرأ، فأجابته بهدوء غيابها عن عالم المحسوسات ((أوه! أنت هنا من أجل أن تعرف ما أقرأ؟ حسنا أغلق الباب قبل أن تغضب جدتي وسأخبرك))! وقف القائد مشدوها أمام وحشية بضاضتها لدقائق طويلة، قبل أن يتذكر عيون مساعديه التي كانت تراقب لحظة سقوطه المبدئي تلك، فأمر سولافة أن تلبس ملابسها لأنها مقبوض عليها، فسألته سعاد خانم ((وبأي تهمة ستقبض عليها، بتهمة عريها في غرفة نومها))؟ ولم ينتبه القائد لحالة ذهوله إلا بعد أن تقدم منه أحد مساعديه وهمس في أذنه بما أجبره على الإنسحاب، وهو يجرجر خيبة ضياعه على ضفاف خطيئة عري سلافة الغائبة في قصاصات ذاكرتها المستقبلية. وبعد مغادرة المجموعة، أمرت سعاد خانم حفيدتها بأن لا تتعرى ثانية، فردت سولافة من خلف إحدى قصاصاتها ((لم أكن أنا المسؤولة عن هذا الخطأ يا جدتي؛ غياب القانون عن حياة البلد كان هو السبب؛ لأن غيرنا يتخلصون من حرارتهم الفائضة على شواطئ البحار وفي المسابح العامة، وقد رأيت هذا في التلفزيون.. فهل كل أولئك المتبردين كانوا على خطأ وألقي القبض عليهم))! تلك الليلة، تبردت أنا الآخر من حرارة ما تحت جلدي بهواء الشمال البارد في ظل شجرتي الحارسة، بعد أن هجرني النوم وتركني معلقا أسفل إحدى الرغبات، دون أن أتمكن من تسمية تلك الرغبة أو تحديد موقعها على

خارطة أحلامي. كنت أعيش تيهي الأكبر، الذي شابه تيه بني اسرائيل... إلا أني لم أكن بحاجة لأكثر من بوصلة تضبط لي إيقاع غرائزي، الذي شابه جموحه جموح إيقاع غريزة الفراشات من حولي.

*** في تلك الأيام، التي تشابه كل ما فيها، عاد رستم، حفيد سعاد خانم من إبنها حافظ وإحدى خادماتها الأمينات، بعد أسر سبع سنوات في متاهة حرب الثمان سنوات. عاد بصمت عرضه كامل ليل الحرب، بلا ذاكرة، وبلا أحلام. عاد بعد منتصف ليلة جمعة صقيعية من ليالي كانون، ولم يكن في إستقباله غير صمت صالة جلوس القصر وسولافة التي إستشعرت قدومه بحسها المرابط على أسوار ذاكرة جدها الأميبية. وجدها تفرد ساقيها على طاولة واطئة وتروح لنافذتهما المعطلة بمروحة عرائس صينية. سألته عن اسمه وإن كانت الحرب قد توقفت فلم يلتفت إليها وصعد إلى غرفته ليلقي بجسده على سريره القديم وليغمض عينيه عن ذاكرة المكان. لحقت به إلى غرفته وأعادت عليه سؤالها بحياديتها، التي تتساوى في فصولها، مسافات كل الأشياء.. أعادت سؤالها إلى أن تعبت، فختمت ذلك التعب بسؤال جديد ((هل أنت عائد من الموت لأسألك عن جدي))؟ إلا أنها كانت تصارع شبحا بلا لون، كما أخبرت جدتها في صباح اليوم التالي ((شبح صامت إقتحم القصر في أول الفجر وهو ينام الآن في غرفة الغبار)). سألتها سعاد خانم بقليل إهتمام ((ما شكله))؟ فقالت كأنها تنبش في عليّة قديمة ((كأنه عائد من موت: صامت كإله قديم)). ولأنها رددت ذلك الكلام

على مسامع جميع سكان القصر، طوال ذلك اليوم، صعدت سعاد خانم إلى الطابق العلوي لتتأكد من صحة هلوسات حفيدتها، فوجدت حفيدها غارقا في غبار الحرب كذكرى أكلها صدأ الإهمال. نفضت عنه غبار سريره المهمل وأجبرته على دخول الحمام من أجل أن ينفض عن جسده وحشة مصيره..، إلا أنه خرج منه كما دخله: شبح عطلت الحرب أحلامه؛ فعاد إلى غرفته ليستلقي على غبار ذاكرته بصمت... وإلى أن وصله خطاب إستدعائه لخدمة إحتياط أخرى في حرب جديدة. سولافة التي واظبت على إقتحام صمت الحرب فيه بزيارات، شملت معظم ليالي عزلته على ظهر سريره، كانت في كل ليلة تعيد عليه سؤالها عينه ((هل أنت عائد من الموت لأسألك عن جدي))؟ وفي كل ليلة كان يواجهها بصمت الحرب - النابت في عينيه – ذاته. وفي يوم الجمعة التي سبقت ذهابه للحرب الجديدة، حدثته عن هموم حرارتها الداخلية ومعاناتها مع جدتها، التي تجبرها على إرتداء الملابس التي تمنع عنها تيارات الهواء الباردة بلا سبب مقنع. كانت تتكئ على ظهر باب غرفته وهي تروح لجسدها بمروحة العرائس الصينية دون توقف.. ولما هد التعب يدها الممسكة بالمروحة أخبرته أن رحلته إلى الحرب هذه المرة ستكون الأخيرة ومضت.. ومن يومها دخلت في نفق كآبة، (بسبب رحيل رستم دون أن يجيب على سؤالها) ضاعف من وتيرة شعورها بحرارتها الداخلية، وإلى الحد الذي أجبر سعاد خانم أن تزود غرفتها ببانيو صغير، قضت فيه معظم أيام تلك الكآبة، وإلى اليوم الذي

واتتها فيه فكرة وضع نهاية لحروب البشرية، فقفزت من البانيو، كقفزة أرخميدس، وخرجت من غرفتها، بعريها المبلول، قاصدة غرفة شغف الثالثة لتعرض عليها فكرتها تلك، والتي تتلخص في إستخدام رعيل أشباح شغف لبث إيحاءات روحية، (كإيحاءات الأرواح التي يستخدمها السحرة لإيصال رسائل سحرهم) تكرّه الناس بالحرب ، وبالتالي تجبرهم على نسيانها كأحد حلول مشاكلهم المستعصية. لفتها شغف باحدى مناشفها وأجلستها على ركبتيها لتعلمها فضائل تشذيب شعر عانتها، الذي كانت تتركه نابتا كحشائش حديقة القصر الخلفية ، التي أهمل تشذيبها، بعد موت جدهما الوزير. إلا أن حرارتها سرعان ما ضايقتها فنهضت لتتخفف من حرارة المنشفة ولتعاود سؤال شغف عن فكرتها في مكافحة الحروب فردت شغف بحنو أمومي ((ولكن الأشباح لا تفهم لغة حروب الساسة ولا أهدافها))، فسألت سولافة بإنكسار صبية ضائعة ((وكيف أستعيد رجل الحرب ذاك إذن))؟ فسألتها شغف بنفس الحنو ((وما حاجتك إليه))؟ فردت وهي ترفع كتفيها ((فقط أردت أن أسأله عن جدي)). كانت تقف في وسط الغرفة وقطرات الماء النازلة من شعرها، ترصع جسدها كمصابيح صغيرة لاصفة، فسألتها شغف ((أليس من طريقة أخرى تظهرين بها أمام الآخرين))؟ فقالت ((هذه الطريقة تخلصني من حرارتي)) فسألت شغف بحنانها الفطري ((وماذا عن مشاعر الذين يرونك على غير ما يألفون))؟ فردت بصبر ((ولكني لم أجبرهم على إرتداء الملابس، فلم

يفرضون علي خياراتهم))؟ ولم يعد أمام شغف ما تدافع به عن منطق الآخرين، فقالت باستسلام ((نعم معك حق! والآن عودي لغرفتك، لأن والدي في طريقه إلى هنا وهو من الآخرين الذين لم تجبريهم على إرتداء الملابس)). منذ إختطاف جهاز المخابرات للصغيرة بابيون، هجر غازي مألوفاته وبيت زوجيته، وصار يقضي أغلب أوقاته في القصر، يحاور ابنته وشغف الأولى، في مختلف الحلول التي تمكنه من الوصول إلى بابيون الرقيقة، سواء كانت سياسية، وفق رؤية شغف الأولى، أو غيبية وفق رؤية إبنته شغف الشبحية.. وفي كل مرة كان ينتهي للجدار عينه، لأن رؤية صدام كانت مبتدى ومنتهى كل ما يدور في سماء العراق، من نبحة الكلاب السائبة إلى قرار الحرب.، ولهذا فإنه عندما فكر في رفع دعوى قضائية على جهاز المخابرات يتهمه فيها بإختطاف بابيون الرقيقة، نصحه الجميع، من إبنته شغف إلى آخر وزير عدلية في العهد الملكي، بأن يجلد نفسه مائة جلدة لمجرد انه فكر بهذا الاتجاه؛ لأن، وهذا ما أثبتته الاف الأحداث المماثلة، مجرد إعلان شخص انه يعرف مكان مقر جهاز المخابرات على خارطة بغداد الجغرافية، كان يعرضه لضيافة دهاليز ذلك المقر لمدة سنة كاملة، فما بالك بمن يتهمه ويشكك في نزاهته! غازي الذي أمضى عقد التسعينات كاملا في البحث عن منفذ يوصله إلى بناية البلاط الملكي السابق (مقر جهاز المخابرات الجمهوري)، إقترب من أحد حرسه، في صبيحة يوم جمعة كانونية من عام ١٩٩٨ ليسأله عن الكيفية التي

تمكنه من مقابلة أحد مسؤولي الجهاز.. أجلسه الحارس في كابينة الحراسة، تحت عين أربعة بنادق كلاشنكوف حديثة الصنع، ريثما يدخل إلى رؤسائه ويخبرهم برغبته. بعد خمس دقائق عاد الحارس بإثنين من مساعديه ليقتادا غازي إلى حديقة البلاط الملكي، والتي لم يتنسم في هوائها أي من روائح ذلك القصر قبل أن يغيب عن الوعي. في مساء تلك الجمعة زارتني شغف الأولى في جحري المنسي، وكانت المرة الأولى التي ألتقيها فيها بشكل شخصي وبوجهها الشخصي. لم تكن حزينة ولا متورطة في غير نفسها.. لم يكن ثمة ما يشغلها في ردهة المقادير إلا ذلك البوار العنيد الذي يتسرب في تفاصيل وجهتها من جهة لا تفهم لغتها... أو ترفض فهم لغتها ربما. لم تحيّني.. جلست على طرف سريري، كأنها تجلس إلى إحدى صديقاتها القديمات لتسألني عن كل الأشياء التي تبرق عبر ثقوب ذاكرتها.. هل هذا ما كان يشغلها فعلا: نفض الغبار عن بعض رفوف ذاكرتها؟ لم تكن لها حكاية .. إنها مهرجان صمت ينتظر عبور جسور لم تبنى بعد... وليس عندها شيء للعرض كباقي النساء... وهذا كل شيء. قادتني على معرض للجثث: سياسية، اجتماعية... وبإنوثة مغيبة. امرأة (مقموعة) الأنوثة، فبأي سلطة تمارس حضورها على الرجل، في داخلها لا في أثرها أعني؟ أبسلطة إنسانية ما قبل التجنيس؟ الذي أنا متأكد منه هو انها كانت تجلس، على مسافة ذراع واحد مني، أنا الذكر، وتدلي ساقيها في حوض إشتهائي، الذي لطالما قمعته بشذوذها! لم تبد

مأزومة أو منقسمة على ذاتها؛ كانت تقف على أرض ثابتة اسمها شغف، شخصا أنثويا إستوفى شروطه الذاتية وكينونته، وللآخرين قبوله أو رفضه، رغم أن هذا لن يزيد أو ينقص من وقع حضوره أو وجع أثر أنوثته. ولكن عن أي ساحة هي غائبة؟ عن أنوثتها أم عن دورها الأنثوي؟ كانت كأي وردة، تطفح أنوثة... ولكن لنفسها! وهذا سر غضبي وحنقي على شذوذها! غياب غازي هو الذي جاء بها إليّ، فحدثتني عنه بمنطقها السياسي البارد، الذي كانت عشرات العطفات في عينيها وثنيات جسدها تشغلني عنه وتحيله إلى مجرد لغو يصدع الرأس..، وقد لاحظت هي تماما أن ما كان يشغلني من تلك الجلسة هو – كسلفي (يا للهول! أقول سلفي غازي! أحسب نفسي على هذه العائلة... بالتبعية طبعا) غازي عندما كانت المس جين تلقي عليه تنظيراتها في فلسفة التاريخ في رياضاتهما المسائية - النظر إلى زغب ذراعها المكشوف أمامي بكل شبق، فسألتني بإستياء مكبوت ((ألا تستطيع أن تنسى شهواتك أبدا))؟ فرددت بسؤالها معكوسا ((هل تستطيعين أنت))؟ لم تجب طبعا على سؤالي، لأنه كان أكثر مما توقعت من مجرد حارس صغير يعيش على الهامش المنسي من حياة أسياده، الذين يتنكر لأفضالهم بالنظر لضيفتهم الأثيرة. إجابتها غير المعلنة تلك وضعتني في حالة توتر لم أستطع كبحها؛ وكان الطعام وحده القادر على دفع الكآبة التي رافقته، فقصدت مطبخ القصر، من بابه الخلفي طبعا.. كانت الخادمة ذات الاصول اليونانية تغفو على أحد مقاعد الطاولة التي تتوسط

المطبخ كالمخدرة. أعددت لنفسي صحنا مما أعد لعشاء تلك الليلة وجلست إلى طرف الطاولة البعيد عن الخادمة لألتهم ما في الصحن بسرعة وحركات عصبية، كانت ستدلل لأي محلل نفسي عما يعتمل في داخلي دون جهد ودون الحاجة لطرح أي سؤال. ولأقمع بقايا حالة الكآبة تلك إلتهمت أربع قطع كبيرة مما أعد لتحلية تلك الليلة دون تمييز صنفها. كل ما كان يحيط بي، من السقف ألى سجادة الأرضية، كان يدلل على تداع عميق، قطع مراحله بصمت وحقد، كفعل طلسم سحري يثقل أثره بالتقادم. تذكرت أن سعاد خانم قد جددت آثاث القصر قبل عام واحد فقط؛ إلا أن كل ما في المطبخ بدا لي بحالة صنمية راكدة، يستعجل حالة تربص محدقة. وبينما كنت منهمكا بتقليب صور ذلك التداعي، دخلت شغف الثالثة كطيف شفيف لتعد لنفسها صحنا هي الأخرى وجلست قبالتي لتأكل بصمت عمتها شغف المحايد. ظننت أنها لم تلحظ وجودي، فقالت قبل أن أنبهها لذلك ((أنت هنا أعرف، ولكن ليس عندي ما أقوله لك)). بدت لي بصمتها ذاك أنها تتداعى هي الأخرى كباقي أشياء هذا القصر: تداعي حر إلى مستقره الأخير! أما ماذا يكون هذا المستقر ولم يكون، فهما سؤلان فات أوانهما. كانت في أواخر ثلاثينياتها، تشع أنوثة ونضوجا؛ إلا أنها بلا حنين، بلا أحلام، وبلا ذاكرة، هي الأخرى. كانت تعيش عزلة أصيلة: شفيفة، يانعة، ومحصنة ضد لوثة اللغة.. عيناها العسليتان، فيهما أسئلة أعياها الانتظار... ماذا كانت تنتظر؟ حدقت في عينيها، المؤطرتان بإبتسامة قدرية لا تفصح عن

هدف محدد، لم أجد فيهما صوت يتجاوز عتبة الصحن الذي كانت تأكل فيه في تلك اللحظة.. أنثى أخرى لا تنتمي إلى أنوثتها ولا جسدها... تنتمي إلى قدر مازال نائما ربما.. أين ستذهب به..، أو أين سيوصلها؟ أ إلى مدفن أولاد العائلة غير الشرعيين فقط؟ ألن تساوي راقصات ومطربات (كتاب فنانات بغداد) حتى وتذكر في صفحة يقرأها العاطلين والمتقاعدين من رواد المقاهي المهملين؟ أي سقف يحميها من وجع غربتها؟ امرأة في الثلاثين لم تخرج من القصر إلا إلى مقبرة العائلة لدفن جدي والدها أو إلى مقبرة الأولاد غير الشرعيين لدفن أحد اخوتها، ولم تلتقي رجلا ، إلا لمحا.. كانت أنثى بلا أحلام وبلا ذاكرة، وهذه هي نقطة اختلافها عن عمتها شغف، التي تعيش، من يوم انتحار العامل الانكليزي، متفرغة لحرب ذاكرتها وأحلامها. هذا ما ناقشته مع المرأة الوحيدة التي لا تحارب ذاكرتها في القصر، واستمرت تحارب من أجل أن لا يتحول الصمت إلى لون لوحتها الطاغي، سعاد خانم ، بعد أن احتلت مكان حفيدتها على مائدة المطبخ. بدت حزينة ومتعبة تماما بسبب فقدها إبنيها الأقرب إلى نفسها، غازي وبابيون.. قالت ((لو كان الموت هو من خطفهم لكان أمرا مقبولا ويمكن التعايش معه، كما تعايشت مع موت حافظ وسؤدد وأمي وأبي وأحفادي وحفيداتي وزوجي..، ولكن أن يغيبوا بسبب رعب السوقة على أمجادهم الكارتونية، والتي ستتساقط كما تتساقط أمجاد يعاسيب النحل، فهذا ما لن أتمكن من قبوله حتى لو دعم أحقيته قدر يطرق الآن باب مطبخي هذا! ها أنا

أرى هذه السيدة العتيدة حزينة وعاجزة أخيرا.. إلا أنها حتى في حزنها كانت أنيقة: بلا دموع، بلا توجعات خرقاء... وحسراتها تنهدات رقيقة، لا لأنها بلا ألم، بل لأن ألمها من نوع ذلك التزوير الذي طرحه الفنان (سيزان) في لوحة (لاعبي الورق): تزوير يفرضه كبير بقوته ويجب السكوت عليه، لأنه لايمكن الاحتجاج عليه. بقي صحن طعامها كما هو، لأنها لم تزد على تقليب محتوياته بشوكتها. حدثتني عن إفتقادها وشوقها لغازي وبابيون الرقيقة، بمرارة أنيقة وحنين لا يسوده تفجع العوانس والأرامل. سألتها إن كان بمقدورها تجنيبهما المصير الذي انتهيا إليه فقالت ((أنا لن أنكر مسؤوليتي عن رسم مصير هذه العائلة، وهي بقدر مسؤولية عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف عن دفع البلد بإتجاه التحلل الذي سمح لقادة إنقلاب ١٤ تموز/ يوليو أن يقدموا لجمال عبدالناصر أحد أصابع الباشا نوري سعيد تعبيرا عن ولائهم! الفرق بين مسؤوليتي ومسؤولية ذلك النفر الضال هو في النتائج: أنا بنيت رغبتي في مشروع عائلتي الصغيرة وفق غدر قدر مخاتل، وهم بنوا أمجادهم وفق رغبة لم يوافقها غير غدر الدبابات والبنادق الرشاشة)). وبعد فترة تقليب ثانية في صحن طعامها البارد نظرت إليّ بخضرة عينيها الباسمة لتقول ((أتعرف ما مشكلة هذا البلد؟ مشكلته أن جنرالاته قد إغتالوا روح زوربا فيه))! دفعت الصحن بعيدا ونهضت لتتجه إلى باب المطبخ، إلا أنها بعد خطوتين توقفت واستدارت لتسألني ((ولكن ماذا تفعل في مطبخي أنت يا

ولد))؟ وفعلا ماذا كنت أفعل في مطبخها في ذلك المساء؟ هل كنت أبحث عن دفء يطفئ كآبتي أم عن دفئها هي، أم كنت أطارد شبح ابنتها شغف المعتكفة في عزلتها؟ ولماذا أطاردها؟ هل أحببتها أم لأنها الأنثى الوحيدة التي استعصى عليّ اقتحام بلاطها المحصن بصمتها الأبيض؟ كأني أصبت بعدوى وقوف مشاعر هذه العائلة عند مفترق الطرق السريعة التي فقدت علامات ارشادها وصارت لا تؤدي إلا إلى إتجاه واحد. وعلى خلاف ما كانت تظهر عليه في الواقع، بثوب عزلتها الأبيض الذي لا يبلى، وإعلائها الروحي الذي لا يخرق، كانت غالبا ما تزورني في أحلامي بفستان أسود ملكي الحواشي، يتعلق على كتفيها بحمالتين رقيقتين ليكشف عن شعر ابطيها النابت، دون التفاتها لتحرشاته بوجعي الأحمر، لأنه كان يقودني، في صحوي، لتخيل شعرها الثاني الأكثر مرارة بسبب رسمه حدود صليب أنوثتها. ولكن لم لم أحبها؟ هل اكتسبت طبائع هذه العائلة في رهن مشاعرها لتوقيتات لا تبدأ إلا لتنتهي ولا تقبل القسمة إلا على نفسها؟ لطالما سألت نفسي: هل احتجت هذه المرأة لأكثر من اشتهائي لها؟ هل كانت أكثر من حصن يستفزني بدعوته المحمومة لإقتحامه، كما يدعوني حصن أي أنثى جذابة ثانية لإقتحامه وتبديد وهم أسراره وختم جبين جرحه بإمضاء مروري الشخصي: كنت هنا! عندما وصلت إلى هذا النقطة من خط تداعيّ، كنت أعبر جسر التحرير (دون تخطيط لخروجي أو رغبة مسبقة حتى) بإتجاه الجانب الشرقي من بغداد، التي زاد إنطفاء مصابيح

شوارعها من قتامة سمائها المحاصرة بعتمة لم تألفها ذاكرتها. جلست قبالة النقطة التي نزل منها نوري السعيد، صبيحة ذلك اليوم التموزي، إلى النهر ليعبره إلى بيت الأستربادي بحثا عن خيط نجاة يوصله إلى مقر السفارة البريطانية الآمن. لماذا ترك ابن النجار وابن البزاز مقر تلك السفارة آمنا، وهو مصدر إزعاجهما الأول، وفي احدى غرفه تتعلق خشبة خيوط العملاء، الذين يدعون أنهم ثاروا عليهم وليس من أجل أن يستأثروا بالسلطة؟ كانت ما تزال أمامي ساعة ظلام كاملة تحميني من ضوء الفجر وعيون الحرس المنتشرين على طول ضفة نهر دجلة لحماية أحلام صدام من أشباح ضحاياه ومن أحلام العراقيين، عندما قررت عبور النهر سباحة إلى الحجر الذي عبر منه نوري السعيد إلى ضفة الكاظمية. لم يكن لي هدف غير أن أبترد من عبء أحسه ولا أتبين ملامحه.. أي أعبائي كان؟ جمعت ملابسي وربطتها بحزامي على رأسي.. برودة الماء بدأت بملامسة عروق ذلك العبء من لحظة وضعي لقدمي الأول في ماء النهر .. وشيئا فشيئا أخذت بالصعود لتغمر نسغ تلك العروق في صعودها إلى عمق كهف ذلك الصوت الغائر... هل كانت تبحث عن صرختة؟ وصلت القصر، مع أول خيوط الفجر، وجدت شغف الثانية تجلس تحت شجرتي الحارسة وهي بفستان رهبتنها الأبيض، من دون معطف أو دثار يقيها برد ذلك الفجر الكانوني . ما الذي أخرجها من معتكف عزلتها في مثل هذا الفجر القارس؟ هل كانت تنتظرني؟ كنت مبتلا ومبتردا إلى الحد الذي أجبرني على

تجاوز حضورها للبحث عن ملابس جافة (كانت تقف على باب جحري وأنا أستبدل ملابسي.. هل تملت عريي؟)، ثم مددت كفي إليها لأجلسها على سريري أمام المدفأة وجلست إلى جوارها طلبا للدفء ولأسمع منها ما أثقل عليها تلك الليلة وأخرجها في برد الفجر القارس. ولأن حمى نزلة البرد، بدأت بالتسلل إلى ارتعاشاتي، لم أركز على وجهها لأقرأ أثر مشاعرها عليه وهي تتكلم، إلا أن نبرة صوتها قالت أنها كانت حزينة تماما وهي تقول ((لقد ماتت فراشة بابيون قبل ساعتين من الآن)).. أذكر أن رأسي بدأ يثقل وإن جسدي أخذ بالإرتعاش واصطكت أسناني ولم تعد بي رغبة لغير دثار ثقيل وأن أريح رأسي على الوسادة... بل وأذكر أن آخر كلمة لي أني طلبت من شغف أن تلقي علي كل ما تصل اليه يدها من الأغطية. أفقت بعد ظهر ذلك اليوم ورأسي مازال يدق من وطأة الحمى، وجسدي منقوع ببرودة ماء دجلة ووجه شغف الذي كان يرقبني، من مسافة قدم واحد فقط، وكفها اليمين تمسك بكفي الأيسر بحنو. سألتني إن كنت جائعا ، ولأني لم أكن بحاجة إلا لحلم استلقائها إلى جانبي والتمتع بدفء أنوثتها، وهي في وضعها ذاك، لا تفصلها عني غير مسافة وصول زفيرها إلى وجهي، هززت رأسي نافيا، آملا أن أستبقيها في ذلك الوضع إلى يوم سماعي للحن الذي إختاره الرب ليوم لقائنا به! ولكنها سرعان ما سألتني بحيادها الذي يقوض مساحة الحلم ويحيلها إلى مجرد مسافة بيضاء باردة ((سأخبر ماما لتستدعي لك طبيبا))، فأوضحت لها بصوتي المنهك أن لا

داعي لذلك لأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد حمى نزلة برد ستزول وحدها اليوم أو غدا، على أبعد تقدير.. فقالت بنفس الحيادية وهي تربت على كفي إيذانا برحيلها ((هل تحتاج لشيء قبل أن أذهب))؟ فقلت وأنا أطارد عينيها ((نعم، أحتاجك أنت)) ووضعت كفي على كفها. سكنت تحت كفي، رغم تسارع نبضها الذي أحدثته إرتعاشة جسدها، وأسلم الخجل عينيها لمطاردة الظلال البعيدة المركونة في أقصى زوايا أنوثتها. وبعد أن تكثفت تلك الارتعاشة بصيغة دمعة، سحبت كفها وقالت بصوت مخنوق ((عليّ أن أذهب الآن))، فباغتها بسؤال ربما لم تتوقعه ((إلى أين؟ إلى غرفتك))؟ بقفزة واحدة وصلت باب غرفتي؛ ولكن ورغم ذلك، فإني ميزت صوت شهقة دمعتها من بين دقة خطوتها على الأرض وصوت حركة أكرة قفل الباب ورجة اصطفاقته خلفها. مع عشاء تلك الليلة، الذي عادة ما تأتيني به الخادمة ذات الاصول اليونانية، أفقت من نوبة الحمى لأجد وجه شغف الثانية مازال معلقا بين جفوني، ودفء كفها مازال يحتضن كفي المحموم، وملابسي المبللة على أرض الغرفة حيث رميتها، ووجبة غدائي حيث وضعتها احدى خادمات القصر المتعبات على طاولتي الصغيرة دون أن تمس أو أن أذكر لحظة وصولها بها إلى غرفتي. دخلت الخادمة ذات الاصول الروسية بإبتسامتها الدافئة لتستبدل صينية الغداء ولتخبرني بنبأ عودة الولد القديم، فرغبت أن أسألها إذا ما كانت قد رأت اليوم شغف الثانية، أو إذا ما كانت بين مستقبلي الولد القديم، إلا أني عدلت عن الفكرة

لخبرتي مع الخدم في تحويلهم لأي سؤال إلى قصة، فيما لو لم يأت في سياق ما يستهويهم نقله من أخبار مخدوميهم. على عادة أفراد العائلة، عندما تخذلهم أقدارهم، عاد الولد القديم ليعتكف في صمته ولينسج خيوط شرنقة عزلته بصبر راهب زاهد. نفض الغبار عن زاوية عزلة جده الوزير وظلال الاهمال عن أقفاص حيوناته وطيوره، التي تركت لرحمة العناية الالهية منذ رحيله، مستسلمة لشيخوخة صامتة بلا تطلعات. وجدها تركن لعطالة نوعية غابرة، بعد أن أنستها فاجعة فراق راعيها، أغلب عاداتها في الأكل والبحث عن الغذاء وتنظيف أجسادها وصقل نصاعة ريش الطيور منها، بالتراب للتخلص من البراغيث والحشرات التي تعشش على ظهورها.. كما إن معظمها كان قد بلغ مرحلة يأس فلسفية جعلتها تهمل غريزة التزاوج، فصارت أناث الطيور تضع بيوضها تحت ضغط تركيبها البايلوجي، لا تلبية لحاجة ترتبط بفعل التكاثر وحفظ النوع التي فطرت عليها. في أول أيام عودة الولد القديم، وتحت ضغط قناعاته الايمانية، عكف، وبصبره الرهباني العتيد، على تنشيط ذاكراتها والسعي لإعادة روح الغريزة إلى خارطة تفكيرها، على أمل أن يذكرها بلغاتها التي أنستها إياها حقب صمت القصر وسنوات حزن المطر..، إلا أن مساعيه، وجميع محاولاته، اصطدمت بقناعة تلك الحيوانات والطيور الضالة بوصولها إلى مرحلة الفراغ من جدوى تلك الممارسات وعبثية أهدافها الطبيعية والفلسفية. بل حتى أن لغة التهديد بالذبح والتقطيع بالسكين المشهرة، التي أثبتت نجاعتها مع

زهور وأشجار الحديقة وأجبرتها على العودة إلى ممارسة نشاطها في التزهير وطرح ثمارها من جديد، لم تنجح معها، وواجها الببغاء المشاكس بسيل من عفطاته غير المهذبة؛ الأمر الذي أجبره في النهاية على الاستسلام لقناعة أن تكون تلك المخلوقات قد استسلمت لقدر صمتها الباطني هي الأخرى. الذي لفت نظري في أمر الولد القديم هو أن سنوات اعتقاله لم تنسه من تعاليم ورياضات الكنيسة إلا عادة الصلاة.. ففي حين ظل مواظبا على ساعات عمله الصباحي في الزراعة في الحديقة ورعاية أشجارها والسعي لإقناع حيوانات وطيور جده الوزير بالعودة إلى طباعها الأولى وممارسة حياتها الطبيعية، وأيضا على طقوس رياضاته الروحية في التأمل وقهر الغرائز وعادات الجسد والنوم وهو جالس على جذع شجرة متيبس، دون غطاء أو حشية جلوس، كنت أراه يستسلم لنوع من الصمت القهري في أوقات صلواته التي ألفتها منه في زمن ما قبل إعتقاله. كما أن اعتكافه ذاك قطع صلاته مع جميع أفراد العائلة حتى بلغوا معه مرحلة ذلك النسيان المفلسف بثوب احترام رغبات الآخرين، الذي انتهجته العائلة كفلسفة جديدة لمرحلة ما بعد حزن المطر من حياتها. الشخص الوحيد الذي ظل يتذكره وواظب على زيارته في معتكف عزلته تلك هي سولافة، التي حرصت على زيارته عصر كل يوم، بفستان قمع جسدها المعتم الثقيل، الذي كان يزيد من حرارتها الداخلية، مما يضطرها للترويح لاختناقاتها الغيبية بمروحة العرائس الصينية عبر فتحة صدرها وذيل الفستان

الذي كانت تحسره إلى الركبتين. كانت تجلس قبالته على مقعد من القماش السميك، كانت تأتي به مطويا تحت أبط ذراعها الذي يحمل المروحة، لتحدثه، لساعات المساء كلها، عن كل ما يخطر في بالها، دون أن يخرج عن صمته أو من غيبة تأملاته القهرية. تحدثه يوم السبت عن تفنيدات القدر لنبوءات نوستر أداموس، وفي يوم الأحد تحل له طلاسم رؤى جدها الفلسفية التي وضعها في مذكرات موته الأول، والتي كانت تدحض طلاسم كتاب شمس المعارف الكبرى السحرية، وفي يوم الاثنين تملي عليه طلاسم من اختراعها تصحح، كما كانت تخبره بصوت خفيض، من شأن حركة النجوم، لتصلح من خلالها أقدار حيواناته وطيوره وتعيد إليها لغتها وشهيتها للطعام التي فقدتها حزنا على راعيها جده الوزير.. أما في يوم الثلاثاء فكانت تحدثه عن بداهات الموت التي وضعها جدها في المجلد الثاني من مذكرات موته، رغم أنه كان يعود لنقضها في المجلد الثالث وليصفها بصيف الموت الخامل.. أما في يوم الأربعاء فكانت تحدثه عن مذكرات الزنديق الأعظم (الملك فريدريك الثاني، امبراطور روما المقدس، الذي قرأ له المنجمون في حركة الرياح وتحليق الطيور ودوران النجوم أنه سيكون مطرقة القدر الوحيدة)، صحة زعمه حول تبخر الروح بالموت، التي كان قد أثبتها بتجربة القدر المضغوط، والتي شهد على صحتها كافة منجميه ووزرائه وأعوانه ومحضياته ومطرباته وعشيقه " دي ميلو " ورفضها وشكك في صحتها البابا أنوسنت الرابع ومجمعه الكنسي المقدس،

دون دحض لاهوتي أو انجيلي معتمد). وفي يوم الخميس كانت تحدثه عن حركة الأبراج وتقاطعاتها مع مصائر البشر، وتشرح له بحكمة لاهوتية، أسباب إخلائها بأغلب المصائر البشرية من أجل تكريس الطبقية بين الناس لأغراض قدرية صرف، لأن لو تساوى الجميع في أشكال ومستويات رفاههم فبمن ستمضي أحقاد الأقدار وضغائنها؟ أما يوم الجمعة فكانت تخصصه لقراءة طوالعه بطريقتها المتخبطة بظلال أفكارها هي ورؤاها المنقلبة على ظهرها كقمر فقد القدرة على بث إشارات سحره في المخلوقات..، بأن تقول له ((أن لون عينيك قديم فعلا، ولهذا يدعونك بالولد القديم..، وانك ولدت أعسرا لا لسبب يتعلق بجيناتك الوراثية وإنما لأن نجم حظوظك يقف على الجهة اليسرى من أقدارك..، وإنك إخترت أن تكون راهبا لا عن إيمان وإنما لأنك ولدت بنظر لا يتجاوز حدود تلك الرؤية))... وهكذا إلى أن تصل به إلى أسباب وراثته لحب جده في رعاية الحيوانات والطيور، والتي كانت ترجعها لأسباب طبقية لا جينية. ولأن جلسات أحاديثها تلك كانت تطول إلى الدرجة التي ترفع حرارتها الداخلية إلى مناسيب تفوق قدرة المروحة الصينية على إحتوائها، فإنها كانت تضطر لحسر فستان قمعها عن كامل ساقيها، لتسمح لتيارات الهواء الخارجية بالعبور إلى مركز إحتراقاتها الداخلية، مما كان يدفع الولد الصابر للاختناق والغضب، رغم أنه لم يكن يتبين شيئا مباشرا من ملامح تلك الحروب الدموية، بسب أنها كانت تهمل شعر عانتها دون حلاقة، ما حوله إلى غابة

كثيفة تحجب ما خلفها حد الضياع. ولم تؤثر تقلبات الطقس على إنتظام مواعيد تلك الجلسات وقوالب أحاديثها وطقوسها، صيفا وشتاء، إلا في أمر واحد هو أن برد فصل الشتاء وأيامه الممطرة كانت توفر على سولافة جهد إستخدام مروحتها الصينية لتبريد احتراقاتها الداخلية، وعلى الولد القديم فترات غضبه التي كان يتسبب بها حسرها لفستان قمعها المعتم عن ساقيها. إستمر هذا الوضع إلى يوم إعلان أشباح شغف الثالثة عن موت فتاة المطر، بابيون الرقيقة، في فجر يوم الجمعة الثالث من شهر آب/ أغسطس من عام ١٩٩٩ .. وقد جاء هذا الكشف متأخرا بإسبوعين عن موعد موتها الحقيقي بسبب التعذيب وضخامة عدد المتوالين على إغتصابها.. ولم يأت تأخر ذلك الكشف بسبب من ضعف بصيرة تلك الأشباح أو تلكوء في قدراتها الماورائية، إنما بسبب تأخر البت في أمر موتها الرسمي لمدة اسبوعين كاملين، لتأخر قرار المراجع العليا لجهاز المخابرات فيما يخص البت في تسليم جثتها لأهلها أم دفنها في أحد المقابر المهملة.. وقد جاء الكشف في لحظة خروج جثة بابيون الرقيقة من سيارة جهاز المخابرات ووضعها على أرض غير أرض دوائر ذلك الجهاز، بسبب تعطل قدرات رعيل أشباح شغف داخل حدود سلطة بناية المخابرات، لقدرة ذلك الجهاز على التدخل في لعبة أقدار ومصائر الناس وحرفها عن مساراتها وقت ما يشاء وتقتضي مصالح كبير جنرالاته. ألقيت جثة بابيون، كما أفادت إستشعارات رعيل الأشباح، في حفرة قبر متداع يعود

لأحد ضحايا فيضانات بداية القرن العشرين، على طرف مقبرة دارسة. وقد أفادت تلك الاستشعارات أن تعرض بابيون لصنوف التعذيب والاغتصابات، التي أعيت أطباء المستشفى الرئاسي في إخفاء معالمها، أضطرت جهاز المخابرات لوضع قبر الجثة تحت المراقبة المستمرة، لمدة عشر سنوات كاملة من أجل أن تكتسب الجثة الدرجة القطعية من التفسخ الذي يغطي آثار الإغتصاب والتعذيب ويذيب معالمها في معالم التحلل..، وتلك المراقبة هي التي تمنع رعيل الأشباح من الإهتداء إلى موضع تلك الحفرة والإتيان بجثة بابيون الرقيقة إلى القصر، كما طلبت سعاد خانم، التي أذهلتها دقة التفاصيل وظلت في شك منها حتى مساء يوم جمعة تموزي خانق لاحق ، عندما قادها كبير الأشباح (الذي عاد إلى القصر، بمن نجى من رعيله من نوبة التيه التي أصابتهم بعد موت شغف الثالثة المفاجئ في ليلة من ليالي ظلمة الاحتلال الجديد الذي تتساوى فيها الأهواء والمقادير في اللون والاتجاه والوجهة، ليقضوا شيخوختهم في ظلال صمت القصر الهادئة) بنفسه لتتأكد من أن ساكنته الجديدة كانت ابنتها بابيون الرقيقة لا غيرها.. وقد تأكدت من ذلك بمجرد دخولها حيز موت المكان، وتمييزها لرائحة بابيون المطرية التي صارت رائحة القبر والمقبرة الجديدة. كانت احدى امسيات تداعي سعاد خانم في قعر مشاعرها المغيبة طبقيا. بكت بأناقة ملكة أوربية، دون نشيج، دون صراخ، ودون كلمات. وقفت بصمت على طرف الحفرة لتلقي بإحدى ليرات مجد العائلة

ولتطلب مني ومن حافظ أن نملأ حفرة القبر بالتراب وأن نساويه بالأرض لنخفي ملامحها، ورائحة المطر التي تفوح منها لتجسد حضور جثة بابيون فيها بكامل جلال موتها. الغريب أن سعاد خانم سمحت لسولافة بمرافقتها في ذلك الطقس الذي فرضته حيرة الشيخوخة فيها فقط، وخاصة بعد فضيحة يوم عماد الولد القديم في كنيسة النذور، دون تحفظات ودون مبالغة في الاحتياطات الاحترازية التي كانت تفرضها عليها إحتياطا من تهوراتها في التخفف من ملابسها تحت ضغط حرارتها الداخلية. فقد ألبستها الخادمة ذات الاصول اليونانية ثوب حداد، يختلف عن ثوب قمع جسدها الذي يشبه الكيس، بكونه كان أنيقا، رغم ثقل خامته المعتمة، ورغم طوله الذي غطاها من منتصف العنق إلى كعبي حذائها، وغطى ذراعيها إلى أطراف أصابعها؛ مع قبعة حداد ملكية تعود موضتها إلى منتصف خمسينيات القرن العشرين، من دون سراويل داخلية أو بناطيل مربوطة بأقفال ذهبية تمنعها من خلع بنطالها وجاكيت حصارها. يومها وقفت سولافة إلى جانب ابنة عمتها شغف الرابعة بصمت دون أن تفارق وجهها ظلال ابتسامتها الفطرية، وهي تروح لوجهها بمروحتها الصينية. وعندما ألقت سعاد خانم ليرة مجدها الارستقراطي إلى باطن الحفرة وإنحنت لتأخذ حفنة تراب، مع باقي أفراد العائلة، لتلقيه في الحفرة، سألت سولافة ابنة عمتها المتوترة إن كان عليها أن تقوم بنفس الفعل، فردت عليها شغف بصبر نافد أنها ليست مضطرة لفعل ذلك؛ إلا أنها أخذت كف تراب وألقته

في حفرة القبر، من أجل أن تجرب أثر الفعل في نفسها فقط.. ولأنها لم تلمس أي أثر لذلك الفعل قهقهت بصوت مرتفع وقالت لجدتها ((ما هذا؟ أنت وسخت يدك فقط يا جدتي))! الغريب، ورغم أن خروجها من القصر ذاك، كان الأول بعد عودة الولد القديم من المعتقل، إلا أنها لم تحدثه عنه في جلساتها المسائية إليه، رغم إغراقها في نوبات سرود لا تتوقف إلا بنداء إحدى الخادمات التي تنقل لها أمر جدتها بضرورة العودة إلى غرفتها مع حلول المساء. المساء الوحيد الذي إكتفت فيه بلغة الصمت هو مساء الألفية الثانية.. جاءت على عادتها في الموعد نفسه، ولكن دون حرائق ودون مروحتها الصينية.. فتحت مقعدها المطوي تحت أبط ذراعها وجلست قبالته وراحت تتأمل صمته بشرود لا وجه له.. ولأن صمتها غير المعتاد لفت انتباه الولد القديم، فقد راح يتأمل صمتها ذاك بدل ما كان يتأمله، عادة، من خيبات إرتهاناته الماورائية. كما أن ذلك المساء، كان المساء الوحيد الذي تطوي فيه مقعدها وتعود إلى غرفتها دون نداء الخادمات. كما أنه كان المساء الذي خرج فيه ببغاء الوزير عبدالكريم رستم عن صمته ليقول بصهيل حصاني مبحوح ((ما دامت هذه الثرثارة لم تزعجنا اليوم بثرثراتها غير المفهومة، فلا بد أن تكون هذه الليلة من ليالي أقدار العائلة غير المنتظرة)). أنا الآخر لم أنجو من تلقي إشارة قدرية خاصة، دون أن أتمكن من فك شفرتها، لأنها جاءت كإرتعاشة النسغ الصاعد إلى هوة الاحساس، فدخلت جحري وتدثرت بأغطية السرير وأنا

أرتجف، كمن ينتظر نزلة برد أو كراهب متبتل ينتظر لحظة كشف ثقيلة. بعد دخول العالم زمن الألفية الثانية بدقيقة واحدة، دفعت شغف الثالثة باب جحري ووقفت أمامي بوجه يختزله سؤال عرضه كامل مساحة الذاكرة لتقول ((دعنا نجرب هذا الشيء أرجوك))! ثم بدأت بخلع ملابسها بعصبية، كمن يجبر على تغيير ملابسه للذهاب إلى مشوار لا يرغب فيه. أخرستني المفاجأة إلى الحد الذي شككت فيه أن يكون ذلك العري لأحد أشباحها ليسخر مني لا لها فسألتها ((ما هذه المزحة الثقيلة بحق الله))؟ فقالت بعصبية لم أألفها فيها ((أرجوك دعني أجرب هذا الشيء وأفرغ منه))! فقلت متلعثما ((ولكن هذا الشيء لا يأتي بهذه الطريقة الملوية العنق.. هذا الشيء يحتاج لصبر جمل وحكمة قرد وخبرة قط في المراوغة، وإلا سيتساوى بعملية تناول وجبة همبركر سيئة الشواء وبلا توابل ... وربما حتى بدون خبز))! وبما أنها كانت تجربتها الأولى ولم تفهم مقاصد كلامي تماما، فإنها صعدت إلى السرير وبسطت عريها إلى جانبي وقالت، وكأنها تتعامل مع عري غير عريها ((حسن.. ضع ما يناسبك مما تراه ضروريا؛ فقط لنجرب هذا الشيء الآن ولأنتهي منه))! ولأني كنت ما أزال تحت هول المفاجاة، فقد تحسستها بيدي لأتأكد من حقيقتها الجسدية وأطمئن خواطري أن الأمر أكبر فعلا من خدعة شبح مشاغب. ولكن، ومع ذلك، تحتم علي أن أبذل جهدا مضاعفا للوصول بها إلى مقترب مكنني من العبور بها إلى جزيرة بلا صخور حادة الحواف، وتكسو ترابها الجاف

بعض الأعشاب الخضراء. وبعد نهاية ذلك العبور المضني سألتني ((هل هذا كل شيء بحقك))؟ فأجبت بإيماءة من رأسي أن نعم، فنهضت وإرتدت ملابسها لتقول - وعلى عكس اليوناني (نيكوس كزنتزاكي، الذي صدمه هول تجربته الأولى :يا إلهي أهذا ما خلقنا لأجله) بصيغة الإجابة: ((بالتأكيد ليس هذا الذي خلقت من أجله))، ومضت دون أن تغلق باب جحري خلفها أو تنتبه لما تركت من أثر لوردة عذريتها على شرشف السرير. وبعد ساعة، إستمعت خلالها لأحزان وتوجعات أشباحها المصدومة، تمددت في سريرها لتموت يأسأ من مصيرها الذي لم يعد يحتمل إضافة كلمة واحدة على سطوره الفارغة. لم يبكها غير أشباحها والخادمتين المتبقيتين من حشد خادمات القصر، واللتين تشابهت ملامح يأسهما وأقدارهما تحت وطأة الشيخوخة. أما سعاد خانم فقد وقفت أمام موتها الشفيف بدهشة من يفاجئه منظر جمال الأشياء من حوله لأول مرة. جلست الليل بطوله إلى جانب جثتها لتحدث الخادمتين الهرمتين عن بهجة موتها الملائكي الذي يدلل على أن روحها الآن في الجنة تجلس إلى روح أختها ليز، التي ماتت موتها الشخصي ، الذي لا يشبه أناقته حتى موت القديسين. إلا أن الخادمة ذات الاصول اليونانية فضلت أن تعيدها إلى أرض الواقع، حرصا على سلامة عقلها الذي ذهبت به صدمة الموت، فقالت لها ((أظن أن علينا أن نكمل هيبة هذا الموت الملائكي بتغسيل جثته وتكفينها))، فإستهجنت سعاد خانم الفكرة وقالت ساخرة من سذاجة الخادمة بإسلوبها

الطبقي ((ومن أين لخادمة أن تفهم أناقة موت الممحوضين برعاية الرحمة الإلهية؟ مثل هذا الموت لا يمس ولا يجب أن نشوه كماله بمألوفات ساذجة)). إلا أن الخادمة، التي أيأستها شيخوخة بلا رجاء قالت بتحد مؤرق ((ولكنها ستدفن كباقي خلق الله وستواجه نفس ما واجهت جدتي الهرمة))،فردت عليها سعاد خانم بثقتها الطبقية الصارمة ((أبدا! ولكن كيف لي أن أوصل خصوصية هذا الموت لخادمة لا تتعدى حدود رؤيتها حدود سماء المطبخ))! فقالت الخادمة بغضب مكتوم ((ولكنه في النهاية موت كموت جدتي ودجاجاتها المزعجات))! فردت عليها بغضبها الارستقراطي هذه المرة ((يا لسوء طالع الخدم في غبائهم! يا بنت هذا موت آخر لأنه بلا أثقال وبلا أحزان وبلا رفض.. هل سبق لك أن رأيت امرأة تموت بمثل هذا الاستسلام العميق))؟ ولكن الاستسلام جاء من الخادمة، عند هذا الحد من جدلها العقيم، وإستجابة لغمزة من زميلتها الأكثر تداعيا في مستنقع الشيخوخة. في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي إخترق زجاج نافذة غرفة شغف الثالثة تابوت أنيق منجد بالحرير الطبيعي، فسألت سعاد خانم خادمتها الصلفة ((هل أهدت السماء أحد أبويك تابوتا بمثل هذا الجمال))؟ فردت الخادمة المصعوقة بهول المفاجئة ((أبدا))، فسألتها ((هل سبق لأحد أقربائك أن مات دون أن يخلف حزنا لذويه))؟ فأومأت لها برأسها نافية، فقالت سعاد خانم بلهجة المنتصر ((أترين؟ هذا لأن موتهم كان موت دجاج وقطط))! في تمام الساعة العاشرة وضعت الأشباح جثة

سيدتها في التابوت وحملته بإتجاه بوابة القصر، إيذانا ببداية مراسيم التشييع؛ إلا أن سيارة مصفحة من سيارات فوج حماية صدام حسين مرقت في تلك اللحظة، وهي تأمر الجميع أن يلزموا أماكنهم، لتتمم على صفاء نوايا عناصر فوج الحماية الذين سبق نشرهم لتأمين الطريق لموكب مروره إلى حفل تقيمه أحدى رياض الأطفال احتفالا بعيد ميلاد سيادته. أخر حفل مرور ذلك الموكب، عملية دفن جثة شغف ساعتين ونصف الساعة، ما اضطر رعيل الأشباح للتوقف في مكانه، لأنها كانت عاجزة عن الإلتفاف على استحكامات وسياسات أجهزة الحمايات السياسية والأمنية. في الساعة الواحدة ألا ثلث، انسحبت آخر سيارات الحماية، فواصل رعيل الأشباح سيره ليضع نعش سيدته في السيارة التي تتقدم موكب التشييع الذي سار باتجاه مقبرة الأولاد غير الشرعيين، حيث كان ينتظر الشيخ العتيق، راعي شؤون موت العائلة. وبعد إداء الشيخ ، المثقل بعبء سنواته المئة، صلاة التشفع على روح شغف، طار نعشها لينزل بهدوء في احدى الحفر التي خلفها رفض أخوها جميل رستم الدفن فيها، فصدم المنظر الشيخ المتداعي في شيخوخة لا تفتر، وذكره بحادثة طيران نعش أخوها جميل وقال من بين صلواته وتكبيراته الراجفة ((يبدو ان هذا الملاك الثاني الذي يموت من هذه العائلة...))، فقاطعته سولافة متسائلة من خلف مروحتها الصينية بسخريتها غير المقصودة ((وهل تموت الملائكة وتدفن على طريقة البشر يا شيخنا الطيب))؟ فرد الشيخ متلعثما ((الحقيقة إني لست

متأكدا من هذا يا ابنتي، لأنه لم يسبق لي أن رأيت ملاكا، سواء حيا أو ميتا))! فإنفجرت سولافة بقهقهتها العالية وقالت ((يا لجمال تواضعك يا رجل))! وهنا نهرتها سعاد خانم وطلبت من شغف الرابعة أن تأخذها بعيدا لينهي ذلك العجوز تنفيسه عن مخاوفه من مجهول ما بعد الموت، ويدفن مع شغف الثالثة صور رعبه منه. وهذا ما حدثت به سولافة الولد القديم مساء ذلك اليوم، وهي تروح لجسدها، من أسفل فستانها المحسور عن ساقيها، بعد أن تخففت من عبء أزياء تحصينها ضد موجاتها الحرارية أثناء مراسيم الدفن، وعودتها لرحابة فستان قمعها المعتم. وقبل أن تعود لحديثها اليومي المألوف سألته إن كان يعرف سبب رعب الناس من الموت، ((رغم أنه كمال (فني) يساعدنا على تجاوز مرحلة شم روائح بطوننا النتنة في ساعات ما بعد فراغنا من تلويث أيدينا بطباشير حصص الدروس اليومية)) . وهنا ظهرت الخادمة ذات الاصول اليونانية لتناديها فأطبقت مقعدها وأسرعت إلى الداخل كصبية فاجأها المساء وهي تلهو بعيدا عن البيت. قبل منتصف تلك الليلة زارتني سعاد خانم لتقول لي كلمة واحدة ببريق عينيها الأصفر ((وضيع))! لم يفاجئني غضبها، لأني قدرت أنها ستكتشف آثار ذبحي – بحسب تصورها هي طبعا – لبراءة وعفة شغف الثالثة، على ملابسها. طبعا كان من العبث أن أقول أن تلك كانت رغبة شغف وخيارها الخاص، أو أن ألومها هي شخصيا على إهمالها وعدم سيطرتها على حفيدتها، كما كان سيفعل غيري في مثل تلك المواقف، لا

لشيء سوى لأني تعلمت بعض أناقة سعاد خانم التي اختصرت لي كل ما كنت أستحق من توبيخ وإهانة – بإعتباري مذنبا برأيها – بكلمة واحدة، لاصفة كعين قط وجارحة، في وقعها، كوجع سن، ومهينة حتى نخاع العظم.. ولكن هل كان لأي من أولادها أو أشقائها أن يرفض ذلك العرض، وتحت أي ظرف أو إعتبار كان؟ لماذا لم تكن هي وضيعة وهي تنفض غبار (وغبار هذه هي التي تناسب كبريائها حسب طريقة تفكيرها) شبقها على صخرة عطشي؟ ولكن، ومع كل هذا، كنت أحس أنها على حق! لماذا؟ لا أدري... بل لأني أحس بغصة فارق طبقي بيني وبينها! وأيضا، لأني لم أكن على استعداد للتخلي عن تلك (الوضاعة) أمام عرض مماثل من ابنتها شغف، رغم ظرفها النفسي الذي أعرفه تماما، ورغم أني لم أكن طالب ثأر، ورغم أن نيلها لم يكن ليمنحني المتعة التي أصبو إليها، ولا التي منحتني هي، بقوالبها الأنيقة والقاهرة كحد سيف، والتي – قطعا - لا تمتلكها الخادمات ولا نساء الطبقة المتوسطة، بل ولا حتى نجمات كتاب فنانات بغداد! هل كنت طالب ثأر مضمر؟ لا أظن. وهذا ما أثبتته وقائع الليلة التالية التي زارتني فيها شغف الرابعة، بحثا عن متعة ليس لها مكان، ولا في أي من زوايا عقدي الخاصة (هل ثمة غيري بين الرجال من يملك الجرأة على تسميتها بالعقد؟!): لا كرجل، ولا كحارس من إصول الأقنان ولا كطامح.. لم تكن في داخلي أي رغبة إنتقام من أي وجوه سعاد خانم، رغم أنها كانت ومازالت تتصرف من موقع السيدة حتى بعد أن

حفظت تفاصيل صهوة مجدها الأنثوي عن ظهر قلب! ربما لأني كنت في حضرة امرأة ترفض المساواة (الاجتماعية) بي، وهي – رغم كل ما حصلت عليه من إنتصار جسدي مسجل – التي استخدمتني لقضاء شأن من شؤونها الخدمية فقط ... كانت هي صاحبة الفعل وكان خيارها! ما الذي يثبت للآخرين أني سجلت إسمي على تلك الصفحة بالذات، من صفحات غرورها؟ ليس معي وثيقة إثبات، مهما كانت صغيرة، أمام كوني لم أكن أكثر من حارس قصرها المصنف ضمن طائفة الخدم حتى من قبل الآخرين، وليس من قبلها فقط!

*** أطلق سراح غازي قبل يوم واحد من عودة شقيقه حافظ من منفاه البريطاني. وعلى عكس أغلب الذين يعودون من قطيعة حصار جهاز المخابرات، عاد برغبة وشوق ذاكرته القديمة.. أجل حزنه على ابنته شغف – التي كانت مثل حلم أبيض لا تمل تفاصيله – وغسل مرارة تفاصيل غيابه بالماء الساخن وتعطر وخرج إلى ليل بغداد المعتم بحثا عن محطات ذاكرته الأولى. كانت محطته الأولى بيت زوجته، نجمة غلاف كتاب فنانات بغداد، الراقصة وداد .. إستقبلته بعشقها القديم، الذي زادته سنوات تغييبه لهفة وشوقا.. أشعلت الشموع المعطرة، التي زينت بها زوايا بيتها إنتظارا لهذا اليوم، ورقصت له على أنغام رياض السنباطي ومحمد عبدالوهاب حتى الفجر.. وبعد أن شرب آخر كأس في زجاجته أخذته إلى السرير، ليبكي على صدرها إبنته الشفيفة شغف، المعطرة برائحة الغيب، كما كان يقول. بكى بحرقة عميقة حتى جسد كل صور أحزانه وغفى على صدرها.. أراحت رأسه على وسادة انتظاراتها ودموع وحدتها وأخذت تجرده من ملابسه، لتنفخ النار في حزام براكينه العالقة في ذاكرة إشتهاءاتها القديمة،

فصدمتها آثار التعذيب التي أحالت جسده إلى غابة متفحمة، وحولت خصيتيه إلى قشرة باذنجان ذابلة، فبكت عذاباته ببسالة ووفاء محاربة أمزونية وتوسدت ذراعه ونامت. ولأن الليل لن يواجههما إلا ببرودة السرير، فقد ظلا نائمين إلى ظهيرة اليوم التالي. وعندما أفاق غازي كانت زوجته ما تزال نائمة على ذراعه فواجهه عريه بعطالته المشرعة، كأحقاد جنرال يواجه خسارة حربه الأخيرة، فانسل من السرير بهدوء حذر ليستر عري هزيمته وليغادر ذلك البيت إلى غير رجعة. لم يجد مكانا لإجترار آلامه إلا في عزلة حديقة القصر الخلفية؛ فإنزوى في الزاوية المقابلة لمعتكف الولد القديم وسكن كأحد حيوانات والده الوزير الحزينة. وقبل ساعة واحدة من وصول شقيقه حافظ من رحلة منفاه، التي عاد منها لموته الذي رآه في حلم معتم، إنضمت شغف الأولى إلى عزلته تضامنا مع حزنه الجارح. عاد حافظ بشوق طفل إلى ذاكرته الأولى.. توقف للحظة أمام صمت ولده، المعزول من رهبنته بقرار سياسي، ثم مضى لما تبقى له من فسحة ما قبل موته. جدد آثاث القصر كله، ووضع بارا خشبيا على الطراز الاستعماري – رغم معارضة سعاد خانم الشديدة – في صدر صالة الجلوس، ورص على رفوفه كل ما توفر في السوق المحلية من صنوف المشروبات المستوردة ليشرب ويسهر كل ليلة مع أصدقائه القدماء، على أمل أن يعيد الحياة لموات حياة القصر المتداعي في خيبة تاريخية موحشة. جاء بزهور جديدة لحديقة القصر الأمامية، ليجدد حياة أحواض زهور العامل

الانكليزي، التي إنكفأت في صمت يشبه صمته، بعد رحيله عن القصر.. كما جاء بنباتات ظل جديدة لصالة الجلوس وغرفة الطعام وغرف النوم ليبدد بخضرتها عتمة زواياها المستسلمة ليأس موحش. ورغم اعتراض سعاد خانم على وضعه لبار للمشروبات في الصالة، في بداية ثورته التجديدية، إلا أنها سرعان ما عادت وإستسلمت لحماسه الثوري، بعد أن رأت فيه أملا، (قد يخدع جهامة القدر الذي بدأ بقرض حلم العائلة، منذ اطلاقة النقيب ستار سبع العبوسي الأولى على جلالة الملك فيصل الثاني)، فأخرجت المال من كنوز العائلة التاريخية لتمول له مشروعه الثوري البناء. أحال القصر إلى ورشة عمل كبيرة؛ فراحت مجاميع العمال والحرفيين من كل مهنة، تزاحم بعضها البعض لتنجز عملها في الوقت الذي حدده لها. فقبل أن ينتهي عمل النقاشين، الذين زينوا سقوف غرف القصر وأفاريزها بالنقوش المغاربية، كان الصباغون قد بدأ عملهم.. وقبل أن ينتهي هؤلاء من رفع بقع أصباغهم عن أرضيات غرف القصر وصالاته، بدأ النجارون بعمل الديكورات والآثاث الحديث، ووفق أحدث طرز الفن الايطالي الرفيع. شملت حملة التجديد الثورية جميع مرافق وغرف القصر، بما فيها الحمامات والمطبخ، ولكن عندما وصل العمال إلى غرفة شغف الثانية، إصطدموا بقدسية صمتها الملائكي ولم يستطيعوا فعل شيء أكثر من الخشوع في حضرته والانسحاب بصمت كامل، تحاشيا للتجاوز على حرمته وحرمة عزلتها الملائكية. أما عندما وصل العمال إلى غرفة

سولافة، فقد تصدت سعاد خانم لهم وأمرتهم بتجاوزها والانتقال إلى غرفة شغف الثالثة التي لم يجد العمال ما يضيفونه إليها، لأنهم وجدوها ناصعة ومفعمة ببريق روحها وضوع أنفاسها الباهرين؛ إلا أن إصرار سعاد خانم على دفع روح العزلة عن تلك الغرفة، أجبر العمال على خوض حرب خاسرة مع كبير أشباح شغف – الذي فضل العودة إليها ، مع من تبقى من الأشباح، بعد رحلة تيههم التي تبعت موت راعيتهم – والتي رفضت إخلاء المكان، رغم استعانتهم بتعاويذ وتعازيم مجربة من مختلف الملل والاتجاهات. ففي البداية لجأت الأشباح إلى حيلة تبديد جهد العمال عن طريق إعادة كل عمل ينجزوه إلى حاله الأول في ضربة واحدة، ليعود العمال في الصباح التالي ليجدوا أن عملهم قد تبخر وعاد وضع الغرفة إلى حاله الأول الذي وجدوها عليه. وعندما أصر رئيس العمال على رفض فكرة وجود أشباح تناصب فريق عمله العداء، وتعيد في كل ليلة مسخ جهد عملهم وإعادته إلى النقطة التي بدأوا العمل منها، قرر عدم ترك الغرفة لحين اتمام عملها كاملا ودون انقطاع ليلا ونهارا.. عندها لجأت الأشباح إلى خطة تضييع جهدهم في درجة صفر الانجاز ذاتها، بإخراج مواد وعدد العمل من الغرفة إلى حديقة القصر الأمامية قي كل مرة يدخلونها إلى الغرفة. ولأن رئيس العمال أصر على تكذيب فكرة وجود الأشباح الحامية لحرمة غرفة شغف وعلى إتمام العمل، مهما كلفه الأمر، لجأت الأشباح إلى الخطوة الأكثر رعبا للعمال، إذ أخذت بسرقة المواد والعدد من بين أيديهم

من أجل العودة بها إلى الخارج، فأخذت المواد والحاجيات تظهر للرائي في حالة طيران تلقائي في الهواء دون شيء يحملها أو يسندها من السقوط في الفراغ، الأمر الذي أصاب رئيس العمال بالذعر وأجبره على الاعتذار عن اتمام العمل وسحب فريق عمله الثوري إلى غير رجعة. ورغم أن ذلك بدا لسعاد خانم كنذير شؤم على تردي مستقبل حياة العائلة وسيرها الحثيث إلى نهاية جهنمية، إلا أنها أصرت على إيهام نفسها بحماس حافظ، الذي لم يكن في حقيقته غير صحوة ما قبل نهايته الدرامية، ولهذا فإنها ألحت عليه بالمزيد من التجديد، عن طريق إخراج المزيد من كنوز العائلة وجعلها تحت تصرفه، على أمل إبعاد شبح تداعي حياة العائلة في هوة العزلة القدرية التي كانت تتداعى فيها دون أمل في التوقف. كما أنها أقنعته بأن يخرج غازي من عزلة يأسه وأن يغمسه في حياة لهوه وحفلاته، بطريقة الضرب على ذاكرة غازي الفنية، بتنازلها عن موقفها المتصلب من دخول ذوي الاصول الخائبة إلى القصر، وسماحها لزوجة غازي - نجمة غلاف كتاب فنانات بغداد، الراقصة وداد – بالرقص في تلك السهرات.. نجح ذلك، وبمساعدة بعض مداورات عشيقتها شغف الايقاعية، في غمر غازي في ما تبقى له من أقدار خاملة؛ حتى انه إستجاب لدعوة حافظ لإعادة فتح مكتب المحاماة الخاص بهما، بعد سنوات غلقه التي تبعت هجرة حافظ وإنزوائه في الشرفة الأقل ضجيجا من شرفات ذاكرته. وقد ساهمت غيرة شغف الأولى، من ظهور زوجته وداد، في توقد إندفاعه إلى

الحد الذي فكر معه في السفر للعلاج في بريطانيا، لولا انه اصطدم بمنعه من السفر من قبل جهاز المخابرات ولأسباب تتعلق بإستعداده الفطري لخيانة الوطن، كونه عميلا بالوراثة، لأنه إبن أحد وزراء العهد الملكي الرجعي العميل للبريطانيين. عندها أحس بعمق مأساته وحجم كارثة فقده لإبنته الشفيفة شغف، التي لولا موتها القهري، لكان من الممكن أن تخرجه من مأزقه هذا عن طريق فريق أشباحها التي سارت بنعش شقيقها، جميل رستم، إلى مدفن العائلة الرسمي، بعد رفضها أن تدفن في مقبرة أولاده غير الشرعيين، وأيضا حملها لنعش إبنته ذاتها بقواها الخارقة التي لا تدركها الأبصار..، فبكاها أشهرا طويلة أعادته إلى عزلة حديقة القصر الخلفية، وبصمت يضاهي صمت الولد القديم، ما اضطر سولافة إلى مقاسمته جلساتها المسائية مع الولد القديم، لتحدثه هو الآخر بما لا يعيه عن قصاصات ذاكرتها ومذكرات موت جدها الأول، وهي تروح لحرائقها الداخلية بمروحة العرائس الصينية.. إلا أنها سرعان ما تخلت عن مجالسته لأنه كان يغضب من حسرها لفستان قمعها المعتم لتمرر تيارات الهواء لعمق حرارتها الباطنية. وقد إستمرت عزلة يأسه هذه المرة إلى اليوم الذي نقلت له فيه شغف الأولى خبر حشد الولايات المتحدة الأمريكية لحربها الثانية على صدام حسين، وحدسها بأن تضع هذه الحرب نهاية لصدام ولحقبة حكمه هذه المرة؛ الأمر الذي بعث الأمل في نفسه من جديد وشجعه على تناسي مأساة عطالته المخزية؛ فنفض غبار عزلته وخرج إلى الشارع

لإعادة صلته بالأشياء والتهيوء لساعة انقلاب الساعة البايلوجية لمصير البلاد. ذلك الحدس، أعاد أغلب أفراد العائلة من مهاوي التداعي، بإستثناء شغف الثانية، التي حافظت على حصانتها ضد الشيء اليومي، لما بعد سقوط وحدانية صدام إلى احدى حفر الواقع، ولما بعد إنقلاب حياة البلاد لدورة صيف آخر..، وأيضا لما بعد تعبها من تكرار الأشياء وتشابه الأيام من حولها ما دفعها لقرار موتها الاختياري. وكان ثاني العائدين من مهاوي ذاكرتهن سعاد خانم، التي عادت لترعى أغلب حرائق العائلة اليومية، من رف عشيقتها شغف إلى فستان رقابة سولافة المعتم... بإستثناء حرائق جحري المنزوي في نهاية ردهة إهمالها العنيد.. فقد أسقطته من الحافة الحادة لأجندة رغباتها لتعيدني إلى مجرد حارس يرقب تهدلات القدر من حولها، ومن على مسافة ذاكرة كاملة من تاريخها الشخصي.. إلا أن غازي سرعان إنكفأ إلى أضيق حلقات هذا الأمل، لا لعجز في رغباته وإنما لأن صدام كان قد ضيق مساحة الرؤية إلى مساحة صورته الشخصية على شاشة التلفزيون، فأجبره الحال على الإنغماس في الشراب، في عتمة الأضواء الملونة التي زين بها حافظ صالة جلوس القصر. أما الصباحات فقد أمضاها مع من تشبث من أصدقائه القدماء بذاكرته الملكية، على مقاعد حدائق وصالات نادي العلوية، رغم تعطيل الفقرة (أ) من المادة الأولى لإنقلاب تموز / يوليو عام ١٩٦٨ ، لذاكرة النادي الأولى، في انتظار تفصيل ذاكرة جديدة وفق مقاسات أدبيات

ذلك الانقلاب الايديولوجية. أما في الأيام التي كان يمل فيها تطلعات أصدقائه المكتومة، فكان يقضيها في الدوران مع شغف الأولى في حديقة القصر الخلفية ليستمع لرؤيتها المتفائلة في أهداف وبرامج الحشود الأمريكية، وإذا ما كانت أهدافها ستتوقف عند حدود الاطاحة بصدام أم ستتعداها إلى ذاكرة ما قبل الألم، لتعيد للتاريخ طعمه القديم، ليروى كقصص، لا ليكتب كدروس لإغتصاب الذاكرة وإجتثاث الأسئلة من عيون الأجيال اللاحقة. ورغم أن أجهزة صدام الأمنية والاعلامية، قد حرصت على إظهار أمر تلك الحشود كنزهة لمجموعة من الجنود المتعبين، جاءوا لتعلم صيد اسماك الخليج وجمع القواقع من سواحله الدافئة ــ قياسا لمناخ بلادهم المفرط في البرودة، كنوع من العقوبة الالهية على عدم إستيعابهم لدروس حملته الإيمانية الكبرى ــ إلا أن سولافة وجدت في احدى حواشي مذكرات موت جدها الأول، نبوءة لنوستر أداموس بنهاية غازي، وعلى مسافة سبع ساعات فقط من تدحرج صدام إلى هاوية بلا نجوم ترسم له مقادير ما تبقى له من حظوظ. رفض غازي قبول فكرة أن لا يكون من هم لجهاز المخابرات غير الإطاحة به من على عرش أوهامه، بنفس القدر الذي رفض به صدام تصديق فكرة أن يكون قدوم تلك الحشود لإسقاطه عن عرشه المدعوم بعناية إلهه الشخصي، والذي نصره على أعدائه الطامعين طوال عمره وسنوات حكمه المجيد.. لذا إستمر غازي على عدم مبالاته..، بل إنه عاد للسهر في نادي العلوية (الذي تعرض على بوابته لمحاولتي إغتيال،

راحت ضحيتهما إثنين من أبرز نجوم كتاب فنانات بغداد) ولقاء أصدقائه المقعدين على مصاطبه القديمة، لإجترار ذكرياتهم عن سهرات ملهى الطاحونة الحمراء وإستعراض بطولاتهم مع عشيقاتهم من نجمات كتاب فنانات بغداد.. بل إنه لم ينتبه إلى إنه في كل خروج له من القصر أو نادي العلوية أو مكتبه القانوني، كان ينجو بإعجوبة من حادث مروري، وطوال الفترة التي أعقبت إطلاق سراحه الأخير.. كما إنه لم ينتبه للاشارات التي بدأت تهيأه لعملية إنتقاله إلى عالم الموت، من مثل زيارات إبنته ليز له في منامه، بشكل يومي لتحسب له الأيام الغائمة في حياته، أو زيارات إبنته شغف، في يقظته، وهي تومئ له مودعة بإبتسامتها الرقيقة. ودون أن ينتبه، واظبت الإثنتان على تهيأته لموته الذي كان ينتظره على مسافة مئة متر من بوابة نادي العلوية، فأخذ يسأل، دون وعي بهدف تلك الأسئلة، عن القياس المثالي لمساحة القبر، وعن طبيعة أجوائه الروحية، وعن أول أجزاء الجسد التي تبدأ بالتفسخ... حتى مل أصدقائه تلك الأحاديث وصاروا يتحاشون الجلوس معه، وخاصة في أوقات تناول وجبات غدائهم التي فارقتها بهجة عشيقاتهم الجميلات، بقرار حكمة القائد الضرورة. وكان كلما إقترب ذلك الموعد، شوهدت إبنته شغف أكثر في غرف القصر، وهي تجر زحام أشباحها بجلبة مسموعة. فقد لمحت الخادمتان الهرمتان طرف فستان كفنها وهو يخطف في المطبخ أو وهي داخلة إلى غرفة نومهن الملحقة بالمطبخ وفي ممرات الطابق العلوي وأمام باب غرفتها

الخاصة، التي قاومت تجديدات حافظ الثورية وأصرت على الإحتفاظ بالهوية التي منحها ضوع فرادتها وإلى الأبد. ورغم كل ما لجأت إليه الخادمتان من وسائل طرد الأرواح، كإشعال الشموع وأعواد البخور، في أغلب الزوايا المعتمة من القصر، إلا أنها واصلت الدوران حول والدها لتخفف عنه وحشة الرحيل ووقع نقر خطواته في خاطره الملبد. وفي صباح ٨ /٤ / ٢٠٠٣ ، إستيقظ بكامل حيويته ومتخففا من أعباء همومه الدنيوية؛ فأخذ حمامه الساخن وحلق ذقنه ولبس أحدث بدلاته وذهب إلى مكتبه ليتمم على قضايا زبائنه المعلقة وليبدي توجيهاته بشأنها لحافظ، ومن ثم قصد مصاطب عطالة نادي العلوية ، ولكن ليس من أجل لقاء ذكريات أصدقائه المعطلين تحت ظلال أشجاره العتيقة ، إنما لينتظر قدر جهاز المخابرات المتربص به دون خطأ هذه المرة. لم يتحدث عن الموت في تلك الأمسية وإنما عن مشاريع حياتية حالمة وعن أسفار وردية إلى أرض عجائب أليس الجميلة، ما شد عصب الصبر في أصدقائه وأعادهم إلى مواقع آمالهم المركونة في حدائق قصورهم الخلفية. وبعد عشاء تلك الليلة، وفي تمام الساعة العاشرة والنصف، إستأذن أصدقائه لأنه كان على موعد، تذكره في تلك اللحظة فقط، وأراد أن يلحقه قبل نسيانه من جديد. بعد ثلاث دقائق من مغادرته، وقبل أن يكمل نصف إستدارة ساحة الفردوس، التي يطل عليها نادي العلوية، علا صوت الأربعمائة وست وتسعين إطلاقة التي أحالت جسده إلى نثار مشوي من اللحم المفروم، وعلى مسافة متر واحد من

سرفة أول دبابات الغزو الأمريكي التي وطئت ساحة الفردوس لتسقط صنم صدام من سماء وحدانيته إلى جحر وحدته المحصن بأدعية وأوراد رجال مخابراته وجهاز أمنه الخاص وأفواج الطوارئ والتدخل السريع المخلصين. أخرس أزيز تلك الاطلاقات سعاد خانم، وأخرج الولد القديم و شغف الثانية من صمتهما بتمتمات لم يفقهها أحد من أهل القصر، لأنها لم تعبر عن قلق من رهبة الموت ولا عن بلادة الحزن، وإنما لأنها جاءت في لحظة تفرغ القدر لكتابة أكبر صفحات مجد صدام حسين. أما شغف الأولى فقد أفلتها الحادث من عقال مصابراتها لتبدأ رحلة التشكيك في كل ما حولها من بيضة فلسفة الحكمة إلى دجاجة القدر، التي لم تحسن توزيع بيوضها على مفاقس حسابات المنطق. دارت تحت نوبات حمى ودفق أسئلة مشوشة عن إهمال المقادير لأمر صدام... ألم يكن من الأجدر أن تأتي معجزة خلاص العراقيين بمعجزة قدرية بدل معجزة أمريكية؟ هل تتوقف حدود معجزة المقادير على ولادة ضفدعة صغيرة وخروج بيضة من مؤخرة دجاجة، وتكون معجزة إزالة دكتاتورية صدام من نصيب المعجزات الأمريكية؟ لماذا تعاملنا لعبة المقادير بكل هذه السادية من يوم إنقلاب ذلك الأبله، عبدالكريم قاسم، على شرعية الدولة، وتكريسه لسنة الاستحواذ على السلطة بطريقة الانقلابات، وهدره للمال العام لطبع صوره على بالونات لهو الأطفال وأباريق الشاي وملاءات الأسرة ومؤخرات الحمير؟ ترى لو كانت المس جيرترود بيل قد أصيبت بالعمى السياسي وقبلت بترشيح

طالب النقيب ملكا للعراق، هل كانت ستعجل بتكريس هذه السنة منذ عام ١٩٢١ ؟ إلا تثبت فترة السبعة وثلاثين عاما التي إقتطعتها المس بيل لحكم الملك فيصل الأول وذريته أننا عاجزون عن إدارة شؤوننا بأنفسنا؟ هذه الأسئلة وغيرها هي التي علقتها شغف الأولى على حبل غسيل الأقدار، وتحدثت بها إلى الولد القديم وإلى سولافة وعشيقتها سعاد، حتى اللحظة التي سقط فيها وجه صدام في وحل هزيمته وتلقى أول صفعة نعل مهترئ على خده الأيمن. صفعة النعل تلك أصابتها، وكباقي من حولها، بحالة ذهول شابهت حالة ذهول الحرب التي أصابت حافظ بضبابية الأحلام المزمنة، وخادمتي القصر الهرمتين بخرس عنيد، وأصابت شغف الرابعة بحالة سعار جنسي سادي كاد يودي بي، وأصاب سولافة بحالة تمرد على لائحة أقدارها، ما قادها إلى أقصى حدود فوضاها، بحيث أنها صارت تظهر بعريها الكامل ومروحتها الحزينة في صالة الجلوس والمطبخ ورواق الطابق الثاني بلا مبالاة مفزعة؛ الأمر الذي أجبر سعاد خانم على الخروج من حالة الذهول التي سببها لها فقدها لغازي، لتتدخل في إعادة توازن العائلة إلى وتيرة ما قبل ذهول الحرب. بدأت بحافظ، بأن أخرجت له المزيد من كنوز مجد العائلة ليتصرف بها على هواه وقالت له ((إذهب وتسلى ولو بطباعة صورك على أكياس الحمام وعلى سراويل ومشدات راقصات ملهى الطاحونة الحمراء؛ فبم كان عبدالكريم قاسم وصدام يمتازان عليك ليطبعا صورهما على صحون الطعام وأباريق الشاي وبالونات لهو

الأطفال؟ على الأقل أنت ستطبعها بمالك الخاص، لا من سرقات المال العام الذي لم يجرؤ، جلالة الملك فيصل، على المساس به، ولو من أجل زيادة مخصصات مراسلات الديوان الملكي، بضعة دنانير، عندما إعتذر له وزير ماليته، حسقيل ساسون، لعدم وجود فائض في الميزانية العامة)).
أما خرس خادمتيها فسلطت عليه عري سولافة المخزي، بشعر معبر أسرارها المتهدل كلحية فيلسوف شارد الفكر، فأعاد فزعه أصواتهما إلى حناجرهما لتصرخا من هول وقعه المخزي أولا، وليعيد الكلمات إلى لسانيهما، عندما أجبرهما تسكعها في المطبخ على الشكوى لسعاد خانم من أجل أن تجبرها على العودة إلى لبس فستان قمع جسدها المعتم، وبهذا دفعت عنهما غائلة الخرس الذي أحالهما إلى ما يشبه موميائات الحرب المفزعة بحركتها الصامتة.
وحدها شغف الرابعة التي ظلت في منجى من تدابير سعاد خانم، لسرية معاناتها ودقة إحتياطاتها في التكتم عليها... وكان عليّ دفع ثمن تلك السرية وذلك التكتم القهري.. ففي كل مرة كانت يجبرها يأسها من مصيرها على اللجوء إليّ، كانت تتركني، أحد حروبها الخاسرة، مشبوحا على صليب، من الحديد الساخن، وبجروح تفوق جروح المسيح في عددها، رغم أني لم أكن ولم أرغب يوما أن أكون مخلصا مثله، ولو لأورام شغف الخبيثة تلك. وفي ليلة إعلان الحاكم الأمريكي، بول بريمر، لأسقاط قواته العسكرية لصدام حسين من خارطة الوجاهة، وجميع حسابات وقوانين تأليهه، التي صنعها لنفسه، وطرده إلى خارج أسوار

المصالح الأمريكية وجغرافيا أقدارها وبنود الرحمة الإلهية، صادفتني وأنا أضع الثلج على جثة غازي، (التي منعتنا فوضى الاحتلال الجديد من دفنها وتجميد عرقها في ذاكرة العائلة) فبدت لي كأنها في معزل عما حولها، وعيناها تخلوان من أي سؤال، بإستثناء حضور رغائبها.. ولما إنتهيت من تجميد فساد جثة غازي عند حدود الخطوط الزرقاء التي بدأت بغزو رقبته، تبعتني بصمت مجلجل، وثقة من تلك التي تصادر عزيمة الرجل وتتركه مشدوها بعجزه المفاجئ أمام حضور جنون الجسد. وفي الطريق المؤدي إلى جحري، تعثرت بشيء ما (منعتني ظلمة الحديقة الخلفية من تمييزه) وسقطت على وجهها في تراب الحديقة الرطب وأخذت تطلق تأوهات ألم ممض، طيعت غلواء عنفوانها وأحالتها إلى مجرد أنثى: يجتاحها الألم ويخذلها في نقطة إنكسار غيرها من النساء. حملتها بين ذراعيّ وسرت بها متوجسا من ظلال الظلمة إلى أن دخلت بها جحري الصغير ومددتها على سريري، بعناية من يضع تحفة خزفية ثمينة على رف مكتبته الضيق. أضأت فانوسي النفطي الصغير،لأبدد ظلمة الحرب عن سماء جحري؛ وعلى ضوئه الراعش تبينت مساحة جرح ألمها، الذي شق كرشة ساقها بعمق بوصة فزادها منظر الجرح الملوث بالتراب ألما، وغرقت في نوبة بكاء متوجع أفقدها ما تبقى من هيبة سطوتها الجسدية، وقمع حصارات لياليها لصبري الرقيق، لتحيلني إلى مجرد سوط بالي من جلد ثور نافق. نظفت الجرح وضمدته، وسط تأوهات توجعها التي لم تنقطع؛

فأخذتها في حضني لأهدئها وأخفف عنها سورة ألمها... (الحقيقة، وللأمانة، مع رغبة جامحة مني لألتصق ببضاضة جسدها وعري فخذيها الذي كان كافيا لإشعال حرب كونية ثالثة، وليس لتأجيج سعار رغبة فقط)! قبلتها في جبينها.. وقبلت عينيها وأنا أمسد شعرها وأداعب أذنها وأرنبة أنفها كطفلة صغيرة، فهدأت وقطعت تأوهاتها، فسألتها بحنو ((هل مازال الجرح يؤلمك))؟ فقالت بحنين أنثوي عميق وهي تدفن رأسها في صدري ((نعم... أعني قليلا))، فقلت بنبرة هادئة لا تسفر عن وجه مقاصدها ((هل يؤذيك هذا القليل الذي تبقى))؟ فقالت بدلال ((نعم.. أرجوك أنظر إن كان ما يزال ينزف))، فقلت بنفس الرفق ((هل يقلقك نزيفه))؟ فردت بإستغراب ((طبعا يقلقني! كيف تسألني مثل هذا السؤال؟ هل تظنني حجرا))؟ فسألتها وأنا أنظر في عينيها ((لم ألمه بلا لذة هذه المرة؟ أليس هو ألم مماثل للألم الذي تطلبين لنشوتك))؟ خفضت عيناها ودفنت رأسها أكثر في صدري ورفعت كفها لتداعب خدي فقبلت باطن كفها، ثم أمسكت بكفها لأقبل أناملها واحدا، واحدا، ولأداعبها بلساني فتأوهت بشهوة، فمصصت سبابتها فقالت بحزم ناعم ((عضه بقوة)) فهمست في أذنها ((كلا، لأنه أرق من أن يستحق أكثر من المداعبة الرقيقة.. فقط أسكتي ذلك الصوت لأمنح جسدك ما يحتاج فعلا من حب وتبجيل)).. كانت كلما إقتربت بها خطوة من الدرجة صفر لتسجيل عنوان جديد لحرائقها، قدمت خطوة - لا إرادية - مضادة إلى طريق العودة... ولكني كنت مصمما على وضع

قدميّ على سطح القمر، رغم معرفتي المسبقة بقلة الجاذبية على ذلك السطح... وإستحالة الاستقرار عليه.. وبعد وضعي لكلتا قدمي وإستقراري على (نصفي) المضيء من القمر، بدأت بغمرها بقبل حنوي الناعم، سألتني وهي تغمض عينيها ((كم أنت حنون ودافئ كحضن أم طيبة ومتفانية؟ هل مثل هذه الرقة الزائدة مناسبة للرجل برأيك))؟ فقلت وأنا أغمرها بالمزيد من قبلي ((ومن قرر أن يكون الرجل جبارا وعنيفا؟ الملوك وكولونيالات الحروب الباحثين عن أمجاد كتب التاريخ المدرسية))؟ فغمغمت وهي تنهض للبحث عن لوازمها بين ثنيات غطاء السرير ((ولكن تلك الكتب تلاقي من احترام دول العالم كله حد قداسة التدريس في مدارس أولادها الصغار والكبار، على حد سواء))، فعرفت حينها أن قدمي وحدهما اللتين لامستا سطح القمر... بل أن ذلك القمر ليس له وجود أمام عينيها من الأساس! إرتدت ملابسها وأصلحت هندامها أمام مرآتي الصغيرة بصمت، قبل أن تستدير إلي لتقول ((وبرأيك أن تتخلى دول العالم عن تدريس تاريخ وبطولات زعمائها لطلابها))؟ كل ذلك الوقت كانت تفكر في البحث عن تبرير لهزيمتي أمامها إذن! فقلت وأنا أستجمع هدوئي ((إنهم طلاب إنتصارات... وأظن أنك توافقيني أن سرير الحب أجل من أن يكون ساحة حرب))! كانت قد فتحت باب جحري المعتم لتتسلل إليه أول خيوط الفجر ونداء مكبرات صوت أحدى مدرعات الجيش الأمريكي معلنة رفع حظر التجوال من الساعة السابعة صباحا وحتى الساعة السادسة مساء،

فرمقتني بنظرة شفقة وخرجت دون أن تغلق الباب خلفها، فنهضت لأرتدي ملابسي فقد حان وقت إراحة غازي من عذاب التجميد بالثلج الصناعي وإراحة نثار لحمه من الذوبان مع ذوبان فصوص الثلج. كان الطريق إلى المقبرة مزدحما بكل أنواع الوجع الأمريكي: الدبابات التي تعادي أرصفة الشوارع ومستخدميها فتسحقها بسرفها، مواكب الساسة المحمية بسيارات همر العسكرتاية الأمريكية، وأصوات العيارات النارية العشوائية التي استباحت أشجار عصافير بغداد وسمائها.. وعلى ناصية كل شارع كان علينا أن نترجل من سياراتنا وأن نفتح التابوت لأنوف الجنود الأمريكان، لنثبت لهم إننا لا نحمل أكثرمن جثة متفسخة.. وعلى بوابة المقبرة، التي كانت تحرس قبورها احدى دورياتهم ألمدرعة، إستوقفنا أحد الضباط ليتأكد من كل شيء بنفسه وليطالبنا بإثباتات فلسفية لكيفية إغتيال جهاز المخابرات الهارب لشخص مثل غازي عبدالكريم رستم بكل هذا العدد من العيارات النارية، وفي الخمس دقائق الأخيرة من عمره.. سأل ضابط الدورية حافظ متشككا، وهو يأمر بتحويل الجثة إلى الطب العدلي، في مستشفاهم الخاص في مطار بغداد الدولي ((هل عليّ أن أصدق أن صاحب هذه الجثة قد أغتيل في السبع ساعات الأخيرة من عمر نظام دولة كامل لمجرد انه كان ابن وزير سابق؟ هل تصدق أنت مثل هذه الخرافة))؟ فأجابه حافظ بثقة نملة بصحة أهدافها ((إن لم أصدق مثل هذه الخرافة فلن أصدق أن قوات بلادك تحتل بلادي لتتأكد من سلامة أسباب مقتل شقيقي.. هل

تصدق أنت مثل هذه الخرافة))؟ ابتسم الضاط الكهل وقال ((أنت تتذاكى عليّ ياولد))؟ وأمر جنوده أن يحتجزونا في أحد المدافن القريبة لحين إتمام الفحص على جثة غازي والتأكد من منشأ العيارات النارية ونوع السلاح الذي تسبب في موته. إعترضت سعاد خانم على ذلك الإجراء، بقولها، بإنكليزية الاستعمار البريطاني القديم التي فات أوانها ((الآن تأكد لي إنكم أنتم من كان وراء عملية التغرير بعبد الكريم قاسم، ليوصلكم إلى هذه اللحظة: أن تشككوا في ذمتنا في عقر ديارنا))! إنفعل الضابط وتقدم ليصفعها، فهاجمه حافظ ليغرز أظافره في رقبته، إلا أن إطلاقة سريعة عاجلته في ظهره لتصيبه في الجهة المقابلة لموضع قلبه فإرتخت كفاه وإنهار مترنحا ليسقط على وجهه ونافورة من الدم تتدفق من ظهره.. تحول الدم إلى خيط نضوح أخذ بالسيلان ليحفر له مجرى تلوى بين القبور وأكوام التراب، التي سدت الممرات، ليأخذ طريقه إلى باب المدفن بإتجاه مدفن العائلة الرسمي؛ فعلقت سعاد خانم بصبرها الحكيم، وبالعربية هذه المرة ((هولاء الأوباش جاءوا اليوم ليكملوا مشروعهم الذي لقنوه لصدام في مقر سفارتهم في القاهرة: إغتيال كل ما هو أصيل في هذه البلاد))! تحول ذلك المدفن إلى زنزانة إعتقال لنا تلك الليلة، وعندما جاؤنا بطعام وماء من أرزاق جنودهم، رفضتها سعاد خانم، بكبريائها الأصم وقالت للضابط الذي خفر الضابط الأول ((أيها الأوغاد، هل ستجبرونا على التبول أمام موتانا؟ يعوزكم الكثير لترتقي أخلاقكم إلى مستوى تقدمكم التكنلوجي)). كانت سولافة أول

المشتكين من حاجتها لإفراغ مثانتها، فطرقت باب المدفن لأشرح للجندي المكلف بحراسة باب المدفن كي أشرح له أمر حاجتنا لحمام يحتوي على مرحاض نفرغ على مقعده شجون خزينا الاجتماعي.. بعد نصف ساعة من الانتظار الساخن، تحت توتر سراويل قمع تهورات سولافة، فتح جندي الحراسة باب المدفن ليعطيني صفيحة صدئة، من تلك التي تستخدم لتسويق زيوت الطبخ، وقال بلهجة شامتة ((عليكم تدبر أموركم بهذه، وهي أقصى ما يمكننا توفيره لكم هذه الليلة))، فقالت سعاد خانم بإنكليزيتها، التي لم يعد يستخدمها غير ذوي الأوجاع التاريخية ((هل هذه ثقافة الجامعات الأمريكية أم ثقافة وزارة صحة البيت الأبيض ومنظمات حقوق الانسان الأمريكية المتبجحة؟ أخبرني أيها الوغد الصغير، هل يتبول رئيسكم في مثل هذه الصفيحة أم في سروال عفونته؟ كم صفيحة مثل هذه يحتوي البيت الأبيض أيها العفن؟ ألم تتوصل مراكز بحوثكم الطبية إلى ثقافة الحمامات بعد؟ تعرف، لو كنتم تقرؤون التاريخ بقدر ما تشاهدون أكاذيب هوليود لعرفتم أن الاستعمار البريطاني كان إلى جانب بشاعتكم، نزهة مجموعة من الملائكة الأتقياء في شوارع بغداد))! ولأن الجندي الحارس طلب مني إسكاتها، صرخت به بعنف ((وجه كلامك لي يا ولد، لأن تصرفك هذا ضد حقوق المرأة المدنية وتمييز جنسي ضدها)). سولافة، كانت أول المستفيدين من رفاه صفيحة الزيت النباتي الصدئة، بعد أن أمرتني سعاد خانم بأن ألصق وجهي بجدار المدفن البعيد، على طريقة تفتيش القوات

الأمريكية، لأن سولافة تعودت رفاه العري في حياتها العامة، فما بالك بمطالب الحمام؟ الطريف أن سعاد خانم، وكان دورها الثاني في التعبير عن مشاعر غضبها على وضاعة أساليب القوات الأمريكية في تلك الصفيحة، أصرت على تعصيب عينيّ، قبل أن توجه لنفسها إهانة الجلوس على صحيفة احلام الرئيس جورج بوش وتعبر عن مشاعرها في خامة تلك الأحلام. وعندما غصت الصفيحة بأوجاع قهر ذلك اليوم وسألت عنصر الحرس المناوب عن كيفية التخلص من فيض تلك المشاعر، شرح لي بصبر انه لا يستطيع البت في ذلك الأمر، من دون إستطلاع رأي ضابط المفرزة وأخذ الإذن منه؛ وبما أن الضابط قد ذهب للاستمتاع بوقت إستراحته وانه لن يعود قبل الساعة السابعة من صباح اليوم التالي فإن علينا الاحتفاظ بالصفحية، وبحمل مشاعرها، إلى صباح اليوم التالي، فدمدمت سعاد خانم بسيل شتائم لم يفهم الجندي شيئا منها، لأنها كانت باللغة العربية؛ قبل أن تنتبه للأمر وتصرخ به بعصبية ((هي! فاك يو))! وكانت الكلمات الوحيدة التي فهمها الحارس من بين رطانتها الاستعمارية. وبعد دقيقة واحدة عادت لتسأله عن مصير جثة حافظ، فقال ساخرا ((إنها في مقبرة مدام؛ فماذا يقلقك بشأن جثة في مقبرة))؟ فعادت لتصرخ في وجهه بنفس شتيمتها السابقة. وبعد ساعة ذهول، غاب فيها الجميع خلف جدار صمت لاغط، جاءنا الحارس المناوب بوجبة عشاء من الأطعمة المحفوظة، فقذفتها سعاد خانم في وجهه، فأمرني بحملها

وإدخالها إلى داخل المدفن وهو يقول: ((نحن نأكل ونحن في أقسى من ظروفكم...)) فقاطعته ((ولكننا لا نريد أن نأكل.. ليست بنا رغبة للطعام، أم ستجبرنا عليه))؟ فقال ((أوكي! افتحوا العلب فقط وإتركوها كما هي أو لطخوا بمحتوياتها ظهور موتاكم))!، وخرج وأغلق الباب خلفه، فعاد الظلام ليسود المكان وليحولنا إلى مجموعة أشباح لا تهتدي إلى بعضها إلا بإرسال الإشارات الصوتية. وما أن فرض الظلام سيادة الصمت على المدفن حتى صرخت شغف الرابعة من الزاوية المقابلة لي أن شبح شغف الثالثة قد خطر من أمامها ((كدرا معذبا ومنكوش الشعر، وكأنها تبحث عن وجه بين الوجوه)) وطلبت مني أن أشعل عود ثقاب كي تهتدي إلي.. وعلى ضوء عود الثقاب سارت متعثرة بظلال رعبها لتقف إلى جانبي ولتشبك ذراعها بذراعي وهي ترتعد من لسانها إلى أصابع قدميها.. ثم جاءت صرخة الفزع الثانية من شغف الأولى تطلب مني إشعال عود ثقاب ثاني لتهتدي إلي ((لأن حزن شغف الثالثة يجرح وجهي.. ماذا تفعل هي هنا))؟ وعلى ضوء عود الثقاب المرتجف وصلتني وهي تلهث لتلتصق بجانبي الثاني وهي مقطعة الأنفاس... فجرحني دفء جسدها المصطك. كانت المرة الأولى التي تقترب فيها مني إلى عمق الجرح هذا، فطوقتها بذراعي وجذبتها إلى أقرب جدران جرحي حتى هدأت وإستكانت. لفحتني رائحة أنوثتها: بكر وفاغمة... ولكنها كانت راعشة، كضوء عود الثقاب، وقصية، كأنها تأتيني من خلف لوح زجاج سميك... يداريها

ويمنع ملامستها، حتى في لحظة ضعفها تلك وطلبها لحمايتي كجنس آخر. وفي النهاية جاء دور تحطم دفاعات شجاعة سعاد خانم، من دون أن تتنازل عن صرح أنفتها؛ فقالت بهدوء مصطنع لتغطي على أرتعاشات فزعها ((أشعل عود ثقاب وتعالوا إلى هذه الزاوية لأنها أنظف))، فقلت بلهجة تفهم لمراميها ((بل تعالي أنت لأن لهذا القبر دكة جانبية من المرمر يمكن الجلوس عليها ولنستفاد من إرتفاع ظهر القبر كمصد للاطلاقات التي قد تخترق جدران المدفن)).. وأشعلت لها عود ثقاب لتهتدي على ضوئه إلى مكاني فأسرعت بخطاها وتعثرت بحجارة الأرضية وسقطت على وجهها فأسرعت لأنهضها، إلا أنها دفعتني بحقد الأنثى فيها في لحظة ما قبل إستسلامها، إلا أني لم أرتدع هذه المرة، كعادتي أمام جبروتها، وإحتضنتها لأنهضها، ولكنها حاولت دفعي، إلا أني طوقتها بذراعيّ وشددتها إليّ لأهمس في أذنها ((حان الوقت لتهدئي، فقد كان خيار شغف لا رغبتي))، فردت بهمس حقدها الأنثوي ((بل كانت خسة وضاعتك أيها العبد الآبق.. أشعل عود ثقاب آخر ولا تجبرني على قول كلام لا يليق بي)). وحدهما، شغف الثانية وسولافة حافظتا على هودئهما بإعلائهما الغيبي.. شغف ظلت صامتة وساكنة بشرودها الروحي الأبيض، وسولافة بلغط بداهاتها وفوضى إتكائها على هوامش قصاصات ذاكرة موت جدها الماورائية.. وإذ ساعدها ظلام المدفن على التخفف مما يعيق إبترادها بتيارات كانون الصقيعية، دون أن تواجهها توبيخات جدتها المتسلطة، فإنها إنطلقت في

تعليق إرتجاعاتها على فحوى الحدوس السائبة في رؤى جدها، وخاصة فيما يتعلق بتيه الأقدار، التي إستعصت قراءتها على نوستر أداموس، وهي لم تكن أكثر من جملة في أربع كلمات: فساد الحكام والسياسيين بالفطرة! فجأة علا صوت إطلاق نار كثيف من حولنا، معلنا وقوع حرب مع أشباح المقبرة، فعلقت سعاد خانم ((هولاء القردة كحراس مملكة الموتى، يحاولون سد فراغات رعبهم ببطولات بلا منافسين ليصنعوا لأنفسهم سطوة على ضمائرنا))، ولم توقف تلك التقديرات غير رشقة الرصاص التي إخترقت باب المدفن لتنبت في ظهور القبور ولتملأ حضني بجسدها ورأسيّ شغف الأولى والرابعة، كصيصان الدجاج عندما تداهمها ظلمة المساء فتلتصق بإمها بحثا عن الأمان. إستمرت المناوشات لنصف ساعة أو نحوها، قبل أن تتوقف وتتنبه سعاد خانم إلى أنها كانت تجلس في حضني وتدفن رأسها في صدري، فنهضت لتجلس إلى جوار حفيدتها شغف، وعاد إيقاع مروحة سولافة الأزلي إلى أسماعنا، ولتخبرنا من خلف رفرفاتها أن احدى تلك الرصاصات قد إخترقت جبين الولد القديم وهو في صميم صمته المرابط على جذع عزلته السرمدية؛ وأن حيواناته، التي أنستها خيبتها الفلسفية مفاتيح لغاتها الفطرية، قد قررت الموت في لحظتها حزنا عليه، لأنها إنما كانت تواصل حياتها إحتراما لصمت عزلته الميتافيزيقة فقط؛ فعلقت سعاد خانم بنصف وعيها الفلسفي ((هل جاء رعاة البقر ليحققوا نبوءة تداعينا من على كتف الذاكرة؟ أنا فقدت

اليوم ثلاثة من أركان عائلتي))؟ ثم عاد الصمت ليسمعنا رفرفات مروحة سولافة الصينية. في تمام الساعة السادسة صباحا، وكان الأفق الشرقي ما يزال يرزح تحت آخر أشباح الليل، إقتحمت المفرزة التي إعتقلتنا ليأمر ضابطها سعاد خانم بحمل صفيحة الفضلات وتتبعه.. صرخت سعاد خانم مستنكرة، بإنكليزية ونستون تشرشل، دون أمل؛ فطلبت منه أن أتولى أنا الأمر، فواجهني بلطمة من عقب بندقيته ودفعها بيده لتنفذ أمره.. كانت الصفيحة مثقلة بهموم ليلتنا حتى آخر طاقة إحتمالها، ما سفح النصف الأعلى من فيضها على هيبة سعاد خانم حتى منابت كبريائها. حملتها حتى وسط الشارع الترابي الذي يتوسط المقبرة لتضعها على نار من خشب التوابيت المهملة، وناولها أحد جنود المفرزة قطعة خشب بطول ذراع وأمرها الضابط أن تدور محتويات الصفيحة حتى تجف... ولم يكن أمامي غير أن أرقبها من خلف سياج جنود الدورية وأن أكظم غيظ عجزي تحت نظرات عتاب مفرزة عيون النساء التي تحيط بي من الخلف. إستمرت عملية تجفيف مشاعر ليلتنا تلك حتى منتصف النهار، وراح ضحيتها شال حداد رأس سعاد خانم، الذي طوح به ضابط المفرزة إلى نار التوابيت، عندما حاولت التكمم به إتقاء لروائح أعباء مشاعرنا المشوية على نار أحزان الموتى الهادئة. بعد إنتهاء فصل الرحمة الأمريكي ذاك، عادت سعاد خانم مجللة بعار هزيمة، يعجز عن رسم تفاصيلها خيال أعتى الروائيين؛ فإنزوت في زاوية المدفن القصية وإستسلمت لنوبة بكاء خيبتها وعجزها

بصمت، لا يعدل أناقته إلا بكاء الملكات. في الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم، جاءتنا حاملة جنود مصفحة بجثتي غازي وحافظ مع أمر صحي، مكتوب بلغة إستعمارنا الجديد، يوصي بضرورة دفنهما فورا حفاظا على الصحة العامة، فصرخت سعاد خانم بكامل طاقة غضيها، وبإنكليزية إستعمارنا الجديد هذه المرة ((فاك يو أيها الكلاب المسعورة من رئيسكم الصغير إلى أكبر راعي في حظائر عنجهيتكم)) ورسمت له بإصبعها الوسطى تلك الإشارة التي تختصر برمزها مقاصد إنفعالها ذاك وقالت ((هذا فقط من أجل أن تفهموا ما أعني أيها الأوغاد))! ضحك ضابط المفرزة ببلاهة وهو يودعنا بأدب جم، وغادر على عجل بفصيل سياراته المصفحة ليتركنا إلى وحشة المساء وعتمة المقبرة وعبء جثتين تنتظران الدفن وليل أشباح إحتلالنا الجديد، الذي أعلنت رشقة بندقية كلاشنكوف بدايته من على سطح أحد المنازل المحاذية للمقبرة. أمام جثتي ولديها الصامتتين، إنهارت سعاد خانم برائحة الصفيحة المتبخرة ولطخ البراز المتخثرة على فستان حدادها الأنيق، غائبة عن كل ما حولها، بإستثناء وجه جورج بوش وصريف دباباته التي كانت تجوب شوارع بغداد وتحطم أرصفتها بإستعراضات صبيانية لا يماثلها إلا إستعراضات صدام حسين، في ساعات إنتصاراته على العراقيين، بإطلاقه النار من بنادق هزائمه المطلية بالذهب الخالص. تأملت تابوتي فجيعتها بشرود خيبتها وقالت ((لم أعد أفهم أسس هذا الشيء وآليات وأهداف تحركاته وجدوى مقاصده.. ثمة خلل

يسود حركة الأشياء من حولنا... من الحجر الذي قام عليه هذا المدفن إلى عفطات ببغاء عبدالكريم المشاكس! لقد تعبت من إنتظار الأوهام التي لا تصنع إلا المعجزات السيئة... أم أن معجزات الإصلاح كأشباح شغف، لا تستطيع إختراق جدران القصور الرئاسية وبوابات وزارات الدفاع وأقبية المخابرات السرية))؟ كانت في أشد حالات غضبها وكان الاقتراب منها مجازفة حقيقية، فتركتها لشؤون حواراتها الهادرة وإنصرفت لنقل جثتي إبنيها ودفنهما، الذي علقت في نهايته شغف الثانية، بعودة مفاجئة إلى وعي الحاضر، بقولها ((ها هو ممكن دفع أي شخص إلى نهايته دون الحاجة إلى توصية من ذلك العجوز المتعب)). أما سولافة فعلقت بحسها الساخر، من خلف مروحة العرائس الصينية ((لو كنت دفنتهما في حفرة واحدة لوفرت على نفسك نصف جهد إهالة التراب يارجل))، فقلت منتعشا بسخريتها ((ولكن ربما إختلط أمرهما وهما في هذا الضيق))؟ فردت هازئة هذه المرة ((إنهما ساكنان كحجرين.. هل رأيت يوما حجرين متقاتلين بسبب ضيق مكان))؟ صمتنا الإثنين أمام واحدة من نظرات سعاد خانم الحجرية، ومددت يدي إليها لأنهضها من قاع يأسها ذاك. إستغرقت رحلة عودتنا إلى القصر الليل بطوله، لأننا لم نجد سيارة القصر حيث تركناها أمام بوابة المقبرة، ما أجبرنا على العودة مشيا على الأقدام بين صفوف الدبابات والمركبات العسكرية الأمريكية التي زاحمت خطواتنا. عدنا إلى القصر لنجد الولد القديم متيبسا على جذع عزلته

كموملياء فرعونية ترفض الانصياع لقدرها، فأجهشت سعاد خانم بنوبة إنهيار ثانية وقالت لي راجية ((لقد تعبت من كل هذا الموت.. أرجوك تدبر الأمر بعيدا عني))، ومضت إلى داخل القصر تتبعها الشغفات الثلاث.. أما سولافة فقد جاءت بمقعدها المتحرك لتجلس قبالته، وفي موقع جلوسها اليومي المعتاد.. ولأول مرة، منذ عودته، حدثته دون ترويح، وكأنها إستسلمت أخيرا لفكرة أن ما يغتصب بواطنها هو وجع ذاكرة سحيق، لا ثمرة إنفعالات الماما والبابا التاريخية تحت لحاف السرير. ولأول مرة، ومن عمق تاريخ حكمتها، حدثته ((تعرف أنك كنت أكثر حكمة مني لأنك إلتزمت الصمت؛ ببساطة لأن ليس هناك ما يستحق أن يقال ولو في شأن سقوط الشمس على الأرض وإحراقها لكل شيء، ليس لأن الوضع ميؤس منه، وإنما لأن النظر فيه لا يتعدى قيمة البحث عن عطر ذكي في مؤخرة كلبك الهرم))! في اليوم التالي عاد رستم ابن غازي من خدمة الإحتياط التي كان قد سيق إليها خوفا من الإطاحة بأحد أمجاد صدام غير المنظورة..، ولكنه، وفي اليوم التالي لوصوله إلى الوحدة العسكرية التي نسب إليها، وإستكمال حظيرة أمن الوحدة لتقريرها الأمني عنه ورفعه إلى جهاتها العليا، إقتحمت مقر الوحدة أربع سيارات من ذوات الدفع الرباعي، بستة عشر مسلحا من ذوي البدلات الرمادية وأربطة العنق الحمراء، لإعتقاله وشطب إسمه من سجلات قوة وقدر تلك الوحدة، ولينسى في أحدى زنازين الشعبة الخامسة للاستخبارات العسكرية إلى صباح ذلك اليوم الذي إهتدت فيه إحدى

وحدات الجيش الأمريكي إلى ذلك المعتقل وإطلقت سراحه مع باقي المعتقلين معه. عاد رستم بذاكرة مستقبلية تستعجل أقدارا غير منظورة. تخلص من الولد القديم وجثث حيواناته الحزينة بأن حفر لها حفرة كبيرة في مكان معتكفه وألقى بها فوق بعضها، كنفايات متعفنة، وزرع فوقها حوض زهور جديد.. وعندما إستنكرت سعاد خانم فعلته وأخبرته أن ذلك يغضب الرب، أجابها بلهجة سخريته الملحدة ((ومن قال لك أن تلك الحيوانات أكثر نتانة من ذلك الولد المجنون؟ على الأقل هي ماتت حزنا على صديقها دون أن تفكر إن كانت ستذهب إلى جنة أو جحيم ودون أن يفزعها مثل ذلك المصير، لأن كل ما كان يعنيها هو أن تتخذ الموقف الذي يليق بكبريائها)). شغف الأولى كانت أول ضحايا تطرفه الفلسفي، إذ إغتصبها وهي واقفة أمام طاولة زينة غرفة نومها إذ كانت تتأمل عريها وهي في حالة توق مفلسف.. وعلى مائدة عشاء تلك الليلة وبخته جدته مستنكرة دنائة فعلته فأجابها بندم ((من حقك فعلا أن تلوميني يا جدتي لأني أهدرت وصاياي الثمينة في خرقة جافة))! كان الحبس الانفرادي قد أحاله إلى ثور طراد بذاكرة عاجزة عن الالتفات إلى الخلف ولو من أجل تمييز أسماء من حوله. كان قد وصل القصر مع وجبة الغداء، التي إلتهم صحونها كمقبلات وطلب من الخادمتين المتهالكتين في شيخوخة بلا أفق، أن توقظاه من إغفائته ــ التي قضاها تحت سلم الطابق الثاني - عند تقديمهما لوجبة الغداء. كان الحجز الانفرادي في زنزانة لا تسمح له بحركة

أكثر من المتر الذي يفصله عن الصفيحة التي يفرغ فيها مشاعر عشقه لسجانيه، قد زوده ببدانة بقوة حصانين.. حفر قبر الولد القديم وعائلته الصامتة في نصف ساعة فقط.. وبينما كان يلقي بجثث الحيوانات فيها جاءت سولافة لموعد جلستها المسائية مع الولد القديم وجلست في مقعدها على طرف الحفرة وأخذت تحدثه، بجذلها الطفولي، عن خيبتها، لأنها كانت تتوقع أن ملاكين سينزلان في الليل ليرفعا جثة الولد القديم، لعرض مومياءه في احدى زوايا الفردوس كمثال على طهارة الجسد... قاطعها بلهجة إلحاده الشامتة ((وها هو تعفن قبل حيوانته برعونة دجاجة، منعتها عفتها من إستخدام مؤخرتها لغير طرح فضلاتها فخنقها بيضها المكدس في قناة أشواقها العفيفة))! سحبها من زيق فستان حصار جسدها الثقيل، فقوقأت كدجاجة إبتل ريشها فجأة ((إنتبه أنا لا أرتدي تحت فستاني شيئا وجدتي ستغضب مني إن كشفت حرارتي لتيارات الهواء البارد))! ولكنه، وبضربة واحدة سلخ الفستان عن جسدها ففاجأته بدائية أشياءها التي خنق فصاحتها الإهمال، فأعاد قذفها إلى مقعدها وبصق تحت قدميه ((كيف لا يموت هذا البيت وهو ليس فيه أنثى تجيد صناعة الأحلام))؟ فردت عليه وهي ترتجف من الخوف ((أعد إليّ فستاني أرجوك قبل أن تشي بي الخادمات وتغضب جدتي مني، لأنها لا تطيق أن تراني أتخلص من حرارتي))! فسألها بخبث إلحاده ((ولم لا تطيق ذلك))؟ فأجابت ببداهة براءتها ((تقول انه وضع مخجل)) فسألها بنفس الخبث ((وهل يخجلك عريك))؟

فأجابت بنفس البداهة ((أبدا، لأنه يخلصني من حرارتي ولا يؤذيني بشيء.. هل يؤذيك عريك بشيء))؟ فهز رأسه نافيا وهو يضحك بشماتة، فسألته مستاءة من فرصة تضييعه لفرصة رفاهه ((فلم تثقل نفسك بكل هذه الملابس إذن))؟ فرد وهو يتقمص وجه براءتها ((كي لا أغضب جدتي أنا الآخر))! فردت بإنتصار هذه المرة ((إذن لست الوحيدة التي تخاف جدتي في هذا البيت))! وإرتدت فستانها المعتم ومضت إلى داخل القصر. كان مشغولا بتعديل ظهر الحفرة، من أجل مساواتها بالأرض وإخفاء معالمها، عندما توقفت شغف الرابعة خلفه لترقبه ولتسأله بتحد عما فعله بالجثث، فرد وهو يعري إنفلات جسدها بعينيه ((سمدت بها هذه الأرض الجائعة كجوع ساقيك يا طفلتي المسكينة)).. فرمقته بنظرة إحتقار وقالت ((يالصفاقتك أيها المتوحش))... وبصقت في وجهه! كانت الإهانة أكبر من أن يحتملها عرقه الارستقراطي فصفعها بكفه الثقيلة ليسقطها تحت قدميه والدم يسيل من فمها، فنهضت لتغرز أظافرها في عنقه... فعاجلها بصفعة ثانية وثالثة إلى أن إرتمت تحت قدميه وهي تعوي كذئبة مكلومة... ثم هوى فوقها ليمزق فستانها وهو يسمعها أقذر ما توسلتني إسماعها إياه من صفات ما وراء حصار قوانين الآداب العامة. عندما قام عنها، كانت هامدة ومستسلمة كبقرة كسر ثور شرس ثورة عنادها، فحملها على كتفه (كما حمل والده، ذات يوم من ذاكرة سعاد خانم القديمة، الخادمة ذات الاصول الروسية على كتف بطولته) ودخل بها القصر من باب الخدم.. كانت سعاد خانم قد فرغت

لتوها من جولة ما قبل النوم على مرافق القصر وغرفة إعتكاف إبنتها شغف وغرفة حصار حفيدتها سولافة، فشهقت مذعورة وهي تواجه عري حفيدتها شغف الدامي، فصرخت برستم ((ماذا تفعل أيها الزنديق؟ إنها ابنة عمتك سؤدد لا خادمة يا ابن غازي))؟ فقال بلهجة المستبشر وهو يرتقي السلم بها بإتجاه غرفة نومه ((وأنا أتساءل من أين جاءت هذه المرأة بكل هذا الشوق الربيعي؟ هي من حصاد أقدارك إذن يا جدتي الطيبة))! ومنذ تلك الليلة، صار عواء الإثنين وصوت إنكسار شغف الرابعة، في نهاية السهرة، أحد طقوس القصر اليومية وأحد مصادر عصبية سعاد خانم التي تلقتها كل من الخادمة ذات الاصول الروسية وسولافة بالتساوي. في فجر تلك الليلة، إستيقظ جميع من في القصر، بأستثناء رستم وشغف الرابعة، على صوت حفيف أبيض، كان يلملم أصقاع شرود خامد من زوايا القصر..، وفي رواحه ومجيئه، أوقف أحلام جميع النائمين على صورة نجم أخضر ظلل سماء شرفة غرفة نوم شغف الثانية من دون سواها من غرف وصالات القصر.. كنت آخر الواصلين إلى حديقة القصر الأمامية، حيث تجمعت نساء القصر، بإستثناء شغف الثانية الغارقة في بحيرة شرودها الملائكي، وشغف الرابعة ورستم الغارقين في نتائج حرب ليلتهما الباهظة. كانت أنظار الجميع معلقة في وجه ذلك النجم الذي علق خيوطه على شرفة غرفة نوم شغف. فجأة تنبهت سولافة إلى صوت قديم فقالت من خلف مروحتها الصينية، وبلامبالاتها الحجرية ((إنه صوت سقوط ذاكرة العمة

شغف.. الآن تعبت من تكرار أيامها وتشابهها وقررت العودة)).. انسحبت خيوط النجم وغاب هو أمام أعيننا فإرتعدت سعاد خانم وتمتمت ((ماذا تعنين أيتها القردة الصغيرة))؟ وجدنا شغف تتكئ على حافة النافذة المطلة على الشرفة، ولكن بأجفان مسدلة هذه المرة. إقتربت منها لأحملها إلى سريرها فصرخت بي سعاد خانم ((كلا! لن تمس طهارتها أيها العبد الآبق)). حملتها هي وعشيقتها إلى سريرها وبسطتاها كدمية حلوى.. لم يكن يبدو عليها غير ظل إبتسامة الموناليزا، الذي لم يفارق وجهها من يوم تعايشها مع فاجعة العامل الانكليزي.. كانت دافئة ونضرة، ولم يكن يعوزها غير باقة الزهور بين يديها لتبدو كعروس تتهيأ لموكب عرسها. كانت قد مضت علينا أشهر لم نفتح خلالها بوابة القصر أو يغادره أحد؛ ولهذا واجهتني رشقة رصاص عنيفة عندما فتحت بوابة القصر ووضعت رجلي اليمنى على عتبته وأنا أهم بالخروج إلى صباح بغداد التالي لفجر رحيل شغف الثانية.. علا صراخ الجنود الأمريكان، وهم يزحفون بإتجاه البوابة، تسبقهم فوهات بنادقهم.. كنت أنتظرهم ووجهي إلى البوابة، إلا أن ضربة أخمص بندقية جاءتني من الخلف لتطرحني أرضا وليركب أحد الجنود ظهري ليوثق يدي بشريط بلاستيكي ثم ليعيد إنهاضي لآقف أمام ضابط مفرزته، كتمثال شمع لم يكتمل إنشاءه. كان رأسي ما يزال يدور من ألم الضربة، عندما تقدم الضابط ليسألني عن سبب خروجي في يوم حظر تجوال مفروض على الحي من ثلاثة أيام.. صدمتني فكرة غيابنا عما حولنا

إلى الحد الذي لم نسمع فيه بأمر حظر التجول.. قلت للضابط وأنا أتصنع رهبة الموت على وجهي ((لدينا امرأة ماتت قبل قليل)).. فسألني عن سبب عدم إستخدامي للهاتف الجوال في طلب سيارة إسعاف أو قوة الطوارئ لمساعدتي في الأمر... وكانت صدمة ثانية بعمق عزلتنا، أن يكون الهاتف الجوال قد دخلت خدمته للبلاد دون أن نسمع بها.. ساقني جنديان أمامهما فيما سبقنا البقية إلى داخل القصر لتفتيشه وتأمينه.. قبل دخولنا عاد جنديان يقتادان رستم وهو بملابسه الداخلية.. ألقونا في الصالة تحت حراسة أربعة جنود وذهب الضابط لمعاينة جثة شغف؛ ولأنه وجدها دافئة ونضرة رفض تصديق إدعائنا بموتها، فإتصل بمراجعه ليستعين بمفرزة طبية للكشف عليها والتأكد من أمر موتها. بعد ساعة واحدة وصلت المفرزة الصحية ليقرر طبيبها نقل الجثة إلى المستشفى الميداني في مطار بغداد الدولي من أجل تشريحها، لأنه لم يجد أي إشارة لخلل عضوي يسبب الموت فيها فقرر تشريحها لأنه رجح وجود سبب خارق للمألوف لموتها، فوقفت سعاد خانم بينه وبين الجثة لتقول بحزمها الطبقي ((ماذا تتوقع أن يكون هذا السبب الخارق أيها الأخرق؟ هل تتوقع أن تكون الجن قد قتلتها مثلا؟ إسمع أيها الأبله، لن أسمح لوغد مثلك أن يدس أنفه القذر في أمر شؤوننا مع الله))! إرتعب الطبيب الشاب وعاد خطوة إلى الوراء وهو يطلب من المترجم المرافق للمفرزة أن يشرح لها إنه يعمل ذلك لمصلحتها، لأن شغف ربما تكون في غيبوبة فقط.. إلا أن سعاد خانم صرخت في

وجهه بإنكليزيتها الاستعمارية ((إسمع أيها الأبله، لن أسمح لك بالتحاذق معي لأنك مهما بلغت معارفك الطبية لن تتمكن من فك أسرار موتنا، لأن موتنا ، وببساطة لن يفهمها واحد مثلك:لأنه أسرار إلهية صرف))! وهنا أخذت جثة شغف بالإرتفاع بهدوء عن السرير، ودون أن يتهدل ذيل فستان حدادها الأبيض، الذي لم يبل أو تبدله منذ يوم شنق العامل الانكليزي نفسه حزنا على اتهامها له بالعمالة لصالح مخابرات بلاده. وبهدوء تام، ووسط دهشة الجنود وضابط مفرزتهم العتيد، ورعب طبيب المفرزة الطبية ومساعديه الخضر، واصلت جثة شغف أرتفاعها المتوازن لتذوب في سقف الغرفة القرميدي وتختفي إلى الأبد. رسم أفراد المفرزتين إشارة الصليب على صدورهم وهم يخرون على ركبهم، فصرخت بهم سعاد خانم شامتة في لحظة رعبهم تلك ((أرأيتم أيها البلهاء معجزات موتنا الالهي))! إنسل الجميع إلى خارج الغرفة وهبطوا إلى صالة الجلوس دون أن يتخلوا عن قيادي وقياد عري رستم، فسألتهم سعاد خانم عن سبب إقتيادنا، فأجابها ضابط المفرزة ((عذرا مدام، جئت هنا للبحث عن معجزات بشرية لا عن المعجزات الإلهية))! طارت شغف إلى حيث أجهل لتترك في نفسي تلك الغصة التي تشعرني بكل الغبن والحسرة التي لا يشعر بها غيري، ربما، لفقدان عزيز.. بالضبط كنت مغبونا بفقدها وبلا سقف، وهدر حقي وأستحق تعويضا... هل كان تعويض أي امرأة جميلة سيكفيني شعور فقد شغف الثانية؟ لا أظن.. لا لأني لم أفكر فيها كموضوع جنسي، بل لأنها

كانت فعلا أكبر من هذا... لكن أيضا لأنها كانت امرأة جميلة.

*** قضينا سبعة وعشرين يوما في معتقل مطار بغداد الدولي دون أمر قضائي ودون أن توجه إلينا أي تهمة مؤكدة.. كنا خلالها ملهاة جنسية لسجانينا ومن حققوا معنا . ففي غبش فجر كل يوم كان ينادى علينا لنمثل عرايا أمام سجانينا ، بحجة إحصائنا وتفتيشنا ، وخلال ذلك العرض المقرف كانت الأيدي تمتد إلى أعضائنا بحقد أحيانا وبمداعبة أحيانا أخرى ..... كما كانت الأصابع تدمي ما بين إليتي كل منا .... بحثا عن ماذا ؟ هذا ما لم يعرفه أي منا . أما فترات ما بعد الفطور فكانت مخصصة للعرض على نفس المحققين ولسماع الأسئلة عينها ((أنت متهم بالإرهاب أو متعاون مع إرهابيين (تصوروا الغازي المحتل يتهم أصحاب الأرض بالإرهاب!) ومن مصلحتك أن تعترف لنساعدك على إطلاق سراحك)) والى أخر هذا اللغو الذي كان يمتد لساعتين كاملتين . أما فترة ما بعد الغذاء فكانت مخصصة للتعذيب ، ونحن عرايا طبعا (حتى أني أخذت بالتساؤل عن سر ولع هذا الجيش بالعري، وإذا ماكان رجاله يعانون من عقدة نقص تجاه منظر الرجولة) ؟

كنا نصفّ في طابور أمام معذبينا ونحن معصوبي الأعين لنتلقى صنوفا من اللطمات واللكمات والركل على أعضائنا

الحساسة، لما يزيد على ساعة..... ثم نؤمر بالدوران لتبدأ مرحلة دس الأصابع والأجسام الصلبة في مؤخراتنا، بحثا عن سر أسرار الرئيس جورج دبليو بوش! في يومي الاعتقال الأخيرين توقفوا عن تعذيبنا، وإستبدلوا المحققين بامرأة جميلة برتبة ميجر ، قدمت لي نفسها على إنها باحثة اجتماعية من هيئة قضائية .... سألتني إن كنت تعرضت للتعذيب فأجبتها أن نعم وسألتها إن كانت سترفع لي قضية رفع حيف ورد إعتبار في هذا الصدد، فردت أنها بصدد إعداد تقرير حول الأمر للحكومة والكونكرس الأمريكيين ، فرفعت لها أصبعي وقلت بطريقتهم غير الحضارية ((فاك يو)) ، وزدت ((وانقليها لسيادة رئيس دولتك الأبله وأعضاء كونكرسكم غير المحترمين))! ثم سألتني إن كنت تعرضت للاغتصاب فأجبت أن نعم ، وتبعتها بسؤالي السابق فيما إذا كانت سترفع لي قضية حول الأمر فردت إنها ستدرج الأمر في التقرير ..... فقاطعتها ((فاك يو)) مدعومة بإصبعي الوسطى وأيضا طلبت منها أن تنقلها لرئيس بلدها وأعضاء كونكرسها ، وزدت عليها هذه المرة كوندليزا رايس، فقالت بصبر مفتعل ((هل يصح أن تقول هذا معي وأنا هنا لمساعدتك))؟ فقلت ((لم لا تقبليها مني وهي جزء أساسي من ثقافة حياتكم اليومية؟ من أين عرفتها أنا عنكم ؟ عن طريق أفلام هوليود السينمائية طبعا، لأني لم أزر بلدكم من قبل،،،،،، فلم ممكن ان تقبليها من أي من مواطنيك ولا تقبليها مني؟ بالتأكيد لأنك تنظرين إليّ نظرة دونية لا أستحق معها إن أكلمك بندية.... أليس

كذلك))؟ فقالت محرجة ((بل فقط لأنها غير لائقة ...)) فقلت ((بالتأكيد إن مستواها السوقي لا يليق بي إستخدامه ، ولكن قولي لي : كيف لي أن أعبر لك عن إستيائي بغير اللغة التي تمثل ثقافتك الحقيقية والتي تفهمينها بيسر))؟

وهنا نهضت وقلت ((يكفي هذا.. أنا أنهي هذه المقابلة)) فردت بخبث رجل أمن مداهن ((لماذا هل تعبت من الجلوس مثلا ....))؟ فقلت بحزم ((بل لأنه لا يشرفني أن أجلس مع كذابة ومرائية مثلك لأسمع المزيد من أكاذيب حكومتك وجهاز مخابراتكم القذرّ)).. ثم فتحت فمها لتتكلم فرفعت لها إصبعي الوسطى من جديد قبل أن أضع سبابتيّ في أذنيّ، فصمتت فأنزلت إصبعي فقالت ((حسنا ، مادمت غير راغب في سماع المزيد من أسئلتي فيمكنك الإنصراف)) فخرجت على الفور لأعود إلى الزنزانة التي كانت تستضيفني مع رستم . في صباح اليوم التالي، وكان يوم جمعة آخر ويوم حظر تجوال أخر ، أطلق سراحي وسراح رستم وقامت إحدى سيارات الهمر بإلقائنا في شارع مهجور، ربما يزيد على مسافة ثلاث ساعات، من المشي على القدمين، عن القصر؛ وقد زودونا بقصاصة تسمح لنا بالمرور من معابر دورياتهم . في القصر وجدنا الخادمتين قد ماتتا في لحظة واحدة، مدحورتان بقنوط اقدارهما وتكرار أيامهما الذي لم يتغير منذ أيام إنجاب الخادمة ذات الأصول اليونانية لابنتها من حافظ ونسيان حافظ لها في زحمة لهاث أيامه . كل ما استطاعته سعاد

خانم حيالهما هو أنها ربطتهما من رسغيهما بحبال طويلة، تمكنها وشغف الأولى من سحبهما إلى الحديقة الخلفية وإغلاق باب المطبخ الخلفي ، الذي لم تعد من حاجة لاستخدامه بموتهما، تجنبا لنتانة جثتيهما . وبما انه كان يوم حظر تجوال أخر فقد حفرنا لهما حفرة تسعهما إلى يمين حفرة الولد القديم وحيواناته الحزينة، ودفناهما من دون أي من طقوس الموت، ومن دون الالتفات لأي من انتماءاتهما الدينية ، لا لإعتبارات طبقية، بل فقط لأننا ألفنا الموت إلى الحد الذي ذوب إعتباراته وأحال طقوسه إلى مجرد عبء وضحك على النفس . بعد منتصف تلك الليلة ، صحونا على صوت حفيف ليلة موت شغف الثانية .... وقبل ان أهتدي في ظلام حرب الاحتلال إلى ملابسي ونعليّ ، طرقت سعاد خانم باب جحري، الذي نزعته من ذاكرة شبقها من ليلة موت شغف الثالثة لتقول ((إلحق ثمة من سيموت مرة أخرى)).. فتشت كل زوايا السماء وصمت القصر ووجع أشجار حديقته فلم أجد غير صوت صريف عظام وهمهمات أرواح هائمة، وحفيف ثوب شغف الثالثة وهي تلملم أحزان رعيل أشباحها من ظلال ظلام غرف القصر المهجورة. قلت لسعاد خانم إنه ليس نذير موت هذه المرة، بسبب ألفة ممرات حياتنا لإنتهاكات أقداره العشوائية.. فسألتني ((ماذا يكون إذن ؟ نذير حياة))؟ ولأني لم أكن أملك إجابة واصلت بحثي في الغرف حتى وصلت غرفة سولافة ، فوجدتها مضاءة، رغم إنقطاع التيار الكهربائي؛ وكان صوت ذلك الحفيف الحذر يغطيها كغيمة ماطرة؛ وكعادتها

كانت ترفل بعريها البدائي المقدس تملأ قصاصاتها بحروف مقطعة وشعر عانتها المسدل يغطي حضور أنوثتها ويزيده عتمة.. سألتها سعاد خانم عما تفعل فأجابت دون أن ترفع رأسها لتشخص حضورنا ((أرتب رفوف ذاكرتي)) فسألتها سعاد خانم بوجلها الأنثوي ((هل آنت مسافرة))؟ فقالت بهدوئها القرميدي ((ليتني أستطيع ألآن، ولكن مازالت أمامي حشوة ذاكرتي هذه؛ كما إن عليّ أن أجد جلدا لموتي يا جدتي)). ذكرني لون بشرتها المغبش بببيون الرقيقة وباشراقتها البحرية الوارفة، والتي أنسانا حجم الموت الذي عصف بنا حالة موتها المعلق في حفرة قبر المقبرة المنسية على أطراف بغداد الشرقية، فقلت هامسا كالمنوم مغناطيسيا ((غدا تعود بابيون الرقيقة))، فسألتني سعاد بجفل من أوقظ من نوم عميق ((هل تعني أنها ستعود للحياة وتوقظ حجرة ذاكرتها من جديد))؟ فقلت ((الحقيقة اني لا أرى إلا وقع خطوها العابر كذيل غيمة ماطرةّ)). لم تنتبه سولافة لثرثرتنا التي أحاطت بصمتها طوال ذلك الوقت، لأنها كانت مستغرقة تماما بحشو قصاصات ذاكرتها. عندما إنسللنا خارجين من غرفة سولافة عاد صوت ذلك الحفيف ليداهمنا كذلك الضغط الذي يطبق على الآذان لحظة إقلاع الطائرات. وبعودتنا إلى صالة الجلوس، سألتني سعاد خانم إن كنت راغبا بفنجان قهوة ، فهززت راسي نافيا وخرجت إلى ظلام الحرب الذي أحال حديقة القصر الخلفية إلى مقبرة حقيقية ، لا بسبب القبرين الجماعيين اللذين يغطيان مساحة الظلام المحيطة بجحري المقصي عن وجه الذاكرة، وهيمنة صرير

عظامهما على هوية المكان، إنما بسبب ذوبان رعشة الانتظار من دواخلنا فقط. في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي طوقت كتيبة من قوات المارينز جميع زوايا ذاكرة القصر.. وبعد أن أمن فصيل منها حالة مرافقه الأمنية ، دخل ستة جنود بزي جنائزي يحملون نعش بابيون الرقيقة، الذي كشف لوح غطائه الزجاجي عن بهجة لون وجهها البحري وعن شتاء عينيها المطريتين. أما الضابط الذي كان يرأس ذلك المهرجان الأمني، فكان يعيش حالة ذهول فلسفي تختلف كثيرا عن حالة الرعب التي يعيشها الجنود الأمريكان عند إقتحامهم لبيوت بغداد، فسألته سعاد خانم عن كيفية اهتدائه إلى انتمائها وهي لم تكن تحمل، عند إعتقالها من أوراقها الثبوتية غير سروالها الداخلي وبدلة العمل التي أهداها إياها السائق ذو هالة الصبر، فأجاب الضابط بإيمان سقراطي مشرق ((ماهدانا إلى القصر هو هالة البحر التي تحيط بوجهها ورائحة المطر التي تنضح من كيانها يا سيدتي)). غصت سعاد خانم بعبرة فقدها وانهارت إلى جوار النعش لتجهش ببكائها الأنيق .... وكانت المرة الأولى التي تذرف فيها دموع فقد بهذا العمق.. بل إن سولافة الذاهلة عن عالم الموجودات ذاتها، تركت قصاصات ذاكرتها وإرتدت ثوب حشمتها القهري ونزلت إلى صالة الجلوس دون إشعار من أحد لتقف بصمت أمام ذلك الجلال المطري المهيب، لتقول بشرود يشبه شرود شغف الثانية ((هذه إحدى فراشات الرب! اليوم فقط آمنت أن لهذا الكون رب جميل))! ثم تقدمت من جدتها بهدوء لتقول

((أرجوك يا حدتي دعيني أهديها مروحتي التي تشبه ألوان أحلامها)).. ووسط ذهول جنود كتيبة المارينز تحركت المروحة من تحت كومة قصاصات ذاكرتها، التي تتوسط سرير غرفة نومها، واجتازت موزع غرف الطابق العلوي للقصر باتجاه السلم لتنزل إلى صالة الجلوس ولتقف معلقة في الهواء أمام النعش بانتظار إذن سعادة خانم ... سقطت بندقية آمر الكتيبة من بين يديه، وجثا على ركبتيه ليرسم إشارة الصليب على صدره وهو يرطن صلاة بعامية أهالي نيويورك لم نفهم منها غير كلمة خاتمتها ((آمين)).. وعندما أومأت سعاد خانم برأسها، موافقة على طلب سولافة، تحركت المروحة إلى يد سولافة لتمسك بها وإرتفع غطاء النعش عند اللوح الزجاجي تلقائيا لتغمر رائحة المطر كل أرجاء القصر؛ وبنفس التلقائية تحركت يد سولافة بالمروحة إلى كف بابيون اليمنى لتقبض عليها ولتضمها إلى صدرها، وظل إبتسامة شكر يغمر كامل وجهها المشرق بلونه البحري الناصع. كان يوم جمعة آخر، وكان يوم حظر تجوال أخر من أيام إغتصاب زمن بغداد ... وأنوثة الوردة فيها ... وإذ هم الجنود بحمل النعش إلى المقبرة صرخت بهم سعاد خانم بحرقة الفقد ((كلا! لن يمس براءة بابيون أحد منكم))، ثم إلتفتت إلى الضابط وأمرته بلغتها الاستعمارية ((أمن لنا الطريق إلى المقبرة فقط وسنتكفل نحن بإيصال موتنا إلى مثوى خيبته التي صنعها الجمهوريين بدناءتهم)). أوصلتنا الكتيبة المسلحة إلى المقبرة وأعطتنا تصريح الدفن، (الذي لم يعرفه العراق يوما

على طول تعامله الغزير مع الموت)، وإنسحبت إلى جهة ما من أوجاع بغداد. أما كيف إهتدى الجنود الأمريكان إلى مدفن بابيون الذي قررته مخابرات الجمهوريين لمداراة فضيحة إغتصابها، فكان عن طريق أحد النداءات التي تلقاها أحد جنود الحراسة من بابيون، بعد إحالة القوات الأمريكية أرض المقبرة الدارسة إلى ثكنة عسكرية.. ((كنت أول المارين بمكان قبرها، روى ذلك الجندي لسعاد خانم بلغة ولهه الكنسية، فلفحتني رائحة المطر المنبعثة من حفرة قبرها.. ثم نبهتني بإشارة، كالإشارة المقدسة التي تهدي الرهبان الأنقياء إلى مواضع قداسة الأرض التي تقام عليها بيوت الرب إلى وجودها، فأزحت التراب لتطالعني بإشراقتها البحرية وكأنها دفنت قبل ساعة واحدة فقط..)) وهنا توقف ليلتقط أنفاس ذهوله وليرسم إشارة الصليب على صدره المدجج بجعب الذخيرة، قبل أن يقول.. ((تصوري يا سيدتي إن جثتها قد إرتفعت لوحدها من باطن الحفرة لتستلقي على الأرض وكأن أشباحا غير مرئية ترفعها؟ ظننت أنها فاقدة لوعيها فقط... هل حقا كانت ميتة؟)) كان يلهث من أجل اللحاق بأنفاسه وهو يروي كيف أن طهارة روحها كانت تهديهم لكل تفاصيل عنوان القصر وإسم العائلة عبر رائحة المطر.. رفض تصديق إدعاء سعاد خانم أنها ماتت منذ ما قبل حقبة صمت المطر وأصر على إنه لن يكذب عينيه في ((أنها كانت قد هبطت لتوها من علياء مجد خانها لتوه كما خان قدر مجد أبناء الرب وعلق مخلصهم على صليب خطاياهم ليطهر أرواحنا))! توقف

للحظة ليرقب ذهول سعاد خانم قبل أن يختم سيل إستغراقه ذاك ((لو كنت لحقت بتجلي هذه القديسة يا سيدتي لكنت أحد رهبان بركتها... ولكني أرجوك أن تسمحي لي أن ألتحق بمجد رعاية مجدها بعد أن تنتهي الحرب)). لم تكن تنظر إليه وهي تستمع إليه، بل كانت مستغرقة في مراقبة نظارة وجه بابيون الذي لم يظهر أثر للموت فيه فقالت متسائلة كأنها تحدث نفسها ((وهل ستنتهي الحرب يوما...))؟ إلا أنه تمسك بكفها راجيا متوسلا فنظرت إلي آمرة أن أبعده عنها وإنسحبت مبتعدة إلى الجهة الثانية من القبر وهي تشير إليه بكفها أن لا يلحق بها، وليس في عينيها غير نفاد الصبر. وبعد فراغنا من دفن نعش بابيون الرقيقة، خرجنا إلى ظهيرة خامدة لم تألفها سماء بغداد من قبل ... طوقتنا أربع سيارات من ذوات الدفع الرباعي التي تنتجها مصانع سيارات الاستعمار الجديد، وأطلق رجال زرق من أحواضها الخلفية رشقات سخية من بنادقهم فوق رؤوسنا، وهم يأمرونا بالتوقف في أماكننا ووضع أيدينا خلف رقابنا. إمتثلنا جميعا للأمر، باستثناء سعاد خانم التي حافظت على وقارها الطبقي وتقدمت من الرجل الأزرق القريب منها لتتمثل اللطخة السوداء التي تغطي ذراعه الأيمن ، والتي نقش عليها حرفا (آي بي) باللغة الانكليزية ، وسألته ((لأي شيء يرمز هذان الحرفان يا ولد))؟ فأجاب بإعتداد ((الشرطة العراقية)).. فسألته ((ونقشها الاستعمار على أذرعكم بلغته ليتعرف عليكم لا لنتعرف نحن عليكم))؟ هنا ترجل ضابط المقززة من سيارته وصرخ بنا عن سبب

خروجنا في يوم حظر تجوال، فأوضحت له إنا دفنا أحد موتانا وأن كتيبة من القوات الأمريكية هي التي أوصلتنا إلى المقبرة ... فقاطعني متهكما ((كتيبة أمريكية التي أوصلتكم إلى المقبرة ؟ لماذا ؟ من تكونون لتوصلكم كتيبة أمريكية، عائلة رئيس مجلس الحكم أم عائلة أحد الوزراء))؟ فقلت وأنا أبسط أمامه تصريح دفن المستشفى الأمريكي ((لاهذا ولا ذاك، وكل الأمر لم يكن خيارنا ولا رغبتنا)).. تأمل الضابط تصريح الدفن لبرهة ، ورغم إنه لم يفك شيئا من طلاسم لغته الغريبة عليه، إلا انه هز رأسه علامة الفهم وأومأ لنا ((إصعدوا في حوض السيارة لنوصلكم)). كان صمت الخراب يسود أجواء القصر كما يسود كل ما في بغداد: أرضا وسماء وآمالا وأحلاما .... كل شيء كان خامدا وصامتا، باستثناء صرير عظام الموتى ووشوشات الأرواح وحفيف فستان شغف الثانية، الذي لا يبلى، وتيه أشباح شغف الثالثة الحائرة . كنا قد ألفنا وقع الموتى إلى الحد الذي نسينا معه وجعه ... وسرعان ما عاد كل إلى عادات وحدته وحوض صمته.. فعلى أول درجات سلم الطابق العلوي ، تخففت سولافة من قماط حصار حرارتها، بإلقاء الكنزات والسراويل المعتمة، لتصل إلى غرفتها بنصاعة جلدها البحري لتواصل كتابة قصاصات ذاكرتها بحروفها العصية على الترابط .. وتبعت شغف الرابعة رستم إلى غرفته وسط إستنكار نظرات جدتهما فصرخت بهما، وهي تستعد لدخول غرفتها ((إسمعا أيها الغبيان ، سأزوجكما حال رفع حظر التجوال عن وجه

بغداد.... من يدري..... فربما تعود بركة الله إلى هذا البيت على يديكما))! ثم إنحنت برشاقة فتاة في العشرين لتحمل حقيبة يدها وشال حدادها الأسود ولتسير باتجاه غرفتها بأناقة أميرة بريطانية تامة الصفات، ولتتركنا أنا وعشيقتها شغف، منزويين في مقاعدنا كمسافرين في محطة نسيهما قطار رجائها منذ زمن طويل.. كانت في الستين أو أكثر قليلا دون أن يخذلها شبابها .... هل خلل هرموناتها وحده الذي يقف وراء ربطها كيانها بحياة هذه العائلة أو حياة سعاد خانم على وجه التحديد؟ لماذا هي قليلة الكلام إلى حد نسيان وجودها من حولنا؟ ما نوع الحب الذي ربطها بغازي، ومحاولة الاتصال الوحيدة بينهما، والتي لم يتعد معناها بالنسبة لها ـ حدود معنى اغتصاب رستم لها وهي واقفة أمام مرآة توقها ؟ هل مازالت تذكر غازي ؟ ما الذي يذكرها به على وجه التحديد؟ ما الذي نذرت حياتها من اجله وماذا انتظرت وما الذي مازالت تنتظره على بوابات الحياة السبع؟ فجأة نهضت بزيها الذي لم يتغير منه يوما غير ألوانه وخامة قماشه ، بما يناسب طبيعة المناخ صيفا وشتاء: تنورة طويلة تصل إلى الكعبين وكنزة صوفية في الشتاء ، وتي شيرت طويل مترهل بنصف كم لحرارة الصيف .. أما الموضة وآخر صرخات بيوتها العالمية فلم تلفت نظرها يوما على الإطلاق .. نهضت لتقترب مني بابتسامتها الهادئة ((هل تذكر بار حافظ القديم))؟ أومأت براسي أن نعم، فقالت ((ما رأيك أن نجرب زجاجة من بقايا أمجاده الغابرة))؟ قلت في داخلي بلؤم أفعى ((ربما هي

فرصة لأسمع منها إجابات لتساؤلاتي)).. كان ظلام المساء قد بدأ بالزحف على عتمة أمجاد القصر وزوايا ذاكرته.. كانت آخر انجازات الخادمتين، قبل موتهما الأبله، نقل البار إلى عتمة مخزن المطبخ؛ وبما أن قطع التيار الكهربائي كان من بين أهم أهداف حرب الاحتلال غير المعلنة منذ فجر٢٠٠٣/٤/٩، بسبب عطل أصاب ذاكرة محطات التوليد، كما تقول تصريحات المسؤولين، وبقرار سياسي مجهول الهوية والإهداف،

كما يقول العراقيون، أوقدت شمعة معطرة برائحة البنفسج وسرت أمامها لأطرد من طريقها أشباح الظلام المعششة في زوايا المخزن وعلى رفوف البار.

أخيرا وصلنا الزاوية الأشد إهمالا وعتمة في المخزن ليطالعنا وجه الخادمة ذات الأصول اليونانية.. كانت تبكي ابنتها سعاد وتبديد ربكة حياة القصر لفورة أحلامها .. مرت بنا دون أن تحس بوجودنا.. خطواتها تتبع وقع ذاكرتها التي تهديها في ظلام الحروب، الذي حجب تصاريف النجوم عن واقع أقدارها، وتركها معلقة على حبل أمزجة الساسة وارتجالات أهوائهم.. سألتها شغف عن وجهتها فقالت أنها تبحث عن شغف الثالثة لتحمي سعاد من إيقاع غريزة الفراشات، الذي ورثته عن جدتها سعاد خانم، والذي يدعوها للعودة إلى حلم الواقع. أخيرا إهتدينا إلى البار الذي غار في عتمة تداعي الحياة من حوله ، فخطفت شغف أول زجاجة نبيذ بروجوندي صادفتها وقالت، وهي ترتجف ((هيا

لنعود لان البرد هنا لا يذكر إلا بتفاهة أصقاع الجحيم)).
عدنا إلى المطبخ فأوقدت المزيد من الشموع المعطرة، فقالت شغف متهكمة ((للمرة الأولى يخدمنا ظلام الساسة، حيث إنه سيجعل ليلتنا ليلة حالمة رغم أنوفنا))، وأطلقت ضحكة برنة أنثوية لم تألفها أذني فيها، فقلت وأنا أرفع كأسي ((لنشرب نخب ضحكتك الجميلة هذه)) فقالت مازحة بسحر الفتنة الأنثوية التي غابت عن القصر منذ إنقلاب العسكر ((أوه! وهل تستحق هي مثل هذا التكريم يارجل))، وغرقت في ضحكة عذبة أخرى، حرصت أن تشربها أذني حتى آخرهاء فيها. بعد الكأس الثالثة إنبسطت أساريرنا أكثر بسبب الدفء الذي بعثه فينا الشراب، والذي عوضنا عن دفء المدافئ الصناعية الذي سلبنا إياه إنقطاع التيار الكهربائي وغياب مشتقات النفط عن محطات تعبئة الوقود..... وتحت نشوة الشراب حدثتني عن صنوف أوجاعها البيضاء التي تقوم على رؤية سياسية صارمة مفادها إن ما أوصل العراق إلى حالة التحطيم الذاتي هو حالة النرجسية ـ التي تصل حدود عبادة الذات ـ التي يعيشها رجل السياسة العراقي، والتي تقوم على قناعة كل رجل منا بأنه المسيح الأوحد بين جوقة مدعي الإلوهية من الدجالين... وان هو الوحيد الذي يقبض على عصا المعجزات، التي تتصل فعلا بقابس الرحمة الإلهية التي ستنتشل العراق من زمن ترديه وفساد سياسيه إلى جنة الرخاء والعدل والمساواة، التي وقف نوري السعيد حائلا في طريق الوصول إليها طوال السبع والثلاثين سنة التي

سبقت وصول أول هؤلاء الافذاذ إلى كرسي الإنقاذ الموعود، صبيحة يوم انقلاب تموزّ١٩٥٨ وقالت تشرح لي رؤيتها تلك، وهي تحتضن كأسها بكلتا كفيها النضرين ((إن لم يكن عبدالكريم قاسم أول من إستبدل مشروع الثقافة الوطنية، الذي أسس له مشروع الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ بثقافة المال السهل، فهو الذي شرعن طريق وصول من أسس لها ممن تبعوعه في سياسة الانقلابات الدموية، بانقلابه الدموي عام ١٩٥٨ عبد الكريم قاسم كان يعيش حالة شاذة، كحالة ميولي الجنسية الشاذة في نزاهته المالية، باكتفائه بهيبة البزة العسكرية التي كانت تلبسه، والتي لم يكن يرى لنفسه ذاتا ولا قيمة خارج حدود قيافتها.. ياصديقي هو قضى سنوات حكمه عبد نجوم بزته ولمعان أزرارها، ومن مقر وزارة الدفاع، التي إتخذ منها مقرا لحكمه وسكنه بدأ برسم كل شاردة وواردة من مستقبل العراق بما يناسب عقده النفسية)). كانت تمص الشراب من كأسها بحكمة فيلسوف ورشاقة أميرة تسترخي في منتجعها الخاص : رشاقة أدب وثقافة أصيلين، ثم أضافت ((من أين تعيش أرملة صدام وبناته وأرامل أعوانه في قصور منافيهن؟ كم تبلغ رواتب حكام ونواب وموظفي عهد إحتلالنا الجديد ؟ لأنها أرقام فلكية فإنهم يتهربون من الإعلان عنها.. وهي تستثمر في الخارج طبعا، سواء في البنوك كودائع أو في مشاريع الشركات الاستثمارية.... ماذا يعني هذا ؟ ثقافة المال السهل أو المسروق بشرعية قرار رسمي! أليس هو هذا المشروع الثقافي الذي إستبدل به

الجمهوريون مشروع ثقافة الدولة الحديثة الذي أسس له فيصل الأول ونوري السعيد ؟ كم كان رصيد سعاد نوري السعيد يوم موتها في دار العجزة في بغداد، أواسط عقد التسعينات من القرن الماضي، وكم هو رصيد إسراء نوري المالكي اليوم ؟ هل ستموت إسراء نوري المالكي ميتة سعاد نوري السعيد، في فقر مدقع في دار للعجزة في بغداد؟ هذا هو مشروع المال السهل الذي يحقق كل شيء بدل المشروع الثقافي الذي يقوم على القراءة والكتابة بأشد التعابير بساطة واختزالا)). لطالما اشتهيت هذه المرأة وتمنيت الإقتراب منها والنظر في أوجاعها السوداء التي تغطيها بزيها المحتشم .. إفتعلت مشوارا إلى ثلاجة المطبخ وعدت لأجلس في المقعد المجاور لها .. كان الشراب قد نال مني أكثر مما نال منها، فأخذت كفها بين يدي وبدأت بملامسة طراوة أناملها فابتسمت وحولت نظرها إلى كأسها.. كانت دافئة ولدنة وتنبض بتلك الإشارات التي تبثها غابة أي أنثى.. لم تكن جثة هامدة، كما كانت تشيع عن نفسها ... ولكن ثمة نقطة غياب عصية على الملامسة، ينحصر صرح مداها بين نظرة عينيها، الملغومة بأسئلة بلا لغة أفهمها، وحجابها الحاجز المشدود على نفسه ككرة مطاط صلدة.... سحبت رأس طفولتها لألقيه على صدري، فإستجابت لرعشة أصابعي بوداعة طفلة وألقت بكفها البعيد على خدي فقبلت باطنه، فأمعنت في ملامسة شفتيّ طلبا للمزيد في دفء قبلاتي. قبلت رأسها فأجهشت في نوبة بكاء مر.. حاولت رفع رأسها فهمست متوسلة ((إتركني

أرجوك.. أحتاج لدفئك هذه الليلة)). ورغم إني كنت أعرف إنها لم تكن بحاجة لدفئي الشخصي وإنما لدفء الجنس الأخر فيّ، إلا أن الأمر أيضا ناسبني، لأني كنت بحاجة لدفئها كأنثى مستحيلة طاردتها وطاردتها أحلامي منذ كنت في الخامسة عشرة.... ومنذ عادت بسعاد خانم ملتوية الكاحل من شارع الأميرات: أنثى بوقع ذهبي كصولجان الملوك: نفيس، متسلط، ومحدود التداول .. وها هي ، وفي غفلة من ساعة أقداري، تبكي إحدى خيباتها على صدري ببداهة قدر بلا ضغائن. كان إشتهائي لها عنيدا وقاسيا، كتصميم سياسي على الوصول إلى السلطة بأي ثمن . وعبر غلالة شعرها المائل للشقرة، والذي كنت ألصق به وجهي وأنا أغمره بقبلي، سألتها ((ماذا تبكين شغف))؟ رفعت رأسها بهدوء ومسحت دموعها ((هل تقودني إلى سريري أرجوك؟ يبدو إني فقدت السيطرة على توازني))؟ حملتها بين ذراعيّ، فسألتني بغصة بلا وجه ((ماذا تفعل بحق الله؟ انأ لم أعني هذا))؟ فقلت بغصتي الخاصة ((هي رغبتي فقط، فلا تحرميني منها أرجوك)) أومأت برأسها موافقة وأغمضت عينيها لتكبح دمعتيهما، فقلت لأهرب من مواجهتهما ((فقط إرفعي إحدى هذه الشموع لتهدينا إلى غرفتك)).. عندما مددتها على سريرها ووضعت الشمعة في الشمعدان الذي يزين طاولة زينتها، تبينت عبر الظلال المرتعشة على وجهها كم كانت وحيدة ومقصية عن خارطة الأقدار اليومية . وأنا أستيدر لأخرج رفعت يدها وقالت بتوسل ((أرجوك لا تتركني أموت في وحدة أخرى))،

فقلت وأنا أضمها إلى صدري ((ومن قال إنك ستموتين ؟ هو فقط أثر الخمر الزائد .. سيزول أثناء النوم))، فأومأت بإصبعها مقاطعة ((تعرف أن الموت حل معقول جدا لأزمة فقداننا للخيارات ، عندما تتحول أيام الحياة إلى متوالية من التكرارات التي لا نميز وجهها من قفاها))؟ لم تكن خائفة من الموت أو لحظة مواجهته كعملية قهر غيبي، كانت تعاني عزلة نسيان في جغرافيا الأقدار التي ركنتها على حافة العزلة كجثة فقدت القدرة على التعامل مع أقدار أخرى .. فجأة أطلقت ضحكة وهي تعتدل لتقول ((أتعرف أي ثمن دفعت أنا بعزلتي تلك ؟ ثمن بلاهة الساسة الذين حولوا أنفسهم إلى آلهة ترسم مقاديرنا على هوى عقدها الخاصة .... والغريب أن تستجيب السماء لغرورهم هذا إلى حد تخليها عن حلم خلقها لنا لصالح أحلام هؤلاء البلهاء))! وبعد ساعة صمت أمضتها في مراقبة الظلال التي كان يوزعها ضوء الشمعة المرتعش على زوايا طاولة الزينة الحادة قالت ((تعرف لم سأموت الآن ؟ لأنه لم يعد بمقدوري فعل شيء تماما ... وهذا كل شيء))! سألتها بهدوء ((هل ستموتين يأسا فقط))؟ فقالت ((تماما ... ولهذا تراني مترددة ويخالجني بعض الخوف وأحتاج إلى رفقة ... ولكن لحسن الحظ إني صرت أخيرا قادرة على هذا الفعل)). فجأة زاولها الخوف وإبتسمت لجهة لم تدركها حواسي، فسألتها ((لمن تبتسمين شغف))؟ فقالت بلغة كالهذيان ((لأمي .. ولغازي.. هاهما يقتربان ويلوحان لي)).. وصمتت فيما يشبه الغياب فهززتها وأنا أناديها، فردت فيما يشبه الإفاقة

من غيبوبة أو نوم عميق ((أرجوك دعني لموتي الآن ... ثمة من جاء لاستقبالي وهما مترددان خلف ظلال طاولة الزينة بسبب وجودك معي)).. كان مظهرها قد أخذ في التحول من منطقة الخوف إلى منطقة أجهلها، فهززتها فزعا ((شغف أرجوك هل أنت جادة؟ .. كلا أرجوك لا تذهبي))، فردت وهي تبتسم ((بل أرجوك لا تحرمني من سيطرتي على لحظة الفعل هذه واتركني لوحدي لتتقدم المرأتان مني ... هيا أرجوك إنهض ولا تدعهما تنتظران أكثر من هذا)).. فسألتها وأنا أريح رأسها على الوسادة ((كنت أظن أن الأمر مضني ...))، فردت بظل إبتسامة شفيفة ((ظنك مبعثه الخوف فقط ... أتعرف لم يخاف الأنبياء المزيفون من فعل الموت ؟ لأنهم لا يرون غير الجوانب المعتمة من وجوه آلهتهم)). كانت هادئة ومرتاحة تماما وكأنها تستغرق في إسترخاء ما قبل النوم اللذيذ، بعد ممارسة حب عميقة وصافية ... فأيقنت فعلا أنها أخيرا إستطاعت فعل الموت.. فسألتها ((هل وجودي يؤخر موتك فعلا شغف))؟ فقالت بصوت بعيد ((أمهلني دقيقتان فقط أرجوك)) تركت الغرفة دون أن أغلق الباب لأهتدي بضوء الشمعة الراعش على ظلال الممر القريبة .... إلا أني أسفت أن تموت شغف، لأني فجأة أحسست بحب غامر لها واني بحاجة لها وان لا يجب أن أفرط بها، وان أقف حائلا أمام موتها .... نسيت إن موتها كان فعلا تمكنت من السيطرة عليه أخيرا... وإمتلاك قدرته... لم تستغرق عودتي أكثر من عشرين ثانية، إلا أنها كانت كافية لقطع ضيفتيّ شغف

المسافة التي تفصلهما عن السرير وعن اصطحابها إلى فعل موتها... وإلى موتها الذي إمتلكت القدرة عليه أخيرا. ماتت شغف وكنت خاسرها الوحيد، بين ثنيات شهواتي ورغبتي فيها كأنثى مستحيلة، متحصنة خلف عنادها (لم أكن أرى غصة حرماني منها أكثر من عناد!) الذي لم يفتر يوما في مقاومة نظرات وإشارات اشتهائي التي كنت أرسلها لها في المناسبة وعدمها.. كانت أنثى مستحيلة أخرى للأسف! مع خيوط الفجر بدأت مشاعري تستعيد واقعيتها وبدأ حلم شغف الأنثى يتحول إلى عبء موت واقعي .. شحب وجهها ويبس جسدها وانطفأ ذلك البريق الذي كان يحيلها إلى ذلك الموضوع الذي يلهب غدر ذلك الألم المستوطن أسفل قوس الشهوة . كان يوم جمعة آخر، وكان يوم حظر تجوال آخر، وكان عليّ انتظار صحو سعاد خانم لمواجهة عبء موت آخر.. ولم أجد حتى مكانا لانتظاري لصحوها من نومها المتأخر، فقررت العودة إلى جحري المهمل في أقصى ذاكرة القصر .. مررت بغرفة سولافة لأجد ضوء شمعة يرتجف من تحت عقب الباب، فقررت أن أنتظر إستيقاظ الخانم عندها، أفضل من الأنتظار إلى جانب صرير عظام الولد القديم وقطيع حيواناته الحزينة . فتحت الباب ودخلت، كانت مستغرقة في حشو قصاصات ذاكرتها مع نسيان تام لعريها، وكأنه الوضع الطبيعي لبداهة الأشياء من حولها... كنباح الكلب، ووجود الحمام في البيت، وان لاتكون بيضة الدجاجة بشكل مكعب وبزوايا حادة.. لم تفاجئها زيارتي؛ بل لم ترفع رأسها لتنظر من أكون حتى، عندما جلست على طرف

السرير المقابل لها وعبثت بشعر عانتها المنسرح ليغطي ماتحته، وتشابك ساقيها المطويان تحتها، وهي تتربع وسط السرير. كل ما فعلته وأنا أداعب ذلك الشعر المتهدل بعبثية تامة، هو أنها حذرتني من بين حروفها المقطعة ((إحذر إن تتلوث أصابعك بالدم، فقد عاد للجريان منذ صباح أمس))..
قلت ((هل بقرفك الأمر لتحذريني منه)) ؟ فقالت دون أن ترفع رأسها ((جدتي تقول إنه وسخ))

((وأنت كيف ترينه)) ؟

((لايشغلني أمره)).

((مالذي يشغلك إذن)) ؟

((أن أهيء ذاكرة لموتي قبل أن يعود جدي لاصطحابي)).

((وماذا ستفعلين بها هناك)) ؟

((سأحدث بها جدي)).

((هل سيكون هو بحاجة للحديث عنها)) ؟

((وبم سنشغل أوقاتنا إذن))؟ تأملت هذه المرأة التي تقترب من منتصف عشريناتها . كانت بلا ذاكرة وبلا أحلام، كعراء صحراوي بلا قدمين يرتكز عليهما في مكان يحدد هويته . كانت كدمية عرض الأزياء في محلات بيع الملابس الجاهزة : هيكل رسم على عجل لسد فراغ في لوحة دون أن تحدد الجهة التي ستعرض لها . كانت المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى أن شعر إبطيها يعاني نفس إهمال شعر

عانتها ويكاد يصل إلى مرفقيها، فسألتها عن سبب تركها له، فقالت ((وهل وجد الشعر لنحوله إلى نفايات ؟ تخيل لو أني حلقت شعر رأسي كلما طال، ألن أحتاج إلى مزبلة خاصة له))؟ فسألتها إن كانت تسمح لي بملامسته فقالت لي دون ان ترفع رأسها عن القصاصة التي في يدها ((على شرط أن لا تعيقني عن إكمال عملي)).

((وهل عملك هذا مهم إلى هذه الدرجة))؟

((ولدت من اجله وعلي أن أكمله ، كما ولد توستراد أداموس من أجل عمله وأكمله.. وكما ولد الفريد نوبل من أجل عمله وأكمله.. وكما ولدت القطة لتموء ولنسمع موائها.. وكما ولد جدي ليموت ويكتب لي مذكرات موته وأتم عمله)). كنت لحظتها قد إنتقلت من مداعبة شعر إبطها إلى حلمة نهدها، فقالت بالهدوء نفسه ((إحذر، سيبدأ بإفراز مادة صمغية وربما هذا يغضب جدتي))! فقلت بدهشة ظاهرة ((فقط))؟ فأرمأت برأسها أن نعم، دون أن يطرف لها جفن.. فقلت بنفس الدهشة..

((وهذا كل ما يعنيك))؟

((نعم لأن غضبها يحرف حروفي عن خطوط سيرها ويمنعني من رؤية نهاية أقدارها)). سحبت يدي وتمددت على طرف السرير الفارغ لأسألها ((هل كنت تحدثين الولد القديم بهذا))؟

((أنا لا اعرفه لأتذكره ..من يكون هذا))؟

((وجدتك التي كانت تعمل في المطبخ))؟

((أنت تحدثني عن أشياء بلا أقدار)). عندما صحوت وأنا أعاني ثقل يوم جمعة آخر ، كانت سولافة ما تزال منكبة على عملها بصمت كامل؛ فخرجت من الغرفة دون أن تتنبه لوجودي، وليس لحركتي من حولها وحسب.. وكانت الخادمة ذات الأصول اليونانية تجلس أمام باب غرفتها فسألتها عما تفعل هناك فأجابتني بنفس الإجابة التي ردت بها على شغف في مخزن المطبخ البارد ((أحمي سعاد من إيقاع غريزة الفراشات)). بعد ظهر ذلك اليوم إضطررنا لدفن شغف في حديقة القصر بسبب إستمرار حظر التجوال ..، وقالت سعاد خانم وهي تودعها على عجل ((لقد أنسانا هذا الاحتلال الكثير من عاداتنا وأولها طقوس توديع موتانا لكثرة ما سفح حولنا من موته غير المقدس)). وعندما ذكرتها سولافة بعادتها القديمة ((أنت لم تلوثي أصابعك بتراب هذه الميتة ياجدتي))؟ ردت عليها بأسف قليل ((موتنا فقد جلاله لأنه لم يعد يتم إلا لأسباب سياسية))!

في الأيام التالية لدفن شغف بدأت سعاد خانم التحضير للاحتفال بزواج حفيديها رستم وشغف الرابعة .. خططت لفتح خزائن كنوز مجد العائلة من جديد، من أجل إستبدال أثاث القصر وإعادة الحياة إلى حديقتيه الأمامية والخلفية، بنقل جثث الخادمتين الهرمتين والولد القديم إلى مدفن الأولاد غير الشرعيين، ونقل جثة شغف إلى مدفن العائلة ... إلا أن العجز أصابها في إيجاد مكان مناسب لدفن جثث

حيوانات وطيور الولد القديم الحزينة، فقررت استشارة رجل الدين الذي تولى دفن موتى العائلة على طول تاريخها ، في شأنها.. ، كما قررت إعادة الحياة إلى مطبخ القصر بتوظيف طقم جديد من الخادمات الشابات، ممن يجدن تحضير الوجبات والأطباق الحديثة، التي تعرف عليها المطبخ العراقي مع دخول الصحون اللاقطة. ومن أجل تجديد واستمرار دم العائلة، فرضت على حفيديها أن ينجبا كل عام طفلا دون توقف، ولحين بلوغهما سن اليأس.. بل إنها قررت، وضمن نفس الخطة، في تزويج سولافة ذاتها، بعد إعادة تأهيلها، وإعادة ربط صلاتها بأرض الواقع، من وراء حجب الموت. وبانتظار رفع حظر التجوال لتنفيذ خططها هذه، قررت البدء بإصلاح شأن سولافة بنفسها لحين تمكنها من الاستعانة بمربية عصرية، درست فنون التربية الحديثة والاتكيت في الجامعات البريطانية. أدخلتها الحمام وحلقت لها جدائل شعرها غير الرسمي، حتى أظهرتها كقشرة بطيخة مسلوخة بالماء الحار. وتحت تأثير وضعها الجديد، فقدت سولافة توازنها، بسبب إحساسها بفقدان وزنها، بفقدانها لثقل شعر عانتها وإبطيها، الذي كان يكفي لصناعة باروكتين شقراوين لرأس اكبر ممثلات هوليود. كما أجبرتها على إرتداء السروال الداخلي وحفاضات الدورة الشهرية حتى في أيام إنقطاع الطمث عنها، من اجل أن تعتاد على إستخدامها في أيام نزولها.. وفي سبيل أن تعتاد على لبس الملابس العصرية، أجبرتها على إرتداء طقم مختلف لكل وقت من أوقات اليوم.. ففي الصباح كانت

تجبرها على الظهور في الصالة وغرفة الطعام ببنطال من الجينز الأزرق مع بدي أو بلوزة بلون ابيض أو سماوي... وفي وقت العصر كانت تجبرها على إرتداء فستان أو تنوره تظهر ركبتيها، مع قميص مبقع بورود حمراء وصفراء وحذاء بكعب عالي.. أما في المساء فكانت تجبرها على إرتداء فستان سهرة بألوان ملكية (الأسود والرمادي والنيلي)

مع تسريحة شعر منتفخة، كقبة، من بقايا تسريحات ذاكرتها الخمسينية. أما في وقت النوم، وهذا الجزء الوحيد الذي ناسب سولافة، وكان الأقل ضررا بفوضى طبعها الأمزوني، فكانت تجبرها على دخول سريرها بقميص نوم فضفاض بلا كمين، مما كان يسهل على سولافة الإفلات منه تحت لحاف السرير، بعد إغلاق جدتها لباب غرفة نومها مباشرة، وإغراق القصر في عتمة ظلام حجرة الاحتلال وتصفيات الفصائل السياسية لحروبها الخاصة. ومن أجل أن توفر سعاد خانم هذه الأطقم لحرب تمدين حفيدتها الضالة، لجأت لأيام زهو العائلة الخمسيني، فعمدت إلى نبش خزانات ملابس إبنتيها، شغف وسؤدد وحفيدتها ليز، ورتقت ما أكل العث من أزيائهن، التي كانت تأتيهن من أرقى محلات أزياء لندن، لحين رفع حظر التجوال عن سماء بغداد وفتح مخازن الأزياء لأبوابها من جديد. واظبت سعاد خانم على الإشراف على تنفيذ هذا البرنامج التمدني على سولافة لعامين كاملين.. إذ كانت تحبسها في غرفتها الخاصة في

أوقات متفرقة من النهار، لتكشف أولا على إرتدائها للسروال الداخلي ووضع حفاضة الدورة الشهرية، ومن ثم على تغيير طقم ملابسها بما يناسب الوقت من اليوم؛ وكذلك على عمل تسريحة شعرها التي تنسجم مع طقم الملابس، ووضع ما يناسبها من مواد التجميل، التي كانت تظهرها بوجه شيطان أبكم، كما كانت تقول سولافة لشغف الرابعة. بل إنها كانت تجبرها على حلاقة شعرها غير الرسمي، في نهاية كل اسبوع، حتى ظنت سولافة أن شعرها غير الرسمي، صار الممول الرئيس لنصف مزابل شوارع العراق. ولم ينقذ سولافة من هذا الوضع الشاذ، الذي كان يخنقها ويعطل رؤيتها لنهاية أقدار حروف قصاصات ذاكرتها، إلا استمرار سنوات حظر التجوال، بسبب التجدد المستمر لحروب الأحزاب السياسية وعراكات كتلها البرلمانية على المناصب الحكومية، التي لم يعد يتسع لها مبنى البرلمان ومقرات الوزارات، فحولتها إلى شوارع المدن وأزقتها وبيوتها، الأمر الذي أعاد سولافة إلى عريها الأمازوني الطليق، بسبب إهتراء ملابس العائلة القديمة وعدم قدرة جدتها على شراء ملابس بديلة لها، لاستمرار غلق حظر التجوال لمحلات ومخازن الملابس والإكسسوارات النسائية ومعارض بيع مواد التجميل.. إلا أن سعاد خانم لم تيأس من الأمر، وخاصة بعد عامين من مواظبة حفيدتها على إرتداء الملابس وإعتيادها على حلاقة شعرها غير الرسمي في نهاية كل أسبوع؛ فلجأت إلى طريقة تثقيفها بمحاضرات مستمرة تتضمن دروسا عملية

في الارتداء الوهمي للملابس ـ حول حضارية الملابس وضرورتها، فواظبت على زيارتها أربع مرات في اليوم في غرفة نومها لتجبرها على ترك قصاصات ذاكرتها جانبا، من أجل أداء تمارين تغيير ملابسها، بما يناسب أوقات النهار والليل؛ ووضع ما يناسبها من مساحيق التجميل والإكسسوارات، حتى اكتسبتها سولافة كعادة بسبب التكرار وتحولت، إلى ما يشبه الطقوس الميكانيكية، التي صارت تؤديها لجدتها بصمت تام، وكأنها ممثلة صامتة تؤدي دورا مسرحيا صامتا في عرض يومي مستمر..، حتى ملت سعاد خانم ذلك العرض، بميكانيكيته الرتيبة، وانقطعت عن متابعته، بسبب تكراره الممل لا بسبب طول أيام حظر التجوال، التي حولته إلى درس يومي رتيب؛ عندها تحررت سولافة من تلك الضغوط لتعود إلى طلاقة عريها الذي كان يساعدها على التركيز على تتبع نهاية أقدار حروف قصاصاتها دون جهد يذكر، بسبب تلطيف عريها لحرارتها الداخلية بشكل اوتماتيكي بعد أن أهدت مروحتها الصينية لبابيون الرقيقة تعبيرا عن إعجابها بجلال موتها الأبيض. وبسبب طول سنوات حظر التجوال، وتكرار وتيرة الأيام على قالب واحد، أخذ تشابه الأحداث يتحول إلى مرض من الالتباس في ذاكرة القصر، وخاصة بعد استمرار نزاع الأحزاب والكتل البرلمانية على تقاسم موارد المناصب الحكومية وامتيازاتها، التي حولتها القنوات الفضائية إلى مسلسل يومي بحلقات مستمرة، تتواصل مع ساعات وجود التيار الكهربائي. بدأ الالتباس كمرض مع رستم وشغف

الربعة، بسبب تكرار برنامج حياتهما الخاصة لحلقاته الموزعة بين ساعات العري المستمر، (والذي حفظ ملابسهما عن الاهتراء) وتكرار تفاصيل عملية الحب التي كانا يمارسانها على طول ساعات تعطيل حظر التجوال لباقي نشاطاتهما الحياتية..؛ فبدأت تكرارات ساعاتهما بالتحول إلى عادات مزمنة، حتى أخذت بالالتباس على ذاكرتهما، وفقدا القدرة على التمييز بما قاما من أدائه او نسياه، حتى دخلا في دوامة الالتباس المرضي الذي فقدا معه القدرة على الإختيار، بسبب تعطل ذاكرتيهما ودخولهما في حالة من الفوضى العمياء. وبسبب شكهما المستمر، الذي خلقته حالة الالتباس تلك، كانا ينزلان إلى المطبخ عشرات المرات يوميا من اجل إعادة تناول وجبات طعامهما وشرب فناجين لا تنتهي من القهوة والشاي، الأمر الذي أشكل على سعاد خانم حصره في عدد محدد، فإلتبس عليها أمر حسابه وحساب أوقاته، فدخلت هي الأخرى دوامة الإلتباس تلك وجرتها إلى حالة الشك القهري ذاتها، فأخذت تعيد تناول وجبات طعامها وتفرض على سولافة إعادة تناولها مع المزيد من فناجين القهوة المحلاة، والمزيد من علب المشروبات الغازية، حتى أخذت سولافة بالترهل وثقلت حركتها بسبب السمنة؛ وبالتالي زادت ساعات نومها فتناقصت ساعات عملها في قصاصات ذاكرتها، وزادت كثرة الطعام من سرعة نمو شعرها غير الرسمي حتى اخذ طوله يعثر خطواتها ويعيق حركة ذراعيها، ما اجبرها على استشارة جدتها في شأنه فنصحتها هذه بربطه ببعضه في

جديلة مثلثة يكون مركز عقدها في منطقة السرة، بعد إلتباس المفاهيم عليها ونسيانها لأمر الحلاقة، كحل، لزحمة الشكوك في رأسها، بسبب حالة الإلتباس تلك. وقد إستمرت حالة التدهور هذه حتى دخل الجميع حالة الغياب التام عن الواقع، بسبب دخولهم مرحلة بياض الذاكرة، وحقبة التضخم الجمهوري، التي قادت كل ما عداها إلى وضع العزل عن دورة المقادير. إستمر وضع الطفو على قوانين الطبيعة هذا حتى عثرت إحدى وحدات قوات الاحتلال على السائق ذو هالة الصبر في احد معتقلات المخابرات وهو يرزح تحت عذابات فقده لبابيون الرقيقة.. وجدوه بلحية بيضاء ووجه اصفر، بسبب غيابه عن ضوء الشمس، واقتصار فعل ذاكرته على صورة بابيون وهي تغتصب أمامه على أريكة صفراء. سلمته الوحدة الأمريكية إلى معتقل ساحة النسور الذي تديره وحدة من مغاوير شرطة الحقبة الجمهورية التي شكلتها إدارة الاحتلال، لتعيد اعتقاله هذه بتهمة الإرهاب بسبب كثافة لحيته وإحتماله لصنوف تعذيبها المستحدثة بصبر حلاجي مفزع، أذهل حقد سجانيه وجلاديه وقواميس شتائهم ومعاجم أحقادهم السياسية وهو يعيد عليهم في كل مرة قصة إغتصاب حبيبته التي تشبه بشرتها لون البحر، وتفوح منها رائحة المطر، بنفس الرواية في كل مرة، وتحت أقسى ظروف التعذيب.. وبعد إصراره على رواية تلك القصة بنفس التفاصيل في كل مرة رغم هول صنوف التعذيب التي كان يتعرض لها، لذا فقد أعتبر مجنونا وأطلق سراحه. عاد

السائق ذو هالة الصبر ببدلته التي إصفر لونها بسبب ظلام الزنزانة، وتحولت بقع الزيوت التي تلطخها إلى اللون الأخضر.. فتحت له سولافة الباب وليس عليها غير ضفيرة شعرها غير الرسمي، التي طالت بدورها لتلامس ركبتيها من جديد. أذهله أنها قد تعرفت عليه من أول لحظة، حتى إنه ظن أن شكله، الذي لم يره في مرآة من يوم إعتقاله، لم يتغير، لأنه لم يسمع بمرض الإلتباس الذي أصاب العائلة في سنوات إعتقاله، والذي قادت مراحل تطوره في ذروته المرضية، إلى العودة بحاملي فايروسه إلى مراحل طفولة الذاكرة البيضاء. الغريب أن عودته، ورغم عمق صمته، قد أيقظت جميع من في القصر من سبات الذاكرة؛ فخرجت سعاد خانم من غرفتها منشرحة لترحب به ولتدعوه للإقامة الدائمة في القصر.. كما خرج رستم وشغف الرابعة من معتزل مللهما من بعضهما – بسبب تقولب صور عشقهما وتحولها إلى روتين يشبه روتين تكرار الساعات – ليرحبا به كصهر للعائلة لا يمكن نسيانه. ولروح السائق ذو هالة الصبر العملية ودأبه على الحركة، بدأ على الفور ثورة نشاط لإعادة الروح إلى حياة القصر.. بدأ أولا بتنظيف غرف القصر ومرافقه من حالة ركود الزمن وتصلب ذاكرة الأشياء وتلكؤ الحياة في ممراته وعلى نوافذه المغلقة.. ثم خرج إلى الحديقة ليخلصها من أعشاب الحرب وتردي نضرة أزهارها التي غزتها في سنوات حظر التجوال وركود حقبة الإلتباس، وليشذب أشجارها ويعيد الحياة إلى أحواض زهورها الباكية، منذ غياب العامل الانكليزي وشرود شغف

الثانية. وفي صبيحة اليوم التالي أعطته سعاد خانم جزءا من ميراث مجد العائلة الذهبي ليبيعه ويشتري للقصر سيارة فارهة تعيد لحياة القصر زهو مجدها الطبقي القديم. ولما إصطحبها، عصر ذلك اليوم، في نزهة مسائية في عتمة سماء بغداد وظلام شوارعها المهجورة، سألته بدهشة ((أ لهذا الحد فتك الجمهوريين ببغداد؟ ألا يستحقون الآن إنقلابا ملكيا يعيدهم إلى مقاعد الدرس ليتعلموا حرمة القانون وحرمة طقوس الحياة))؟ وفي صباح اليوم التالي إستيقظ السائق ذو هالة الصبر مبكرا ليأتي بخادمتين شابتين تعيدان الحياة إلى مرافق القصر الخدمية، ولتفاجئا سعاد خانم بفطور زهوها الطبقي في سريرها وفنجان قهوتها الصباحي الذي أعاد لها مجد ذاكرتها الأول، فكافئت السائق على ذلك بالسماح له بالنوم في غرفة بابيون الرقيقة، وكان ذلك أقصى ما تطلع إليه لنهاية حياته: أن يبكي ذكريات حبيبته المطرية ما تستحق من بكاء الفقد. من ذلك اليوم نذر ما تبقى له من صباحات لخدمة سعاد خانم وليكرس ليله كاملا لبكاء حبيبته والعيش لذكرياتها المطرية. نظف غرفتها تنظيفا قهريا؛ وأعاد ترتيب حاجياتها وفق مارسمته له بذاكرتها عبر تخطارها معه وهما في زنزانتي المعتقل. كما أعاد الحياة إلى حوض زهور نافذتها، وبالألوان والأصناف التي كانت تحب... إلا أنه فشل في إستقدام أي فراشة للاقامة فيه، فأكد له ذلك خسارة حبيبته إلى الأبد، فتضاعف حزنه إلى الحد الذي أحال هالة صبره،(التي تحيط برأسه)، إلى هالة حزن أبدي، بلا فواصل أو

ممرات أو سقف لمداه. كان يقضي ليله باكيا بين ذكرياته ومراحل ذاكرة بابيون الرقيقة، ويمضي النهار بطوله في تلبية طلبات سعاد خانم التي بدأت بالفعل بالإعداد لحفل زواج حفيديها وبتفاصيل تجاوزتها الذاكرة الجمهورية منذ أول حروب الجمهوريين، ولأسباب كثيرة، أولها تضييقهم لمساحة الأمل أمام الناس بسبب ايغالهم في حروب إنقلاباتهم على أنفسهم، وثانيها إختصارهم لمفردات الفرح اليومي في حياة الشعب لإخضاعهم لها لإحكام إيديولوجية مسبقة، وثالثها هيمنة زعمائهم الفلسفية على مقتضيات المصلحة العامة التي تزن كل الأمور وفق اعتبارات الأمن الوطني من زراعة البطاطا الحلوة إلى تزاوجات طيور الحب والعصافير السائبة على أشجار البساتين التي تقيم خارج حدود سيطرة القانون ولا تخضع لشروط الضبط الإيديولوجي وقوانين الطوارئ وفلسفة مكافحة الإرهاب! فقد أوصت على طقم لغرفة نومها من ايطاليا وعلى بدلة زفاف للعروس من باريس وعلى طقم من حقائب اليد والأحذية من جلود أشد التماسيح الإفريقية ضراوة؛ وعلى فراء الثعلب من أقدم غابات القرن الإفريقي؛ وعلى سيارة ليموزين لحفل الزفاف من شركة فكسل البريطانية.. وهكذا إلى أن انتهت بأطقم ذهبية وماسية لعنق وآذان وأصابع شغف الرابعة من صاغة ايطاليا..، وكانت هذه فضيلة الاحتلال الجديد الوحيدة، كما قالت، بأنه أعاد صلات العراق بالعالم الخارجي من دون عقد إيديولوجية وحسابات سياسية لا يتعدى أفقها حدود ألوان سراويل المواطنين

الداخلية وطريقة تثاؤبهم في الساحات العامة؛ والتي كان أغلبها مناهضا للنظام ولفردانية الزعيم القائد. كما شملت حمى التحضيرات تلك أمر إنتشال سولافة من بؤس ترديها الفلسفي، فأوكلت أمرها للخادمة الأكثر شبابا من بين خادمتي القصر الجديدتين، من أجل أن تعيدها إلى حظيرة الحياة المعاصرة ووفق أحدث صرخات الاتكيت والأزياء التي أوصلتها مسلسلات الفضائيات المدبلجة عن اللغات اللاتينية. في أول الأمر إندفعت هذه الخادمة بحماس هوليودي أذهل سعاد خانم بسرعته وخفة حركته، فقد عكفت على سولافة لمدة أسبوع كامل لتنظيفها وإظهارها بمظهر جديد ... فقد قصت ضفائر شعرها غير الرسمي وإزالت جميع أثاره بواسطة أحدث مزيلات الشعر الحديثة، لتحيل جلد عانتها وأبطيها إلى مسطحات بنعومة وطراوة ظهر البيضة المسلوقة. وذهبت بها إلى أحدث صالونات التجميل ومحلات الأزياء في حي عرصات الهندية الراقي، لتقص شعرها وتصلح أمر أظافر يديها وقدميها، التي قوسها وذهب بألوانها الإهمال؛ لتعود بها إلى القصر كدمية في ملابس وزينة الأعياد الملونة .. إلا إن حماس تلك الخادمة سرعان ما إندحر وأصاب اليأس فلسفاتها ورؤاها الحداثوية بسبب نكوص سولافة الفطري المتجذر في أعماق فهمها الميتافيزيقي، والقائم على رفض كل ما يخدش وحدة صفاء بدائيتها التي خلقها الله عليها.. فبعد عودة الخادمة بها من محلات أزياء وصالونات تجميل حي عرصات الهندية سرعان ما غافلتها وغافلت جدتها لتدخل الحمام

وتنقع نفسها، وهي بكامل زيها الجديد، في بانيو الحمام بعد أن صبت في مائه كل ما وقع تحت يدها من أنواع الشامبو والصابون السائل ومساحيق التنظيف، من أجل أن تخلص جسدها من أدران الإصباغ التي كانت تعتبرها من إختراع الشيطان لتضليل ألوان البشر عن رعاية عين الله؛ ومنع الأقدار من الاهتداء إلى أشخاصهم. وبعد خروجها من البانيو بلون بشرة محروق، بفعل المواد الكيماوية الموجودة في سوائل تنظيف الصحون وغسيل الملابس، عمدت إلى فستان حصارها المعتم القديم لتلبسه وتنزل بشعر منكوش إلى المطبخ لتلتهم كل ما تجده في المطبخ من أجل أن تسرّع نمو شعرها غير الرسمي، كما في أيام مرض الاحتباس الذي أصاب القصر في سنوات حظر التجوال وصرفهم إلى تكرار تناول وجبات طعامهم بسبب شكوكهم وعدم يقينهم من تناولها، ما كان يساعد شعرها غير الرسمي على النمو بسرعة عجيبة أوصله إلى حد مزاحمة حركة ساقيها وذراعيها.. إلا أن ذلك لم يحبط أحلام سعاد خانم في إعادتها إلى روح العصر، إلا بعد أن استشارت السائق، ذو هالة الحزن، في أمرها، والذي أصبح مستشارها الأمين منذ عودته، فأشار عليها هذا بحسه الفطري الأمين، بتركها لشأنها لأنها، كما قال، تعيش خارج حدود مقاييس وشروط رحمة الله المتعارف عليها بين البشر.. فسألته سعاد خانم بحماس ((هل يعني هذا إنها ملاك من ملائكة رحمة الله))؟ فرد السائق بوقار هالة حزنه المزمن ((الحقيقة يا خانم أنا لم أر ملائكة يستحلون عريهم

البدائي، لأن العري ضد طموحات الله الأخلاقية، كما تروي الكتب السماوية))، فسألته بلغة اليأس السياسي الذي ساد شارع الطموحات الجمهورية ((فبماذا تنصحني في أمرها أيها الرجل الطيب))؟ فرد بحكمته الاقليدية ((أن تتركيها لرحمة الله دون منغصات حضارية)). فسألته بيأس ((أليس هذا ضد منطق التطور الحضاري))؟ فأجاب بنبرة حكمته الأولى ((بلغة الحكمة الجمهورية فقط؛ أما بلغة الله فهو صبر وإحتساب على البلوى))! وهذا ما أقنع سعاد خانم فقط برفع يدها عن سولافة وإطلاق سراحها إلى براري الله لتنعم بمنطق حياتها الامزوني الذي لا تحول الملابس، في فلسفته، بينها وبين رحمة الله.

*** تواصلت حمى تحضيرات سعاد خانم لحفل زفاف حفيديها إلى يوم مرور سبعة أشهر كاملة على رفض ساسة حقبة جمهوريتنا الرابعة تشكيل حكومة جديدة، وتركهم حكم البلاد لرحمة أهوائهم، التي لم تغضب الرحمة الالهية، رغم تعارضها مع منطق الشعب! ففي ليلة اليوم السابق لصباح ذلك اليوم، أعلنت لسائقها الأمين ولخادمتيها الجديدتين إنتهاء جميع التحضيرات وأن الصباح التالي سيشهد عقد قران حفيديها وفق مواصفات ذاكرتها الأرستقراطية. تلك الليلة، أمرت الجميع بالإغتسال، بما فيهم سولافة؛ وأشرفت بنفسها على تمام زينتم وأناقتهم.. وبوصول جولة تفقدها إلى السائق ذو هالة الحزن، أمرته بحلاقة لحيته الكثة؛ وعندما حاول الاعتذار عن تلبية طلبها أخبرته أن ذلك من أجل راحة نفس بابيون الرقيقة، فأخبرها أن بابيون لم تشكو يوما من لحيته في حياتها، فردت بحزمها المهيب ((كان ذلك عندما كانت تعيش تحت حكم الجمهوريين البلهاء، لا كما تعيش الآن تحت مظلة الله الرحيم)).. إنصاع

لرغبتها دون إحتجاج آخر، وتخفف بصمت كامل من ثقل لحيته، فبدا كديك منتوف الريش، ما أثار شفقة سولافة، وهي تراه بمظهره الجديد على مائدة عشاء تلك الليلة فقالت له وهي تجلس إلى جانب جدتها ((أنت الآن تبدو كفم بلا أسنان، كنصفي الأسفل الذي حصدت فروته خادمة جدتي))! لم تقلها بسخريتها المعهودة، ولهذا لم يعرف بم يردها، فأكملت هي فكرتها عن مزايا الشعر، وهي تركز نظرها في موضع لحيته المسلوخ كإلية رضيع ((هل يولد الشعر معنا لنحوله إلى مزابل))؟ فرد هو محرجا بنظرة إعتذار لسعاد خانم ((لا أظن))، فقالت له بلهجة آمرة ((إذن علينا أن نحتفظ به ولو من أجل أن نلهو بذوائبه في أوقات فراغنا فقط، ولحين عودتنا لموتنا، وهناك سترشدنا جهة ما ما نفعل بشأنه))! وهنا سألتها الخادمة الأصغر سنا من طقم خادمات القصر الجديد ((وهل تعرفين إلى أين سنعود))؟ فردت عليها ببداهة لغة الطيور ((إلى الجهة التي عاد إليها جدي وهو يحمل كامل إرث شعره)). عند هذا الحد أمرتها سعاد خانم أن تصمت فداهمتها حرارة جسدها فهربت بإتجاه غرفتها وهي تحاول التملص من قماط حشمتها الذي زنرته الخادمات بهيئة زي سهرة لتلك الليلة السعيدة، وهو مكون من بنطال أسود فضفاض وقميص أبيض بلا أزرار وجاكيت أسود، ربط حول وسطها بحزام مزود بقفل مذهب ليبدو كقطعة اكسسوار لتزيين وسطها لا كحرز احتياطي لكبح روح جسدها الأمزونية. بعد العشاء، حولت سعاد خانم صالة الجلوس إلى مسرح لتقديم عروض الأزياء من أجل

تدريب الخادمتين الشابتين على مراسيم الظهور كوصيفتين لحفيدتها العروس، ولحمل ذيل فستان زفافها في ساعة مثولها أمام قاضي الأحوال الشخصية لعقد قرانها. ألبستهما فستانين، مستوحيين من مظهر الأوز البري، أمرت بخياطتهما من الساتان الأبيض، ثم لفت النصف الأعلى لكل منهما بشال بزهور بارزة ولماعة، لتمنح مظهرهما المتواضع – كخادمتين – مسحة تناسب طبقية ذاكرتها.. ثم حشرت أقدامهما في أحذية إيطالية الصنع من الروغان الأبيض، وبكعب عالي بطول تسعة سنتمترات، وأوقفتهما متقابلتين إنتظارا لظهور حفيدتها بفستان زفافها المذيل، بثلاثة أمتار من الدانتيل المفضض بأغصان وورود لماعة، لتحملاه خلفها وتمنحا مظهرها هيبة ووقار مجد العائلة الغابر. كان وزن الورود المفضضة غير موزع بعناية على طول ذيل الفستان، ما أعجز الخادمتين، وهما محنطتان تحت لفات الشالين الطويلين، عن حفظ موازنته، بما يظهر رونق وروده المفضضة، وبما يناسب حلم سعاد خانم الملكي، ما دعاها للتفكير بتأجيل حفل الزفاف لحين العثور على خادمتين إضافيتين تساعداهما في حمل ذيل مجدها ذاك، لولا تدخل السائق ذو هالة الحزن بحكمة أمانته الفطرية، وإقتراحه تقليد حمل ذيل فستان أميرة أوربية، لم يسمها، والتي نقل حفل زفافها على شاشات الفضائيات، وذيل فستانها تحمله وصيفتان من وسطه وطرف ذيله، دون أن يخل ذلك بمجد زفافها الملكي، لأن ذلك صار موضة العصر الحديث، كما قال.. فسألته سعاد خانم ((هل أنت

متأكد من عرض الفضائيات لصورة ذلك الموكب بالطريقة التي تصفها لي))؟ فأومأ لها برأسه مؤكدا؛ عندها أصدرت أمرها للخادمتين بإجراء بروفة إقتراح السائق ذو هالة الحزن، وعندما نجحت البروفة بيسر، حمدت الله على إزاحة صدام ودخول ثقافة الصحون اللاقطة إلى العراق، لأنها ستحل الكثير من مشاكل الساعات الحرجة بتغطياتها الخبرية لحياة العوائل الملكية الاستعمارية. في صبيحة اليوم التالي، سار موكب الزفاف بإتجاه محكمة الأحوال الشخصية لنيل مباركة قاضيها المدجج بحكمة القانون وبركات الرب، إلا أن مرور موكب أحد المسؤولين علق السير في الشوارع لمدة ساعة كاملة من أجل وصول آمن وميمون إلى مقر عمله. وما أن إنسحبت آخر سيارة في فصيل حمايته، حتى بدأت سيارات حماية مسؤول آخر بالتقاطر على الشارع، وهي تأمر حشود الناس، المحشورة في سياراتها، بلزم أماكنهم، قبل وصول سيارات موكب السيد المسؤول، (الذي تأخر ساعة إضافية بسبب تذكره، بعد صعوده إلى سيارته المصفحة ضد أحلام ونوايا العوام، أنه لم يأخذ حمامه الصباحي فعاد إلى قصره لينعم بدفء حمامه، وسط تهليل وتكبيرات حاشيته ورجال حمايته الأمناء)! ولما عاد المسؤول لمواصلة مشواره إلى مقر عمله وإنسحبت آخر سيارات رجال حمايته، كان النهار قد إنتصف، فنصحت الخادمتان الجديدتان (من وحي خبرتهما بنظام حياة العراق الجديد الذي تعرفتا عليه قبل إلتحاقهما بخدمة القصر) سعاد خانم بالعودة إلى القصر، وتأجيل

الزفاف ألى اليوم التالي لأن قضاة عهدنا الجديد لا يباركون الزيجات بعد منتصف النهار، لأنصرافهم لأداء صلاة الظهر.
عاد موكب الزفاف إلى القصر وسط تذمرات سولافة، بسبب إختناقها من حصار قماط حشمتها، وهدر مثل هذه المناسبات لأوقات رفاه تخففها من ملابسها في غرفتها .
ولمدة شهر كامل، تكرر الوضع ذاته؛ وفي ظهيرة كل يوم كان موكب الزفاف يعود إلى القصر وسط تذمرات سولافة من حصارات أزياء الزفاف المربوطة على جسدها بأحزمة مزودة بأقفال مذهبة، حتى كادت تندم على إهدائها لمروحتها الصينية لبابيون الرقيقة، قبل رحيلها إلى عالم ما بعد حلاقة الشعر غير الرسمي! وفي الليلة الأخيرة لذلك الحصار، تساءلت سعاد خانم، وهي تفكر بصوت عالي أمام خادمتيها الجديدتين ((هل يعقل أن يكون عدد مسؤولي الدولة الجديدة قد فاق عدد نفوس العراق لتعطل مواكب مرورهم حياة الناس وتمنعهم حتى من الزواج الشرعي))؟
فردت خادمتها الكبرى بثقة تحليلية وارفة ((لا أظن ذلك يا سيدتي، لأنه لو كان كذلك لكانت أعلنته الفضائيات، التي تتحدث عن كل شيء، من عراكات الساسة إلى مواء قطط المزابل))! وفي صباح اليوم التالي لذلك التحليل المتراخي، تمكن موكب الزفاف من وصول المحكمة في الساعة العاشرة وعشرة دقائق، بمعجزة، ظنت سعاد خانم أنها من تدبير رعيل أشباح شغف الثالثة، إلا أنها كانت في الحقيقة من تدبير قدر موت أضاع وجهته في مسالك أقبية المخابرات الأمريكية المعتمة، ولم يصل إلا في ذلك الصباح

ليتخلص من عبء أوزاره الثقيلة.. كانت الخادمتان الجديدتان أول المترجلين من سيارة موكب الزفاف، من أجل تلقف ذيل فستان زفاف شغف الرابعة، المغرق في تاريخ موضته العتيق؛ ومن ثم ترجل رستم لإستقبال يد عروسه، المتشنجة الحركة بسبب وصايا سعاد خانم في تطبيق بروتوكولات ملكية متخصصة في أناقة الحركة وإنسيابية ذيل الفستان. وما أن ترجلت العروس من حوض السيارة الخلفي وتلقفت الخادمتان ذيل الفستان وأرختا العنان لطوله الباهر على مساحة الساحة المؤدية إلى بوابة المحكمة، إشتكت سولافة من حاجتها للذهاب إلى الحمام لتلبية نداء لا يحتمل التأخير أو المساومة، فقادتها سعاد خانم بيدها، خوفا من تهورها في عاداتها اللامسؤولة في التخفف من ملابسها، (دون الالتفات إلى نوعية المكان وعدد جمهوره) وسارت بها إلى جهة قصية خلف بناية المحكمة. وما أن بدأت سعاد خانم بفك أقفال أحزمة الأمان التي تشد بها قماط حشمة سولافة حتى دوى إنفجار مرعب، وصل نثار حصاده، من جثث المحيطين به، إلى ما تحت أقدام سعاد خانم وسولافة، ما فجر نداء سولافة، وأجبرها على إطلاق عنانه من تحت ثلاثة سراويل داخلية، وثلاثة من البناطيل الصوفية المتسترة بأناقة سروال الجينز الخارجي الأزرق اللون. وبعد تجاوزنا، أنا والسائق ذو هالة الحزن، لفزع الصدمة، هرولنا إلى زاويتهما لنجدهما غارقتين في ذهول فزع الصدمة وسلس القطرات الصفراء المنسربة من فتحة نهاية بناطيل قماط سولافة في حذائها الجلدي البراق،

والمشدود إلى قدميها بأربطة جلدية فاقعة اللون لتبدو كأشرطة للزينة لا أربطة شد إحتياطية تكبح محاولات سولافة للتخلص مما يثقل طلاقة قدميها على سطح الطبيعة. قدناهما كعجوزين كليلتين لنعود بهما إلى واجهة بناية المحكمة، التي تحولت ساحتها إلى كتلة من الركام المتفحم، بما فيها ذيل فستان زفاف شغف الرابعة، فسألت سعاد خانم سائقها الأمين بصوت غائب عما حدث، فأجابها بثقة نبوية لا تقبل الجدل ((كان قدرا محكما بحقد إله إغريقي كامل المواصفات))! إحتاجت سعاد خانم لشهر كامل من أجل إستيعاب مأساة فقدها لآخر آمالها الأرستقراطية، في مقتل حفيديها، العاقين، في يوم زفافهما. أما سولافة فلم تكن بحاجة لأكثر من ساعة فك أقفال وأحزمة قماطها، ولحمام بارد، لا لتغسل آثار عنان مشاعرها المخجلة في ساحة المحكمة الخلفية، إنما لتخلص جسدها من حرارة القماط الخارجي وحرائق جسدها الداخلية... وبعدها عادت لتتربع في وسط سريرها لتكمل ملء قصاصات ذاكرتها من خلف غلالة صمتها الحجري. قضى السائق ذو هالة الحزن تلك الفترة في رعاية سيدته، وفاء لذكرى حبيبته غيمة المطر، رغم انها لم تعامله يوما كصهر لها، ورغم أمانته وإحتماله العجيب لشطط نزواتها الطبقية. ولشدة إستغراقه في رعايتها، أهمل حلاقة لحيته فعادت لتنمو ولتحيط رأسه بهالة صبره الأولى، التي وصل بها إلى القصر كسائق متعب، وقبل أن يتحول إلى عاشق موله ببابيون الرقيقة، بعد أن سحره لونها البحري ورائحة المطر التي تفوح من

ثنايا بساطتها. قضى تلك الفترة مقرفصا أمام باب غرفة نومها لتلبية طلباتها وتنفيذ أوامر إرثها الطبقي. كان يطبخ لها وجبات من إرث ذاكرتها العثمانية، ويعد لها مقبلات من صفحات ذائقتها الملكية، وينفذ لها أوامرا إستعمارية حول نظافة القصر وحفظ بهجة حديقته الأمامية. الطلب الوحيد الذي رفض تنفيذه لها، وأصر على رفض تنفيذه، رغم غضبها المزلزل، هو شراء سيارة جديدة للقصر، متعللا بأن سيارات مواكب مسؤولي الجمهورية الرابعة لم تترك لأمثاله فسحة لقيادة سيارة؛ وأيضا لأن شوارع بغداد باتت بلا هوية تعريف تصنف وجهة إنتمائها. وبعد أن أفاقت سعاد خانم من غياب شهر صدمتها ذاك، وإستعادت صلات كبريائها بواقع إنتمائها الطبقي، عاد ليتفرغ لحزن ذكريات بابيون الرقيقة، وهو مقرفص إلى جانب سريرها وعيناه تنثان كغيمة رمادية. وشيئا فشيئا أخذ ذلك الحزن في سحبه إلى مهاوي غيابه عن أرض الواقع ونسيان عاداته وإحتياجات جسده، وأولها نسيانه لتناول وجبات طعامه لأيام طويلة، ثم لأسابيع مضنية، ثم لأشهر ثقيلة، حتى إغتال روحه الهزال وثقلت حركته ولم يعد قادرا على مغادرة سرير بابيون، مكتفيا بسفح دموعه الصامتة. ولإستشعار سولافة لحالة إستغراقه، أخذت بزيارته في غرفة بابيون، بفستان حصارها الأخلاقي ومقعدها المطوي تحت أبط ذراعها الأيمن، لتجلس قبالة عينيه الزائغتين، ولتحدثه عن آخر نتائج قراءتها لمذكرات موت جدها الأول. كانت تجلس إليه من فترة العصر إلى ما بعد إغراق الغرفة

في ظلمة الإحتلال الجديد وحروب الساسة الليلية، وإلى أن ينطفئ لمعان عينيه، فتطوي مقعدها المتحرك وتعود لإكمال قصاصات ذاكرتها، التي كانت ترزمها بأشرطة مطاطية وترصها في علبة كارتونية لتكون جاهزة عند عودة جدها مكي لإصطحابها إلى حياة موته الدائم. إستمر صمت السائق، ذو هالة الصبر لأشهر طويلة أخرى، إنقطع خلالها المطر عن سماء بغداد... وإلى أن جفت آخر دمعة حزن في عروقه، فوجدته سعاد خانم، صبيحة يوم جمعة محاصر بحظر تجوال بلا يافطة تعريفية، قد مات، بعد أن تحول كل ما فيه إلى لون المطر، بما في ذلك لون بدلة العمل التي حافظ على لبسها إكراما لذكرى بابيون الرقيقة، لأنها كانت تذكرها بوداعة المطر. دفنته في حفرة مضافة في حديقة القصر الخلفية، إلى جوار حفرة الولد القديم وحيواناته الحزينة، وحفرة الخادمتين العجوزين، وحفرة شغف الأولى، التي حافظت على طراوة تربتها، رغم غياب المطر عن سماء بغداد خلال حقب حروب الجمهوريين، وعلى أمل نقل تلك الجثث إلى مقبرة الأولاد غير الشرعيين عند توقف الحرب. الغريب هو إني كنت أول المنكفئين على صمت غريب، بعد رحيل السائق ذو هالة الصبر، وكأنه خذلني على عتبة بلا لون أميزه. كنت أتسلل في أول الصباح إلى مطبخ القصر لأعد شيئا نأكله، أنا وسعاد خانم وسولافة، ولوجبة واحدة فقط، وسط زحام أشباح خادمات القصر، ودورانات الخادمة ذات الأصول اليونانية، وهي تبحث عن طريقة تحمي بها إبنتها سعاد من إيقاع غريزة الفراشات

ومصير نساء القصر المحتوم، كما كانت تردد في دورانها الذاهل. كانت تجلس إلى طاولة المطبخ، طوال فترة تواجدي فيه لتراقبني بصمت غائر في خيبة المكان، عبر ظلام الحرب الكثيف، الذي قصر حياة القصر على ضوء شمعتين، صارت تهديني، بترجيعات ذاكرة ما قبل الحرب، إلى ما كان يصعب على إنكفائي تمثله من إنحسار الأقدار من حولي إلى وجه واحد: وجه التوقف عن الفعل.. كما كانت تهديني إلى أماكن الأشياء التي كنت أنسى أماكن خزنها بسرعة عجيبة، بسبب عمق مساحة إنكفائي بسبب إنحسار المطر عن سماء بغداد.. ولهذا فإنها تولت، أيضا، توجيه خطواتي إلى مقاصدها، عندما كانت تنحرف بسبب ثقوب ذاكرتي، والتي أخذت تتسع من حولي لتشمل بعض حاجاتي ورغباتي الأساسية، وإلى أن هدتني إلى طريقة تعيد التوازن إلى ذاكرتي، عن طريق غمرها برائحة المطر التي كانت تفوح من غرفة بابيون الرقيقة؛ لأنها كانت ترجع تردي الحياة فيّ لغياب المطر عن سماء بغداد. عقب عودة مساحة ذاكرتي، عدت أتحاشى مواجهة سعاد خانم، عشيقتي السابقة..، المرأة التي إنغمست في عشق تفاصيلها، من زهو سطوة تسلطها الطبقي إلى طيش دفق جسدها بين ملاءات السرير.. المشكلة اني كنت أعرف سبب هروبي من مواجهتها: لإتقاء نظرة إحتقارها بسبب خيانتي لها مع حفيدتها... وكان من المستحيل إقناعها بأن تلك الخيانة لم تكن أكثر من تذوق قالب حلوى من خلف زجاج فاترينة العرض، واني قد أديتها كخدمة لشغف الثالثة، لأنها كانت

تعرف مدى شهوانيتي ووضاعتي قي إتباع شهواتي التي لا تفتر! صرت أترك لها وجبة طعامها في باب غرفتها مع طرقة خفيفة وأمضي لأدعو سولافة لتناول وجبتنا سوية في المطبخ. كانت تنزل إلى المطبخ بفستان حشمتها لتجلس إلى طاولة الطعام لتأكل بآلية روبوت وهي صامتة، إلى أن أكلمها فترد عليّ بما بقي في خاطرها من أفكار ونبوءات قصاصات ذاكرتها غير المدونة، وعن حدوسها الفلسفية، وما ينتظر التحقق من بقايا نبوءات نوستر أداموس، وتأخر أقدار وقوعها منذ خمسة قرون، بسبب تراكم حروب الساسة الاستعماريين. وتحت سقف تلك العزلة فقط ، تنبهت إلى أنها قد صارت في معزل عن مجرى الزمن، منذ دخولها الثالثة والعشرين من عمرها، لأنها لم تعد تتقدم في السن، وإن ملامحها وهيئتها العامة قد ثبتت عند حدود ذلك العام من عمرها،، هذا إضافة إلى عجز ذاكرتي عن إختراق طبقات ماضيها. كما أن تلك الغداءات الجافة نبهتني إلى توقف شعر رأسها وشعرها المخجل عن النمو وإنقطاع حيضها، الذي كان يلطخ شراشف السرير وارضية غرفتها وأرضية الممر المؤدي ألى حمام الطابق العلوي، بسبب عريها المزمن.. كما لأحظت خلالها توقفها عن التأثر بضرائب ميكانيكية الحياة وتوالي الأيام من حولها، وان معلوماتها قد توقفت عند حدود ما تبقى من فراغات قصاصات ذاكرتها، لأنها لم تعد تتعرض لفورات حرارتها الداخلية، حيث لاحظت انها لم تعد تتخفف من فستان حشمتها حتى في غرفة نومها. وفي كل مرة كنت أسألها

فيها عن موعد ذلك الثبات، كانت تكتفي بالإبتسام علامة على عدم فهمها لمقاصد سؤالي. ومما أكد لي حقيقة ذلك، وإنه لم يكن هلوسة غياب عن الواقع مني، هو عدم ملاحظة قوة مغاوير الشرطة الحكومية لوجودها، عندما داهموا القصر، ذات جمعة، ونبشوا كل ما في القصر بحثا عن السلاح، الذي رفضوا أن يصدقوا مني أننا لا نملك قطعة منه، بما فيها القطعة التي صرحت قوات الاحتلال الأمريكي بحق كل بيت الإحتفاظ بها دفاعا عن النفس، بعد حقبة فوضى تفليشها لكيان الدولة وتسريحها لمؤسسات النظام وهيبة القانون فيها. الذي فاجئني في ذلك الفجر هو ليس فقط عدم ملاحظة عناصر تلك القوة لوجود سولافة في غرفتها عند إقتحامهم لها، من أجل تفتيشها، إنما بسبب قلبهم لفرش سريرها، الذي كانت تتوسطه لكتابة قصاصات ذاكرتها، دون أن تسقط عن السرير. وبعد رحيل تلك القوة سألتها عن سبب عدم سقوطها عن السرير فأجابت دون أن ترفع رأسها عن القصاصة التي في يدها ((هذا لأني كنت مشغولة بقصاصتي))!، وهذا ما فسرته سعاد خانم على إنه دخولها مرحلة التحضير لرحيلها، وأعادها إلى أرض الواقع، للتحرش بقدر حفيدة إبنها، بسبب تعبها من وحشة وحدتها - بعد أن صارت سولافة وحيدتها – التي لم تكن توائم مناخها النفسي، لذا فإنها عاودت فرض طقوس الحياة على سولافة، على أمل طرد شبح الموت عنها، عبر طقوس الإستحمام اليومي والإعتناء بأناقتها، التي إستسلمت لها سولافة هذه المرة دون مقاومة. فأخذتها إلى أرقى محلات

الموضة، التي أدخلتها حقبة الاحتلال الجديد، لتشتري لها أحدث صرخات الموضة الباريسية والايطالية؛ وقصت لها شعرها في أحدث صالونات التجميل.. إشترت لها فساتين ضيقة وبلا أكمام، وأحذية ايطالية بكعب عالي وإكسسوارات من كل الألوان التي صادفتها، ما أثارت ضحك سولافة لتنوع ألوانها، بعد حقبة قمع بدائية تعريها بقماط حشمتها المعتم الفضفاض. كما أجبرتني على إعادة إصلاح ما خلف عناصر مغاوير الشرطة الحكومية من فوضى في إيقاع ركود القصر، وإعادة النضارة لأثاث صالة الجلوس والمطبخ وغرفة نوم سولافة وتنظيف مدخل القصر من ((غباء آثار وطء أحذيتهم الأمريكية التفكير))، كما قالت. وخلال الاسبوعين اللذين سبقى رحيل سولافة المفاجئ، عاد القصر إلى ما يشبه إيقاع حياته الأولى، لولا ذلك الرحيل المفاجئ، الذي جاء كضربة على أم الرأس، بهدوئه وغفلته، لأنه جاء ((دون تحضير أو سابق إنذار بموعده))، كما قالت سعاد خانم. ففي صباح يوم جمعة ربيعي، كنا ننتظر سولافة على مائدة فطور ذلك الصباح، إلا أنها تأخرت قليلا عن موعدها، لتنزل بعدها وهي في تمام أناقتها الملونة: فستان ربيعي فيرروزي اللون وحذاء بكعب عالي من نفس اللون، ولتجلس إلى مائدة غرفة الطعام كأميرة في موعد حبها الأول.. وبعد أن صففت صحون الفطور وأقداح الشاي على الطاولة، نهضت هي على عجل، وكأنها تذكرت شيئا لا يحتمل التأخير.. لم ترد على سؤال سعاد خانم عن وجهتها، إلا أننا، وعبر سماعنا لتسارع نقرات كعبها على

مرمر صالة الجلوس، عرفنا انها توجهت إلى باب المدخل المؤدي إلى حديقة القصر الأمامية.. لم تمهلنا المفاجئة لإتخاذ قرار متابعتها إلا بعد أن إنقطعت نقرات كعبها فجأة وإنقطع حفيف ثوبها كأنها ذابت في نقطة ما في لحظة واحدة. وجدناها واقفة تمسك بمقبض قفل الباب ورأسها ساقط على الجزء الزجاجي منه، وكأنها تفكر مترددة قبل قرار عدولها عن الخروج. ولأول مرة تصرخ سعاد خانم منتحبة مولولة بألم الفقد، كباقي النساء، قبل أن تسقط منهارة في بئر الإحساس بالضياع والشعور بأن لا جهة تحميها من عراء الموت. سحبتها من تحت أبطيها لأمددها على الأريكة القريبة مني.. لم أشم فيها، وأنا ألتصق بجسدها من الخلف، رائحة الشيخوخة المنفرة، رغم تجاوزها التسعين بخمس سنوات كاملة... عبير الأنوثة وحده الذي تنسمته في رائحة جسدها وأنفاسها، كشابة تدلف لتوها إلى ثلاثيناتها. ثم جاء دور سولافة لأنزلها من سقف موتها.. داهمني وشيش قصاصات ذاكرتها، وكأنها تتطاير للتوارى عن جلال موتها.. سحبتها من تحت أبطيها هي الأخرى لأريحها على صدري لأتمكن من مد ذراعي أسفل نهديها فداهمني نبض جسدها وكأنها ليست في أكثر من إغفاءة ستفيق بعدها. مددتها على أرض الصالة وأرخيت ساقيها وذراعيها وأسدلت جفنيها على آخر حرف شارد في قصاصات ذاكرتها، فنفثت آخر صوت في صدرها وإستسلم جسدها لقدره الذي لم يكن يراه غير إحساسها الفطري بلغة الأقدار. الغريب، والآن فقط ، أحسست أني

كنت أقف أمام أنثى كاملة النضج ، لا أمام بله الطفلة التي كانتها قبل موتها: أنثى من وله... أبيض! لم أجد لها تابوتا يليق ببهاء موتها الأبيض إلا في كنيسة دير لرهبان يعيشون على حافة الأرض المهملة.. طلبت من الراهب الحارس لموت الدير أن يغير لي لون تنجيده الأبيض بفيروزي ليوائم ميزاج موتها، فأخبرني بإبتسامة شفقة أن الرب لا تعنيه مثل هذه التفاصيل في إستقباله لأرواح رعاياه، فقلت ((الأمر يعني موتها هي... وهو ما يعنيني أنا))! عدت لأجد سعاد خانم تجلس إلى جانب جثة سولافة وتمسك بكفها الأيمن وتحدثها كطفلة ترفض الاستسلام للنوم.. قالت من خلف ضباب دموعها ((تريد أن ندفنها في عراء مطبق ريثما تنتهي الحرب وننقلها إلى حديقة المقبرة الملكية))، فقلت ((لو كانت الحرب توقفت لفعلنا... سنفعل عندما تتوقف الحرب.. كل شيء مؤجل لما بعد توقف الحرب)). عندما مددتها في التابوت إبتسمت وغمرت القصر رائحة تأريخ متورط بأوهام كثيرة، أولها أوهام الحرب التي كانت تتربص بكل وجوه انتظاراتنا، من وجبة الفطور إلى هزيم حماقات الليل الوردية. في الخارج، فوق إسفلت الشارع وخلف الأشجار وعطفات الأزقة وتحت السماء التي كانت أبعد مما صوروا لنا، كانت الحرب تستوقف كل ما عداها لتتأكد من نوايا وجهته.. إستوقفتنا إحدى دوريات المغاوير الحكومية لتطالبنا بشهادة وفاة مصادق عليها من دائرة الطب العدلي، فسألتهم سعاد خانم ((وهل تفوز جميع الجثث التي تلقى في المزابل والمقابر

المجاورة لدائرة الطب العدلي بتكريم شهادة الوفاة التي تتحدثون عنها))؟ عد ضابط الدورية كلام سعاد خانم تهجما وطعنا في نزاهة الحكومة ومساسا بهيبة الدولة، فأمر أفراد دوريته بالقبض علينا وعلى جثة سولافة لإحالتها إلى الطب العدلي، لبيان إن لم يكن موتها جريمة قتل، بدلالة إمتناعنا عن الحصول على الأوراق الرسمية التي تؤيد أن خروج سولافة من الحياة قد تم وفق ضوابط القانون. إحتاج الأمر لاسبوع كامل من جهد تلك المؤسسة لفك سر موتها، بسبب إمتناع روح سولافة عن مفارقة المكان وتضليلها لتقديرات الأطباء المتخصصين عبر معارج براءتها المقاومة لصدأ كل ما هو سياسي. وبعد أن تعب الطبيب، رئيس لجنة الفحص، سألني بصبر نافد ((ما كان سبب وفاتها برأيك))؟ فقلت بهدوء عجوز حكيم ((فراغها من تصفيف أوهام ذاكرتها، ما تركها وحيدة في مواجهة عراء ذاتها)).. نظر إلي بإستياء وملأ حقل سبب الوفاة في ورقة شهادة الوفاة ((ترفع الذاكرة عن الهبوط إلى مستوى الحدث اليومي))، وأمرني بإغلاق التابوت، رغم عدم قناعته بموتها، وقال بشرود ((لا بد أنها كانت راهبة تقية إلى درجة أن الموت يهاب أن يستولي على نضارة روحها))! دفناها في مساء ذلك اليوم إلى جوار جدها، على الرغم من عدم قناعة رجل الدين، راعي موت العائلة (الذي أصر على إيصال أرواح العائلة إلى نهاياتها، رغم تهالكه في شيخوخته السرمدية) بموتها، وذلك لخفة جثة سولافة ولرائحة البراءة الطازجة التي كانت تفوح من التابوت،

حتى إنه ظن، وهو يمسح غشاوة عمشه بطرف كم جبته المتهدل ((لا أظن أن هذا التابوت يحمل أكثر من غيمة مطر بيضاء))، كما ردد بصوته الذي خنقه هرمه العتيق. ما خلفه موت سولافة كان يفوق مرارة فقدها: عذاب مواجهتي لسعاد خانم بوحدة تامة. بعد أن عدنا من المقبرة مساء ذلك اليوم، أمرتني بالإنتقال للنوم داخل القصر، دون أن تنظر إليّ أو أن أجرؤ على النظر إليها. كانت متعبة دون كلل ودون أن تترهل فطرة أناقتها الطبقية. إعتكفت في غرفة نومها من أجل إستيعاب وضعها الجديد: الإرتكاس في بلادة وحدة ما قبل الموت..، إلا أني لم أكن السائق ذو هالة الصبر ولا حتى عبدالكريم رستم... كنت أكثر عنادا من فطرتها... بل ومن لعبة أقدارها ذاتها... وهي كانت، ذات أحد أوجاعها، عشيقتي التي أحفظ تفاصيل ومسارب أنوثتها، رغم مراوغاتها لذاكرة مرآة طاولة زينتها! لم أنتظرها؛ بل إعتكفت أنا الآخر لأعض على مراراتي كأي كلب أليف غدر به موت صاحبه المفاجئ. حافظنا على صمتنا كعدوين متمرسين في فنون الحرب الباردة.. كان كل منا يرقب إستمرار وجود الآخر عن بعد ويعود إلى وحدته بصمت، كصمت قدر بغداد الرابض على غصن شجرة ذكر توت، يقول: أنا هنا، وأرجوك إفهم أنا أحتاج وجودك. وبتراكم الأيام تأكدت أن لم يعد لها ما تقوله لي، لا بسبب هرمها – حيث انها شارفت على المائة – ولا بسبب نضوب معين الحياة في داخلها، إنما بسبب وصولها إلى ما بعد منتصف منزلق تبدد الهوية الثابتة. إشتكت مرات متكررة

من مزاحمة أرواح حفيداتها وأشباح شغف الثالثة لخطواتها ولتأملاتها المسائية، دون أن توجه شكواها إليّ، فصمت متظاهرا بالإنصات لأشباحي الخاصة، على سبيل السخرية من كبريائها، التي لم تعد تواسيها حتى سماء مطبخ القصر.. ولكن، ورغم ذلك، فإنها لم تستسلم لأي من ضرائب الوحدة أو الشيخوخة القاتلة، لأنها ظلت واقفة حيث كانت تحس إنها لن تخون ذاكرتها، ما حفظ رؤيتها لمفهوم نهايتها من التعفن في حفر الخوف المظلمة ودهاليز المجهول الأشد إظلاما. ظلت متمسكة بعنادها حتى آخر قطرة كبرياء فيها، حتى في متطلباتها اليومية، إذ فضلت أن توصل لي طلباتها عن طريق التفكير بصوت عالي على توجيه الكلام إلي مباشرة.. فعندما كانت تشتهي وجبة بعينها كانت تقول محدثة نفسها بصوت مسموع: كنا نأتي بالشاورمة، مثلا، من مطعم الساعة في ضاحية المنصور (فهي ظلت تسمي حي المنصور ضاحية، رغم انه الان يمثل مركز الشطر الغربي من بغداد، ورغم أن توسع بغداد قد تجاوزه حد تجاوز حدود ذاكرتها بعشرات من الكيلو مترات) فهذا المطعم يشويها بسحر نكهة أيام زمان، فأعرف إنها ترغب أن يكون عشاء تلك الليلة شاورمة من لحم العجل المحلي.. أو أن تكون راغبة في وجبة همبرغر مشوية على اللهب مع مقبلات المايونيز فتقول، عندما أكون قريبا من مرورها، أنها تذكر أن سائق القصر كان يأتينا بالهمبرغر من مطعم أبي يونان المتخصص بوجبات الهمبرغر السريعة، فأعرف أنها راغبة بوجبة همبرغر لغداء ذلك

اليوم.. وهكذا واصلت معي تلك الأيام الطويلة في كل تفاصيلها، إلى أن أيقظها ذات فجر جمعة ماطر، حلم موتها، الذي بدأ بإنتظارها أسفل شباك غرفة نومها ليأخذها إلى مجهول، لم تتبين هويته. في ذلك الفجر، أيقظتني برقة وهي ترتجف لتحدثني بتفاصيل ذلك الحلم ولتقول بهدوء المتأمل ((لا تظن أني خائفة..، كل ما في الأمر أنا مستغربة من أن تكون نهايتي بطلقة حرب جمهورية طائشة... لا وأن أمشي بنفسي إليها.. ألا ترى معي أن هذا منتهى الإجحاف؟ سيكون موتا سوقيا قاسيا: بطلقة حرب))! لم أجد ما أقوله لها غير أن أذكرها بنبوءة المس جين التي تنبأت لها برصاصة تعبر لها المحيط الاستعماري وأن أواسيها ببضعة كلمات، فرضعت سبابتها على شفتيّ مع نظرة رجاء وقالت ((كلا أرجوك! قلت لك أنا حزينة فقط على طريقة موتي لا خائفة منه)). إذن كانت بحاجة لرفقة مشابهة لرفقة عشيقتها في ليلة موتها... ولكنها كانت قد قطعت جسور الكلام بيننا من زمن سحيق، حتى اني قد نسيت طريقة تواصلنا أيام عشقنا.. ومع توالي اسبوع انتظارها لذلك اليوم، إستعادت هدوئها في تعاملها مع نبوءة ذلك الحلم، ومعي أنا الآخر، حتى إنها أهملت ذكره، وأخذت تمازحني وتداعبني بعطف أمومي لم أره منها حتى مع أولادها. قضت سهرات ذلك الاسبوع معي، وحتى ساعات متأخرة من الليل وهي تحدثني عن كل ما ليس له علاقة بالموت: الوضع السياسي العام للبلد، التدخلات والضغوطات التي تتعرض لها حكومات حقبة الاحتلال من الأطراف الخارجية.. الأزمة

الاقتصادية المستترة خلف زيادة مبيعات النفط .. الأزمة الإجتماعية المتسترة خلف قيم زائفة، سرعان ما يمسح بها دعاتها أنوف أحذيتهم ويلقونها في سلة النفايات، أمام أول صفقة، وإن لم تزد عائداتها على قرص حشيش أو زجاجة ويسكي وعلبة سجائر مارلبورو! أما في ليلة الجمعة التي تلت جمعة نبوءة موتها، فخصصتها لتقييم حياتها وماذا أخذت وماذا تركت، وما كان يجب عليها أن تأخذ منه وتركته لجهل منها فقط، وليس بسبب رادع ما، لأنها وكما قالت ((لم نولد لنتعذب ونحرم، بل لنعيش فقط... وكل حسب حظه من موقع نجمه)). لم تبد أي ندم وتجاه أي من أخطائها، رغم إعترافها بإرتكاب بعضها.. الخطأ الوحيد الذي أبدت عليه ندم، وبحسرة شقت صدرها، كان زواجها فقط.. وقالت ((تعرف، ورغم أن الجميع يرتكبون هذا الخطأ الفادح، إلا أن هذا لا يعزيني.. كان عليّ أن أكون أكثر إحتراما لنفسي))! لم تكن ليلة حوار لأسألها عن السبب، إنما كانت ليلة إعلان أخير وتصفية ذكرى ما يثقل، فإكتفيت بالإستماع لها حتى منتصف ليلة تلك الجمعة، التي إنصرفت فيها إلى غرفتها مع أول دقات إعلان إنتصافها، من قبل ساعة صالة الجلوس، وهي تقول ((حملتك الكثير من أعباء حياتي ياولد.. تركت لك إقرارا على طاولة الزينة في غرفتي، سيمكنك من إثبات شرائك لكل أملاكي وأملاك عائلتي.. فقط أرجو منك أن تنقل جثث أفراد العائلة ألى مدافننا عندما تتوقف الحرب، وأن تدفن شغف إلى جواري إن عثرت على جثتي))... وشغف التي عنتها كانت عشيقتها

التي أجبرتنا سنوات حظر التجوال على دفنها في حديقة القصر الخلفية، إلى جوار الولد القديم وحيواناته الحزينة والخادمتين الهرمتين.. هنا حاولت أن أقول كلمة بشأن ذلك الموت... إلا أنها وضعت سبابتها على شفتي وهي تبتسم قبل أن تدخل غرفتها وتغلق بابها بهدوء وبلا يأس.. وكان عليّ أن أحتمل قلق إنتظار فجر جمعة آخر... وفجر يوم حرب آخر.

قاسيون الشام ٣١ /١٢ /٢٠١٠

عنوان المؤلف

Sami_albadri@hotmail.de